كتابي

الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية



١٢ قرشا

حلمى مراد

امرأة تصفف شعرها !

لوحة للرسام الاندونيسى "بازوكى عبدالله"

كتابي

كتاب شهري لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر - صاحبه ورئيس تحريره : حلمي مراد

الكتاب الرابع والتسعون (السنة الثامنة)

الاشتراكات والأعداد السابقة : التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة

٥٩٥٥٦

أكتوبر ١٩٦١

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها أربعة وتسعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى أول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها سبعة وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة باسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يرليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بان سعرها فى مصر ٣٧ مليما ، ومن الممكن لمن فى السودان أن يرسل القيمة بحوالة بريدية .

محتويات الكتاب

عزيزى القارىء ..

بينما كانت آلات الطباعة تجرى ، لتقدم لك هذا العدد ، فوجئت القومية العربية ـ لا الجمهورية العربية المتحدة وحدها ـ بأحداث الاقليم الشمالى .. الاحداث التى طعنت كل قلب عربى مخلص ..

و «كتابى» ، لايملك أزاء هذه الأحداث التى أذهلت العروبة جمعاء ، سوى أن يردد **أقوال الرئيس جمال عبدالناصر** ، الذى كان صموده وموقفه الثابت ، الجرىء ، مصدر النور الهادى فى هذه الظلمات العاصفة :

« قد تنتكس الثورات ، والانتفاضات ، وحركات التحرير .. ولكن الشعوب الحية لا يمكن أن تموت ..

« وستظل جمهوريتنا ـ دائما ـ قلعة للقومية العربية ، وسندا للحرية العربية .. »

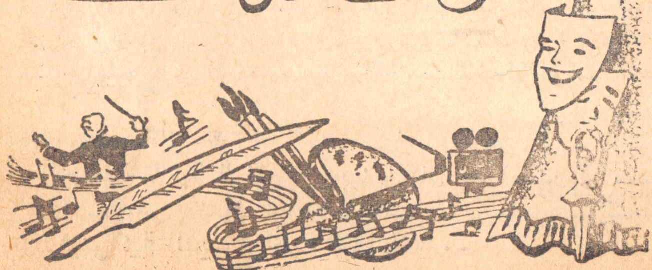
ونحن نؤكد للعالم ، ما أكده السيد الرئيس فى أيمان قوى ، وعزيمة ثابتة .. من أننا اليوم ، اذ نواجه لحظات حاسمة فى تاريخ الوطن العربى والامة العربية ، أشد تمسكا بعروبتنا وبرسالتنا ، وبمبادئنا ، منا فى أى وقت آخر ..

والله يوفقنا .. والله معنا .

أسرة « كتابى »



قراءات
ومشاهدات



عزيزى القارىء :

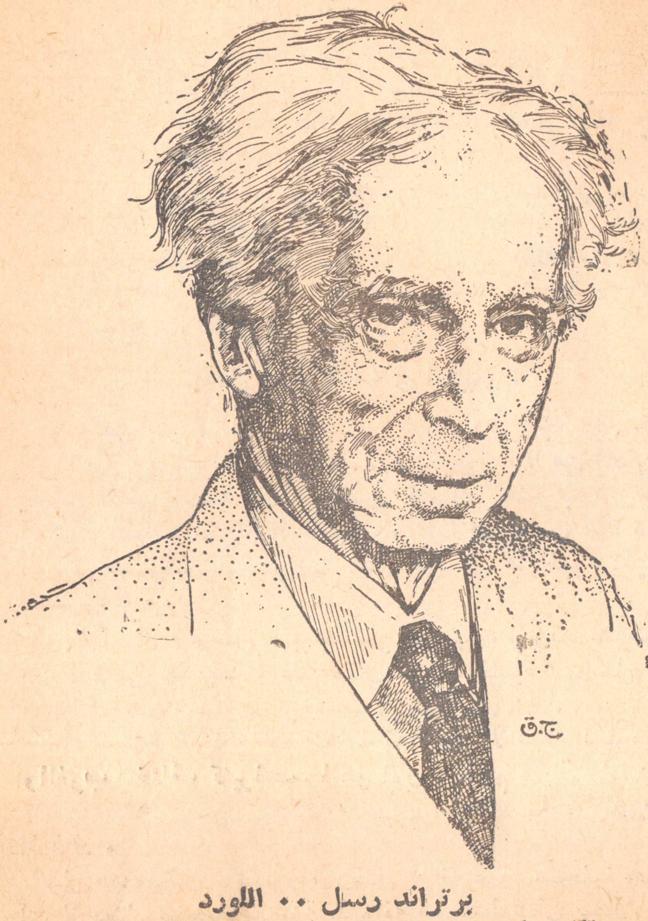
ضجتان شغلتا الرأى العام فى انجلترا عن الأحداث الدولية : حبس « لورد » برتراند رسل .. واختفاء لوحة لدوق ولنجتون ، من رسم الفنان الاسبانى الخالد الذكر « فرانشيسكو جويا » ..

والحادثان يستحقان أن نقف عند كل منهما قليلا ..

رسل .. عبقرية علمية وأدبية

• **وليست** هذه اول مرة يحبس فيها « برتراند رسل » ، فقد سبق ان سجن – عقب الحرب العالمية الاولى – لأنه انتقد قانون التجنيد .. فقد نشأ منذ صغره يكره الحروب .. وسجن – فى هذه المرة – لأنه دعا الى لون من العصيان المدنى ، احتجاجا على سباق التسلح الذرى ..

وبرتراند رسل – واسمه الكامل « برتراند آرثر وليم رسل » ، من مواليد سنة ١٨٧٢ . وقد درس فى كلية « ترنيتى » بجامعة « كمبريدج » . واذا كان النوابغ قد اعتادوا ان يكشفوا فى صغرهم عن اتجاه الى احد فرعين من المعرفة : العلوم الرياضية والعلوم الادبية ، **فان « برتراند » امتاز بنبوغ فى الفرعين معا ، فكان – أثناء دراسته فى « ترينيتى » – دائم الفوز بالجوائز الأولى فى الرياضيات والأدبيات معا** ، حتى أنه أختير – فى سنة ١٩٠٨ – « زميلا » فى الجمعية الملكية للعلوم .. بينما كان قد اصدر فى سنة ١٨٩٦ – وهو بعد فى الرابعة والعشرين من عمره – كتابا فى « الاشتراكية الديموقراطية الالمانية » ..



برتراند رسل .. اللورد
الذى لم يرهب السجن فى سبيل عدائه للحرب

وهكذا مضى فى حياته ، يوزع جهوده وعبقريته بين المواد العلمية ، والبحوث الرياضية ، والدراسات الاجتماعية والسياسية .. فبين مؤلفاته : ((**معرفتنا بالعالم الخارجى ، كميدان للاسلوب العلمى فى الفلسفه**)) ـ وقد اصدره فى سنة ١٩١٤ ـ و ((**مبادىء اعادة الانشاء الاجتماعى**)) ـ فى سنة ١٩١٧ ـ و ((**طرق الحرية**)) ـ سنة ١٩١٨ ـ و ((**نظرية البلشفية وممارستها**)) ـ سنة ١٩٢٠ ـ و ((**الف باء الذرة**)) ـ سنة ١٩٢٣ ـ و ((**ألف باء النسبية**)) ـ سنة ١٩٢٥ ـ و ((**الزواج والاخلاق**)) ، سنة ١٩٢٩ ..

يعمل صحفيا .. فى الخيال !

• **ولعل** سر كراهية « رسل » للحرب ، يرجع الى خوفه على العلوم والثقافة والحرية .. فهو يقول : ((**من الممكن أن يصبح العلم نعمة ، اذا امكن الغاء الحرب ، وصون الديموقراطية والحرية الثقافية .. فاذا لم يتسن هذا ، فان العلم سيقذف شرورا أعظم من كل ما خبره الجنس البشرى**)) ..

وقد امتاز « رسل » ببعد نظر عجيب .. وقد عثرت لك بين اوراقى القديمة ، على مقال طريف نشره « رسل » فى مجلة « ليدر » ـ أى الزعيم ـ فى سنة ١٩٤٩ ..

وفى سنة ١٩٤٩ ، لم يكن الموقف بين الاتحاد السوفيتى والغرب يختلف كثيرا عما هو الآن ، **اللهم الا فى ان امريكا كانت تحتكر اسرار الطاقة الذرية ـ والاسلحة الذرية ـ اذ ذاك .**

وفى هذا المقال ، تصور « رسل » انه عمل صحفيا حرا ـ اى لا يمثل صحيفة معينة ـ وأنه استطاع أن يحظى بلقاء « ستالين » .. ثم راح يعرض آراءه فى السياسة الدولية ،

وبما توهمه من حديث بينه وبين « رسل » ..

والمقال – اذا ترجم كاملا – يشغل صفحات عديدة ، لذلك سأكتفى هنا بأن أختار لك فقرات منه :

الحرب القادمة نكبة للجميع

• « **هناك** مسألة أساسية واحدة ، أوقن من أن كل العاقلين ، فى جميع الدول ، يتفقون عليها .. تلك هى أن حربا عالمية ثالثة ، يحارب فيها شطر من العالم – بقيادة روسيا – فريقا آخر تقوده امريكا ، **لا يمكن أن تكون سوى نكبة مدمرة للانسانية ، ونحس ماحق .. لا للمنهزم وحده ، بل للمنتصر كذلك** . وانى لأعلم أن فى الغرب بعض متهورين يفكرون على عكس هذا ، وما من شك فى أن فى روسيا عددا من صنفهم . ولكنى أعرف أن كل سياسى مسئول فى الغرب ، يرغب فى تفادى الحرب ، ولست اشك – ياسيدى – فى أنك من نفس الرأى . فهل ترانى أصبت ؟

« وانا واثق من أن ستالين سيهز رأسه ، ولكن من المحتمل أن يقول **أن تصرفات الغرب المثيرة جعلته يشك فيما اذا كانت الرغبة فى السلام صادقة فى الغرب ، كما هى لدى الحكومة السوفييتية** . ولكن ، اذا كان السلام رغبة الغرب حقا ، فليس من العسير الوصول الى تسويات للمسائل العديدة التى يدور حولها النزاع .

« واذ ذاك سأقول أننى قد جسست نبض ذوى النفوذ فى امريكا وانجلترا ، وقدحصلت على عين الاجابة التى ادليت لى بها ، كلمة بكلمة تقريبا . فقد قيل لى هناك – كذلك – انه وان كان من الجلى أن الحرب خراب لاسبيل الى تصوره ، فان **أعمال الاثارة فى الشرق ، جعلت من المشكوك فيه – لدى**

الرأى العام الغربى – ما اذا كان الشرق راغبا حقا فى أن يتفادى حربا عالمية . أما أنا ، فانى مقتنع بالرغبة فى السلام لدى الشرق والغرب على السواء ، ولكن الشك المتبادل هو وحده الذى يجعل هذه الرغبة غير ذات مفعول . وطالما ظل هذا الشك المتبادل ، فان كل جانب خليق بأن يتخذ اجراءات دفاعية – فى رأيه – ولكنها فى رأى الجانب الآخر تبدو كاستعدادات للهجوم . **ولما كان كل امرىء يعرف أن الهجوم هو خير دفاع ، فان من المحتمل أن تؤدى استعدادات الدفاع الى هجوم .**

« فماذا تكون الخطوة الاولى ، اذا أريد تحطيم هذه العقدة ؟

ميثاق التعهد بالسلام

. « **أننى** اذ أفترض أن الرغبة فى السلام حقيقية لدى الفريقين ، أرى أن الخطوة الاولى هى المجاهرة ببيان مشترك ، يؤكد هذه النقطة التى لاجدال فيها . ولست أعنى بالبيان صيغة جليلة جوفاء ، من تلك الصيغ التى تنسب فيها الدول الى نفسها درجة من الفضل لاسبيل الى تصديقها . **أنما أعنى بيانا مفصلا .. بيانا يثبت – بمحتوياته – صدقه واخلاصه .** والذى اتمثله بيان تصدره جميع حكومات الدول الاعضاء فى الامم المتحدة ، وتقول فيه :

« **أننا** – اذ فحصنا وتدارسنا نتائج الحرب الحديثة – نوافق على أن أية حرب عالمية ثالثة ، مهما تكن نتيجتها ، وسواء انتهت بانتصار للشرق ، أو بانتصار للغرب ، أو بتعادل .. ستنطوى – لا محالة – على الشرور التالية .. »

وبعد تعديد النتائج الضارة ، يمضى البيان :

((**هذه الشرور تفوق فى ضخامتها واهميتها كل موضوعات النزاع . ثم فلن يكون من مصلحة أية دولة كبرى أن تلجأ الى الحرب ، لحسم هذه الموضوعات**)) .

الخوف المتبادل نتيجة الشك

. ((**فاذا** أفترضنا نجاح هذا البيان ، وجب أن تكون الخطوة الثانية ، هى السعى الى تهدئة مؤقتة فى كافة النواحى التى بلغ فيها خطر الاصطدام أقصى احتدامه .

((والعقبة الاساسية ، ليست مما يسهل التفاوض بشأنها ، وهى أن **كلا من الفريقين يخاف أن يهاجمه الآخر** . وللتخفيف من هذا الخوف ، لابد — أولا — من تخفيف الشك المتبادل القصير الاجل ، حتى اذا تحقق جو موات ، وجب بحث اجراءات يتفق عليها لجعل أى هجوم لفاجىء أكثر صعوبة ، أن لم يكن مستحيلا ..

((وخير طريقة لتخفيف الخوف من القوات المسلحة الروسية فى أوربا ، هى **السماح بقيام المانيا كدولة قوية ، محايدة ، قادرة على أن تقاوم الغزو ، سواء كان من الشرق أو من الغرب** .. وخير طريقة لتخفيف خوف روسيا من القنبلة الذرية ، **هو تدويل موارد الطاقة الذرية** .. فطالما أن امريكا تحتفظ بالسبق فى صناعة القنابل الذرية ، فان روسيا تحظى بفائدة هائلة ، اذا أبدل الاحتكار الامريكى الحالى ، بسيطرة دولية ..

صعب كتمان الاسرار فى وقت السلم

. ((**وسأستطرد** قائلا : أننى أعرف أنكم ترون فى وجود تفتيش دولى — عند تدويل صناعة الطاقة الذرية — خطرا يمكن من ترونهم أعداء لكم من أن يعرفوا أسراركم الحربية

.. ولن أسفه من هذا الخوف ، ولكنى أتناول حجج الجانب الآخر ، التى يبدو أن الحكومة السوفيتية لم تستبنها جيدا . **وفى الاعتبار الأول** : أن المفتشين السوفييت سيعرفون أسرار الغرب الحربية ، وهذا يعادل اطلاع أمريكا على الاسرار الحربية السوفييتية .. **وفى الاعتبار الثانى** أن من الصعب كتمان الاسرار فى وقت السلم ، ولعل الامريكيين يعرفون عما يرغب الروس فى كتمانه أكثر مما يظن الروس .. **وفى الاعتبار الثالث** : أن كل سلطة يعتد بها فى الغرب ، مقتنعة بأن قيام سباق للتسلح الذرى ، سيكون شرا .. **وهذا هو مادعا الحكومة الامريكية الى أن تعرض النزول عن احتكارها الحالى لهيئة دولية .. »**

لوحة مسروقة تخفف وطأة الحوادث الدولية

• **اما** « جويا » — صاحب اللوحة التى سرقت من المتحف البريطانى — فله حديث آخر ، ستقرأه فى كتاب « الماجا العارية » ، الذى نلخصه لك تلخيصا وافيا — فى حوالى ٥٠ صفحة — **ابتداء من صفحة (٩٩) من هذا العدد**

ولكنى هنا سأحدثك عن اللوحة ذاتها .. اللوحة التى اشتراها المتحف بمبلغ مائة وأربعين ألف جنيه استرلينى .. ولقد وصف بعض المعلقين سرقة اللوحة بأنها : **« حادث سعيد خفف من ضغط الحوادث والتطورات السياسية والدولية ، فصل شديد الكآبة والوطأة بطبيعته » !**

ولم يكن فى حديث هؤلاء المعلقين مبالغة ما ، فالواقع أن

الصحف البريطانية كلها – وتبعتها صحف العالم – أنقضت على هذا الحادث ، كشيء مثير من الدرجة الأولى .

علمه الفرنسيون كيف يحاربهم

• **وكانت** اللوحة تمثل « دوق ولنجتون » الأول .. وقد كان من كبار رجال الحكم والحرب – في انجلترا – في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، والنصف الأول من القرن التاسع عشر .. وكان من أطرف المتناقضات في حياته ، أنه – بعد أن أتم دراسته في (ايتون) – **درس الفنون العسكرية في مدرسة حربية فرنسية .. ثم برز أول ما برز في ميدان الحرب ، في معركة ضد فرنسا** ، اشترك فيها في سنة ١٧٩٣ .. وعنده من العمر ست وعشرون سنة !

ثم خدم في الهند ، واشترك في عدة معارك هناك ، أبدى فيها من البلاء والبراعة العسكرية ، ما جعله يرقى الى مرتبة « ميجر جنرال » ، في سنة ١٨٠٢ ، أي وهو في الثالثة والثلاثين من عمره !.. ثم عاد الى انجلترا بعد ثلاث سنوات، ليحمل لقب «ايرل» . ودخل البرلمان في العام التالي ، وبعد ان تقلب في بعض المناصب ، أوفد الى البرتغال ، على رأس قوة لتعزيز مقاومة هذه البلاد للاحتلال الفرنسي ، وتمردها على نابليون ..

ومن سخريات القدر أن البرتغال اليوم من أشد دول الاستعمار المغرورة تمسكا بمستعمراتها .. كما يتجلى في موقفها من (انجولا) !!

واستطاع « واينجتون » أن يطرد الفرنسيين من البرتغال .. ثم استطاع أن يطردهم من اسبانيا .. وكانت هذه بداية مجده ، وسبب فوزه بلقب « الدوق » .

وفي سنة ١٨١٤ ، أوفد الى باريس سفيرا لبلاده .. ثم



اللوحة المسروقة !

تولى – فى العام التالى مباشرة – قيادة جيوش الدول المتحالفة ضد نابليون .. وهزمه فى معركة (ووترلو) المشهورة . ثم احتل باريس !

يرسم نقوشا لصناعة السجاد

• **وبالرغم من** أن كتاب « الماجا العارية » يروى شطرا كبيرا من قصة « جويا » ، الا أنه لا يحوى كل سيرته .. لذلك أرى أن الخصها لك فى سطور قلائل :

ولد **« لوسيانتاس فرانشيسكو جوزية دا جويا » فى سنة** ١٧٤٦ .. وبعد أن درس أعمال كبار الفنانين الاسبان فى عصره ، رحل الى (روما) ، حيث قضى عدة سنوات ، ثم عاد الى (ساراجوسا) – فى سنة ١٧٧١ – حيث قام برسم لوحات لتزيين جدران كنيسة عذراء (ديل بيلار) .. وعاش معظم عمره – بعد ذلك – فى مدريد ، حيث توفر ، فيما بين سنتى ١٧٧٥ و ١٧٩٠ ، على رسم مناظر تخطيطية لتنقل نسجا على السجاجيد والابسطة التى كانت تصنع فى (سانتا باربارا) ..

وفى تلك الفترة ، رسم كذلك بعض الرسوم العجيبة التى أشتهر بها ، ولوحات لنبلاء الطبقة الارستقراطية الاسبانية ، امتازت بعمق تحليله لشخصيات أصحاب هذه اللوحات ..

على أن أشهر أنتاجه – فى هذه الفترة – هما لوحتا

« الماجا » .. وأحداهما عارية ، والأخرى مكتسية .. وهما الآن فى متحف أكاديمية سان فيرناندو ، بمدريد .

ولقد أثارت « الماجا العارية » ضجة ، فى ذلك العهد ، إذ لم تكن الصور العارية مألوفة ، بل كانت التقاليد تعتبرها لونا من الخلاعة والتبذل ..

ومما زاد الضجة شدة ، أن اللوحة كانت تمثل أحدى النبيلات ، وهى دوقة ألبا .. على أن بعض المؤرخين يقولون أن الدوقة لم تستلق أمام «جويا» لتكون النموزج الحى الذى ينقل عنه ، وانما استخدم الفنان أحدى فتيات « الماجا » ، فرسم جسدها عاريا ، **ثم رسم وجه الدوقة فوق ذلك الجسد ، أوجرت ريشته بمعالم الوجه ، كما كانت عادته منذ أحب الدوقة ..**

ولا يستبعد هذا ، اذا راعينا أن « جويا » كان سامى الحس والذوق ، بعيدا عن التبذل .. وأنه أحب دوقة البا حبا صادقا ــ كما ستقرأ فى الكتاب الملخص فى هذا العدد ــ ومن ثم فقد كان جديرا بأن يربأ بالدوقة أن تستلقى أمامه عارية ليرسمها ..

وفى سنة ١٧٨٥ ، اصبح مديرا لأكاديمية الفنون ، والرسام الأول لبلاط الملك شارل الرابع .

عشرون ولدا .. ماتوا فى حياته !

• **على أن** « جويا » برز ــ بوجه خاص ــ فى رسم « الكاريكاتور » ، والرسم الهزلية ، و « الأسكتشات » .. وفى المتحف البريطانى بلندن ، و «اللوفر» بباريس ، مجموعة كبيرة من مخلفاته فى هذه الميادين .

وقد خدع « جويا » ــ فى البداية ــ بما كان لمبادىء الثورة الفرنسية من رنين طنان ، حتى أنه عارض مقاومة الفوات

للفرنسية ، عندما غزت اسبانيا ، ظنا منه أنها ستحرر المستضعفين — من مواطنيه — من فساد الحكم الملكى ، ومن طغيان الارستقراطية .. **ولكنه ما لبث أن تبين أنه أنما كان حالما ، فانضم الى المتمردين على الحكم الفرنسى ..**

وعقب تحرر اسبانيا ، عاد « جويا » الى حياته الماضية .. وتقول بعض الروايات ان نضاله مع الاحرار ، الان قلب زوجته ، فعادت اليه — بعد الخصام الطويل الذى ستجده فى قصة « الماجا العارية » — واستأنفا حياتهما الزوجية ، وانجبا .. عشرين طفلا !

وكأنما كان الاسى على موعد مع « جويا » ، اذ مات أطفاله العشرون قبل وفاته هو .

وقد أصيب فى أواخر حياته بالصمم ، وعاش المرحلة الأخيرة من عمره ، فى مستعمرة اللاجئين الاسبانيين فى (بوردو) .. لا رفيق له سوى العزلة ، والريشة الساخرة التى لا تكف عن نقد الأوضاع الفاسدة ..

سلسلة من السرقات الدولية

• **ولقد** أختفت اللوحة — التى سرقت أخيرا — فى ليل يوم الاثنين ٢١ اغسطس .. فى عين الوقت — تقريبا — الذى سرق فيه « فنشينزو بيروجيا » لوحة « موناليزا » — من متحف اللوفر — ليردها الى ايطاليا ، منذ .. خمسين سنة ! .. فهل تراها كانت مصادفة ؟ ! .. لقد كان الامر من الغرابة بحيث أن البعض ظنوا — فى البداية — أن بعض المازحين أنما سرقوا لوحة « دوق ولينجتون » ، لمجرد أحياء ذكرى سرقة لوحة « موناليزا » !

ولكن الامر لم يكن مزاحا .. فالواقع أن سرقة هذه اللوحة ،

. . . .

الى اليسار : تحفة لجويا منقوشة على الخشب



تمت بعد سلسلة من السرقات الدولية للتحف الفنية .

ولما كان من شبه المستحيل بيع لوحة كهذه - لاسيما بعد الضجة التى أثارتها سرقتها - فان المرجح أن السارق من عشاق الفن ، وقد دفعه جنون الهواية الى أن يستأثر باللوحة .. غير أن بعض ملابسات أحاطت بالحادث ، تجعل من العسير الركون الى هذا التعليل كأمر قاطع .. من ذلك أن ادارة الامن - فى لندن - تلقت رسالة من مجهول ، يعد فيها باعادة اللوحة الى مكانها ، اذا قدمت الدولة بضعة آلاف من الجنيهات لبعض الجهود التى تبذل للحيلولة دون حرب ذرية .. ومن ذلك ما قيل من أن شركة التأمين التى كان مؤمنا على اللوحة لديها - وهى شركة فرنسية - استطاعت أن تتصل بالسارقين فهم أكثر من واحد ، وان تصل معهم الى اتفاق مبدئى .

يتفرجون على .. الفراغ الذى خلفته اللوحة !

• **ومن** الطريف ، أن كثيرا من الناس ترددوا على المتحف البريطانى - بعد السرقة - **ليتأملوا مكان اللوحة وقد خلا منها .**

وهذه اللوحة واحدة من ثلاث لوحات أخذت عن رسم للدوق ولينجتون فى حياته ، عقب معركة (سالا مانكا) ، أحدى معاركه الفاصلة لطرد الفرنسيين من اسبانيا .. واللوحة المسروقة تمثل قسمات وجه ولينجتون وملامحه .. وهناك لوحة أخرى ، فى امريكا .. أما اللوحة الثالثة ، فتمثله على صهوة جواد ، وهى الآن فى معرض (ابسلى هاوس) الفنى بانجلترا .. أما الصورة الأصلية ، التى نقلت عنها معالم اللوحات الثلاث ، فتوجد الآن بقسم الطباعة بالمتحف البريطانى .



قصة غانيتين

خُدعة بخدعة .. والبادى أظلم !

درجت مجلتا «كتابى» و «والمطبوعات» ـ منذ صدورهما ـ على تقديم ألوان متعددة من الفن والفكر الانسانيين . ومن الملاحظ أن معظم هذا الانتاج من تأليف كتاب وأدباء معروفين ، غير أن هنالك نوعا آخر من الأدب الذى لا ينتمى لمؤلف معروف ، وانما تحمله الشفاه وتتناقله من جيل لجيل ، ذلك هو الأدب الشعبى .

وفى الشهر الماضى عثرت لك على كتاب طريف يتضمن مجموعة كبيرة من الأساطير الهندية القديمة التى تعد ركنا أساسيا فى الأدب الشعبى الهندى . وهى مأخوذة من مجموعة بعنوان « محيطات من أنهار الغرام الأعظم » .

والأسطورة ـ التى انتقيتها لك هذا الشهر ـ من هذه المجموعة ، تصور حياة فئة معينة من نساء الهند ، هى فئة المحظيات التى كانت تمثل قطاعا لا يقل أهمية عن فئة الزوجات المحصنات .. لقد كانت الفتاة الهندية تظل رهينة المنزل حتى يتقدم اليها من يطلب الزواج منها ، ومن ثم كانت لا تحصل على قدر كبير من التعليم ، وتنحصر معلوماتها واهتماماتها فى شئون منزلها . أما اذا رغب الشاب الهندى فى أن يمارس المتعتين ، الثقافية والحسية معا ، فكان عليه أن يتجه الى المحظية ، التى كانت تودع ـ منذ ولادتها ـ فى أحد المعابد الوثنية ، حيث تتعلم فنون الموسيقى والرقص والغناء والتمثيل ..

وهكذا لعبت فئة المحظيات دورا كبيرا فى المجتمع الثقافى والتعليمى فى الهند ، كما فعلت زميلات لهن فى بلدان أخرى ، مثل فتيات (الجيشا) فى اليابان ، وعاهرات أثينا القدامى !

والآن نتركك مع « قصة غانيتين » التى تعالج جانبا من حياة تلك الفئة .. فئة المحظيات :

يحكى انه كان يقيم فى مدينة كبيرة من مدن الهند ، غنية بالثروات ، تدعى (سيتراكيتو) ، تاجر ثرى اسمه « راتنا ماراماد » . وكان قد من عليه الاله « سيفا » بابن ذكر ، أطلق عليه اسم « اسفارامان » تيمنا به .

ولما رأى التاجر الكبير أن ابنه قد انتهى من دراسته واقترب من طور الرجولة ، قال فى نفسه : « لقد صور الاله مخلوقا واحدا ، تتجسد فيه الرذيلة بأجلى معانيها ، يسلب اموال الشبان الاثرياء الذين تعميهم فحولتهم ، هذا المخلوق هو « المحظية » .. لذلك يحسن بى أن أودع أبنى لدى احداهن ، حتى يشب وقد تعلم كل حيلهن والاعيبهن ، واكتسب مناعة تحميه من الوقوع فى شراكهن ! »

وفى اليوم التالى ، اصطحب التاجر ابنه « اسفارا » الى منزل وسيطة تدعى « ياما جيهفا » ، أى (لسان الموت) .. وكانت مكتنزة الوجنتين ، بارزة الأسنان ، فطساء الأنف .. فلما قادته الخادمة الى الداخل ، وجد الوسيطة منهمكة فى تلقين ابنتها اسرار مهنتها قائلة : « يجب أن تدركى يا ابنتى ، أن كل شىء فى الوجود - سيما المحظية - له سعر يباع به ويشترى . لذلك وجب على الغانية أن تحذر من الوقوع فى شراك الحب . ذلك أن العاطفة تشبه الغسق ، فكما أن غروب الشمس يعلن اقتراب الليل ، كذلك سقوط الغانية فى شباك الحب يعد نذيرا بزوال مجدها ! .. وكما أن الممثلة القديرة تتظاهر بغير ما تبطن من مشاعر ، فيجب على تاجرة الحب أن تحذو حذوها ! .. فان الحاذقة هى التى تغوى الرجل وتحتلب نقوده ، حتى اذا ما جردته تماما من كل ما يملك ، نبذته نبذ النواة . اما اذا عاد وأثرى من جديد ، رحبت به وفتحت له ذراعيها ! .. انها تشبه الناسك المتعبد الذى ينزل الحدث والشاب والعجوز فى مرتبة واحدة ،

وهى أيضا ينبغى أن تتسلح بنفس النظرة ، **فسيان لديها أن كان الرجل جميل الطلعة أو دميم الخلقة !** .. وبذلك تحصل على أسمى الفوائد وأجلها ! »

وتقدم « راتنافارمان » الى الوسيطة ، التى ما أن لمحته حتى نهضت واقفة واستقبلته بكل مظاهر الاجلال والاحترام . فجلس التاجر الى جوارها ، ثم قال : « لقد جئت أطلب اليك أن تعلمى ابنى شتى فنون المحظيات وحيلهن ، حتى يصير خبيرا ذا دراية .. وسوف أجزيك مقابل هذا بألف قطعة من الفضة » .. وفى الحال رحبت المرأة بعرضه ، فدفع لها « راتنافارمان » المبلغ ، وأودع أبنه رعايتها ..

***

وتابع « ايسفارا » دراسته فى منزل « ياماجيهفا » لمدة سنة كاملة ، عاد بعدها الى منزل أبيه وقد ناهز السادسة عشرة . فما أن أبصر اباه حتى أنطلق قائلا : « أن النقود تجلب الحب والاحترام .. النقود مصدر الشرف .. النقود سر الشهرة ! » .. واذ سر والده من نتيجة دراسته ، نفحه ثروة تقدر بخمسين مليونا من القطع الذهبية !

وأخذ الابن النقود ، وانضم الى احدى القوافل الراحلة الى (سومطرة) ، حتى وصل الى مدينة تدعى (مدينة الذهب) ، حيث حط رحاله ونصب خيامه فى غابة صغيرة خارج المدينة . وبعد أن استدعى احد المدلكين لتدليك جسده ، دخل المدينة ، ثم قصد الى أحد المعابد ليشاهد احدى المسرحيات التى تعرض هناك .. وما لبث أن وقع نظره على فتاة كانت تؤدى رقصة عنيفة ، **فبدت له وكأنها موجة صاخبة من موجات الجمال وقد عصفت بها رياح من الرشاقة !** .. وامتلأ ذهنه بصورتها الخلابة ، حتى لقد تبخرت من عقله كل تعاليم الوسيطة ونصائحها !

فلما فرغت الراقصة من أداء رقصتها ، أوفد اليها «ايسفارا» رسولا يحمل اليها عرض سيده بقضاء ليلة معها . فقبلت العرض على الفور ، بانحناءة من رأسها ، وهى تقول : **«لى الشرف .. لى الشرف !»**

وانطلق « ايسفارا » ليوافى الراقصة « سونداری » فى دارها . وهناك استقبلته أم الفتاة بكل مظاهر المودة والحفاوة التى عرف بها منزلها ! .. وفى المساء ، قادته سونداری الى غرفة نومها ، حيث أعد فراش وثير ، ذاق فوقه « ايسفارا » – بين أحضان الغانية اللعوب – من ملذات الغرام ما أطاش صوابه ، **فقد اظهرت له الفتاة مهارة فى فنون العشق ، تضارع مهارتها فى الرقص والغناء !**

وفى اليوم التالى ، وجد الشاب مشقة بالغة فى انتزاع نفسه من بين ذراعيها ، فقد تشبثت بالبقاء الى جواره ، وتعلقت به ، كما لو كانت قد عشقته عشقا مبرحا !.. وأراد الشاب أن يقدم لها مليونين من القطع الذهبية ، مقابل اليومين اللذين قضاهما فى فراشها ! .. غير انها رفضت باباء وشمم ثم قالت : « ما حاجتى الى المال ؟ .. اننى أملك ثروة طائلة .. الا اننى لم ألتق برجل مثلك من قبل .. فما قيمة الذهب ، ما دمت أنت معي ؟ ! »

وبينما كانت « سونداری » تتظاهر بالعزوف عن قبول ذهبه ، اذا بأمها – التى لم تنجب سواها – تقول لها على مسمعه : « ان كل ما نمتلكه قد أصبح الآن ملكه أيضا .. **فما ضرك لو اضفت ذهبه فوق ذهبنا** ، ليكون الكل تحت تصرفه ؟ ! » .. وهكذا سقط ابن التاجر الثرى فى شراك فتنة « سونداری » وروعة أغانيها ورقصاتها ، فقضى الى جوارها شهرين ، أنفق عليها خلالهما عشرين مليون قطعة ذهبية !

وذات يوم ، جاءه صديق يدعى « أرثاداتا » ، واختلى به ثم قال : « أمن المعقول يا صديقى أن يذهب سدى ذلك المجهود الجبار ، الذى بذلته فى تلقى تعاليم الوسيطة ؟ .. هذا وفى الوقت الذى انت أشد ما تكون فيه حاجة اليها ! واأسفاه ! .. ما أشبهك بالفارس الجبان الذى تخذله فروسيته فى ساعة الخطر .. انك تؤمن أن مشاعر الداعرة نحوك صادقة ، فهل السراب فى الصحراء حقيقى ؟ .. لنغادر — اذن — هذا المكان قبل أن ينفد ما تبقى لديك من نقود . ان والدك سوف يستشيط غضبا ، ولن يغفر لك مسلكك ، لو بلغه ما حدث ! »

فأجاب ايسفارا قائلا : « انك على حق يا صديقى ، فليس يجدر بالمرء ان يثق ببنات الهوى . الا أن سونداری تختلف عن قريناتها .. انها تخلص لى الحب ، بل انها على استعداد لأن تنتحر لو غبت عن نظرها دقيقة واحدة ! .. فاذا كنت ترى الا مناص لى من الرحيل ، فعليك أنت أن تقوم بابلاغها الأمر ! »

وتوجها فورا ألى « سونداری » وأمها « ماكاراكاتى » ، فقال لهما « أرثاداتا » : « أننا نؤمن بأنكما تحبان «ايسفارا» حبا لا مثيل له .. غير أن الوقت قد حان له ليتابع رحلته الى سومطرة ، كى يكتسب ثروة طائلة ، حتى اذا ماتحقق له ذلك ، عاد من فوره ليعيش معكما الى الأبد ، فى سعادة وهناء ! »

وأخذت « سونداری » تحملق فى وجه « ايسفارا » ، وقد ترقرقت الدموع فى عينيهـا ، ثم قالت فى رنة أسى ويأس : « الامر لكما .. فمن أكون أنا لأناقش هذا الامر ، أو لأعترض على حكم القدر القاسى ألذى فرضه على ؟ ! » .. وعندئذ ، حاولت الأم ان تبث السكينة فى قلب « العاشقة » الصغيرة ،

فقالت : « لاتبتئسى يا بنيتى .. هدئى من روعك ! .. أن صديقك لا محالة عائد اليك .. فاننى على ثقة من انه لن يهجرك . بعد أن يجنى ثروته المنشودة » .. فتمالكت الابنة مشاعرها ، وقد بدا أنها اقتنعت بكلام أمها . فلما اختلت الأم بابنتها ، أخذتا تنسجان خيوط مؤامرة جديدة للايقاع بالفتى الفر ، فكان أن أعدت الام شبكة ، أمرت بوضعها فى قاع بئر خارج المدينة !

وبينما كان قلب «ايسفارا» يتأرجح بين الشك واليقين ، عزفت نفس « سونداري » عن الطعام والشراب . **غير أنها لم تستطع أن تخفى « هواها » له و « شغفها » به ، من خلال أغانيها ورقصاتها !** .. أما « ايسفارا » فقد حاول من جانبه أن يبث العزاء فى فؤادها « المعذب ! » ، بكل ما وسعه قلبه الساذج من مشاعر وأحاسيس !

***

وبعد أيام قلائل ، وقفت الأم تمنح ايسفارا « بركاتها ! » وهو يتأهب للرحيل ، ثم خرجت مع ابنتها كى تصحباه حتى خارج البلدة .. وبينما الجميع يسيرون فى طريقهم ، كانت الدموع تنهمر بغزارة من عينى الفتاة ! .. فلما وصل الركب الى البئر التى وضعت الأم فيها الشبكة، حياهما «ايسفارا» مودعا ثم طلب منهما أن تعودا الى منزلهما .. غير أنه ما أن أولاهما ظهره، حتى انطلق فجأة صراخ الأم والخدم، قائلين : «أواه يا ابنتى ! .. أواه يا سيدتى !» ، فاستدار «ايسفارا» لفوره ليستطلع جلية الأمر ، واذا به يتبين أن محبوبته قد ألقت بنفسها فى البئر !

وأخذت الأم تنتحب بحرقة ، وتلطم خديها ، متحسرة على ابنتها التى قضت نحبها فى ربيع شبابها ، شهيدة العشق والغرام ! .. ثم امرت خدمها ، الذين كانوا على علم بالمؤامرة ،

أن ينزلوا فى البئر. فهرعوا لتنفيذ أوامرها، وأحضروا حبالا طويلة استخدموها فى الهبوط الى القاع .. وبعد قليل سمعهم ايسفارا يهتفون: «**يا لقدرة الآلهة.. لتتبارك الآلهة .. انها تعيش .. انها حية!**»، ثم صعدوا بها الى الخارج.

وتظاهرت الفتاة بالموت، غير انها ما أن سمعت أن عشيقها قدعاد اليها، حتى ارتدت الحمرة الى وجنتيها الشاحبتين، وندت عنها صرخة خافتة ثم غابت عن وعيها! .. وعاد «ايسفارا» بعشيقته وصديقه الى المنزل، ولم يعد يخالجه ادنى شك فى صدق مشاعر الفتاة، بل إنه قدم للآلهة قرابين الشكر والعرفان بالجميل، **لأنها اسبغت عليه أعظم نعمة فى الوجود: وهى نعمة الحب الحقيقى المجرد عن الزيف والخداع!!**

***

ولما استقر به المقام فى منزل المرأتين، قال له صديقه «**أرثاداتا**»: «ماذا دهاك يا صديقى؟ .. هل أطاش الحب بعقلك تماما؟ .. امن المعقول أن تثق ثقة عمياء فى حب فتاة فاجرة مثل «سونداری»، لمجرد انها قد ألقت بنفسها فى البئر؟ .. **يجب أن تعلم، يا صديقى، أن حيل الغانيات وخدعهن، تفوق تصاريف القدر غرابة وغموضا** .. ماذا تراك قائلا لأبيك عندما تفقد بقية ثروتك؟ .. والى أين تذهب حينئذ؟ .. غادر هذا المنزل حالا، اذا كنت ما زلت محتفظا بقواك العقلية!»

وقضى ابن التاجر شهرا كاملا يقلب الامر على مختلف وجوهه، **مفكرا فى نصيحة صديقه، مبددا الثلاثين مليونا** الباقية من ثروته .. حتى اذا أفلس تماما، صفعته «ماكاراكاتى» على عنقه، وطردته شر طردة!

واسرع «أرثاداتا» الى (سيتراكيتو)، وأخبر «راتنافارمان» ــ شاهبندر التجار، ووالد ايسفارا ــ بما

حدث لابنه ، فصعق هذا وبمم من فوره شطر منزل الوسيطة « ياماجيهفا » ، التى كان قد عهد بولده اليها . فما ان رآها حتى ابتدرها صائحا : « لقد تقاضيت منى مبلغا كبيرا من المال ، مقابل تلقين ابنى حقائق الحياة .. ولكن ، يبدو أنك فشلت فى مهمتك ، طالما أن « ماكاراكاتى » قد استطاعت بسهولة أن تبتز منه كل ثروته » .. وبعد أن هدأت ثائرته قليلا ، قص عليها مغامرة أبنه الخائبه ، فأجابت الوسيطة العجوز قائلة : « أعد أبنك الى ، وسوف القنه الطريقة التى يستطيع بواسطتها أن يسلب كل ثروة المحتالتين وممتلكاتهما » .

وفى اليوم التالى ، بعث راتنافارمان « ارثاداتا » الى ابنه ، حاملا رسالة خاصة يدعو الأب فيها ابنه الى العودة ! .. فانطلق الصديق الى (مدينة الذهب) حيث قابل « ايسفارامان » ، الذى اصبحت حاله تستدر الشفقة والرثاء . فلما سلمه رسالة ابيه ، قال له : « يا صديقى المسكين .. لقد أبيت أن تستمع لنصحى . وها قد رأيت ، بعينى رأسك مدى خيانة المرائين ! .. **الا تعلم أنه ايسر على المرء أن يعتصر من الرمال زيتا ، من أن يجد عاطفة صادقة فى قلب مومس ؟** .. أو هل غابت عن ذهنك طبيعة الامور ؟ .. ان الرجل لا يعد عاقلا ، متزنا ، مستأهلا للاطراء ، الا اذا تجنب السقوط فى براثن المرأة اللعوب ! .. لذلك ، ينبغى عليك أن تبادر بالعودة الى والدك ، كى تضع حدا للغضب الذى يستبد بكيانه ! »

وعاد « أرثاداتا » بالابن الضال الى ابيه . واذ كان « راتنافارمان » يكن لابنه عاطفة عميقة ، فقد غفر له طيشه ورعونته ، واستقبله بترحاب وعطف .. وفى اليوم التالى ، اصطحبه الى منزل الوسيطة ، التى أخذت تستفسر منه عما

وقع له . فقص الفتى عليها كل ما صادفه من أحداث ، وكيف ضاعت نقوده ، وما فعلته « سونداری » عندما تأكدت من رحيله .. وعند ذاك قالت « ياماجيهفا » : « أن الذنب ذنبى .. لقد غاب عن ذهنى أن الفنه تلك الخدعة .. لقد وضعت « ماكاراكاتى » شبكة فى قاع البئر ، حتى اذا ما القت سونداری بنفسها ، تلقفتها الشبكة ، ونجت من الغرق .. **غير أن لكل داء دواء ، ولم يفت الأوان لمعالجة الأمر** » .. ثم أمرت خادماتها باحضار القرد (آلا) ، الذى كانت قد دربته على القيام بمختلف الحيل !

وبينما كان الجميع يراقبون ما يجرى أمامهم ، أعطت الوسيطة القرد ألف قطعة ذهبية ، وأمرته قائلة : « ابتلع .. ابتلع » ، فابتلع القرد المدرب الذهب . ثم قالت له : « أعطه مائة قطعة .. أعطه ستين .. أعطه مائة .. الخ » ، وكان القرد فى كل مرة ، يستخرج العدد المضبوط من القطع الذهبية ، حسب تعليماتها اليه !

واتجهت « ياماجيهفا » بحديثها الى « ايسفارا » — بعد أن استعرضت أمام الجميع حيلة القرد — فقالت : « خذ معك القرد ، واحمل قدرا من المال يكفى نفقات يوم ، ثم عد الى منزل « سونداری » . وهناك دع القرد يبتلع المال سرا ، ثم أحضره أمام الجميع ، واطلب منه أن يعطيك المبلغ . فاذا ما شاهدت « سونداری » القرد يقوم بالخدعة ، **خيل اليها أنه « التعويذة السحرية » ، التى تستجيب للدعوات** ، وعندئذ سوف تحاول أن تساومك عليه بكل ما تمتلك يداها من نقود .. واذ ذاك ، خذ النقود واعط القرد نفقات يومين ، ثم فز من الغنيمة بالاياب ! »

***

وفى اليوم التالى ، حث « ايسفارا » السعى نحو (مدينة الذهب) ، حاملا معه القرد وعشرين مليونا من الدينارات الذهبية ، أهداها اليه والده . فلما وصل الى المدينة بعث برسول الى « سونداري » معلنا قدومه ، ثم دخل منزلها ، فاستقبلته بأحضان حارة ، وتعلقت به متشبثة ، كما رحبت بصديقه « أرثاداتا » !

.. وأكد لها « ايسفارا » أن ثروة طائلة قد واتته ، ثم اتجه بحديثه الى صديقه ، على مسمع من أهل المنزل ، فقال : « قم وأحضر القرد (آلا) حالا ! » . فأطاع صديقه ودخل بالقرد الذى كان قد ابتلع ألف قطعة ذهبية ، فأمره « ايسفارا » قائلا : « آلا ، يا بنى .. اعطنى ثلاثمائة دينار للطعام والشراب ، ومائة أخرى للبهارات والحلوى ، وقدم للأم « ماكاراكاتى » مائة قطعة ، وللكهنة مائة أخرى .. ثم قدم لسوندارى ماتبقى من ألف دينار ! »

ولبى القرد أوامر سيده ولفظ القدر المضبوط من النقود ، حسب ما تلقى من تعليمات .. فلما شاهدت « سونداري » القرد يقذف بالنقود من جوفه ، تشاورت مع أمها ثم قالت : « لابد أن « حجر التمنيات » السحرى قد سكن فى جسد القرد عن طريق السحر ، ما دام قد استطاع أن يقدم ألف دينار فورا .. فاذا ما تمكنا من اقناع ايسفارا بالتنازل لنا عنه ، تكون كل احلامنا ومشروعاتنا قد تحققت » . ثم أخذت المرأتان تفكران فى الطريقة التى تحقق لهما بغيتهما .

وفى ذلك المساء ، دعت المرأتان عددا من أصدقاء الشاب وقدمت لهم أرقى أنواع الشراب ، ثم عرضت عليهم من فنون الرقص ما يفتن الراهب المتنسك ! .. وبعد أن شاهدت « سونداري » الجميع يتمايلون من النشوة والطرب ، تقدمت نحو « ايسفارا » وأخذت تتوسل اليه فى دلال ، قائلة :

ـ اذا كنت تحبنى حقا ، فاعطنى القرد !

فضحك « ايسفارا » وقال :

ـ ليس هذا فى استطاعتى .. انه كل ما تبقى من ثروة أبى ، وليس من اللائق أن أفرط فيه لأحد !

ـ سوف أعطيك ، مقابله ، خمسين مليون قطعة ذهبية !

غير أن « ايسفارا » أصر على الرفض قائلا :

ـ حتى لو منحتينى كل ثروتك ، وأضفت اليها كل مافى المدينه من كنوز ، فلن استطيع أن أهديك اياها .. **فما نفع بضعة ملايين من القطع الذهبية الى جوار هذا « الكنز » الذى لا ينضب !**

ـ اننى أعرض عليك كل ما أملك .. فقط اعطنى القرد ، فان أمى سوف تغضب كثيرا لو فشلت فى الحصول عليه !

ثم ألقت بنفسها عند قدميه .

واذ ذاك ، أخذت جموع الحاضرين ، بما فيهم صديقه « أرثاداتا » ، تتوسل اليه أن يستجيب لطلبها ! .. وأخيرا ، رضخ « ايسفارا » لرجائهم ووافق على أن يبيعها القرد .. وفى تلك الليلة ، قضى « ايسفارا » ساعات لاتنسى ، بين أحضان الفاتنة « سونداري » ، التى كانت تغبط نفسها على فوزها بتلك الصفقة الرابحة !

***

وفى اليوم التالى ، رحل « ايسفارا » عن المنزل ، فى طريقه الى (سومطرة) ليتابع تجارته ، بعد أن أطعم القرد ، سرا ، ألفى قطعة ذهبية ، وسلمه الى الفتاة . وحمل معه ـ عند الرحيل ـ كل ما كانت تملكه من ثروة وممتلكات !

وقام القرد بمهمته خير قيام ، فأمدهما خلال اليومين الأولين بألف قطعة ذهبية يوميا ، مما بعث الغبطة والانشراح

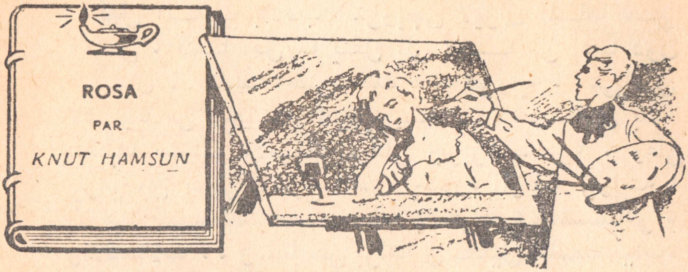
فى قلبى الغانتيين .. غير أن القرد عجز ، فى اليوم الثالث ، عن المضى فى مهمته ، رغم استخدامهما جميع وسائل الترغيب والتدليل .. وأخيرا استشاطت « سونداري » غضبا ، فصفعت وجه القرد (آلا) بقبضة يدها . وعندئذ ثارت ثائرة القرد ، فقفز فوق المرأتين ، وأعمل أسنانه وأظافره فى وجهيهما ، فأسال منهما الدماء .. ولم تلبث الأم أن انهالت عليه لطما وركلا حتى قضى نحبه .

فلما رأت المرأتان أن القرد قد مات ، وأن جميع آمالهما قد ذهبت أدراج الرياح ، أوشكتا أن تنتحرا . وانتشرت القصة فى أرجاء المدينة ، فأخذ الناس يتندرون عليهما قائلين :

ـ لقد سلبت « ماكاراكاتى » نقود ابن التاجر عن طريق شبكة ، غير انه استرد ماله عن طريق قرد مدرب !

***

وانقضت فترة من الزمن ، عاد « ايسفارا » بعدها من رحلته الى (سومطرة) ، حيث أقبل على منزل أبيه بعد أن اضاف الى ثروته ثروة أخرى ، وقد شفى الى الابد ، من كل عاطفة يمكن ان تترعرع فى قلبه نحو الغانيات ، وما لبث أن أتخذ لنفسه زوجة ، عاش معها فى تبات ونبات ، وانجبا بنينا وبنات ! !



روزا !..

من روائع القصص النرويجي المعاصر

للكاتب الروائي :

كنوت هامسون



عزيزى القارىء :

لعل المامك بالأدب النرويجى لايزال الماما غير مكتمل ، فما اقل ما ينقل الى لغتنا من ادب دول الشمال .. لذلك اخترت لك هذه الرواية ، التى تمثل لك لونا من الحياة النرويجية .. الحياة فى بلدة يسكنها صيادو الاسماك ، على جزيرة صغيرة . وعلى الرغم من صغر المسرح الذى اختاره المؤلف لروايته ، **الا انك ستجد القصة حافلة بالحركة ، والمشاعر ، والانفعالات .. وستلمس براعة فى تحليل الشخصيات، والكشف عن دفائن النفوس .**

ولمؤلف القصة ـ الكاتب النرويجى «كنوت هامسون» ـ قصة فى حد ذاته .. فقد ولد فى (لوم) بالنرويج ، فى سنة ١٨٥٩ ، لأبوين فقيرين . ونشأ وترعرع فى جزر (لوفوتن) ، التى تجرى أحداث القصة فى واحدة منها .. وقد اظهر منذ صباه عبقرية غير عادية ، اخذت تنمو وتتطور مع نموه وتطوره ، اذ عاش بوهيميا ، متنقلا ، لايستقر فى مكان ، جريا وراء التغيير .. **فعمل وسيطا تجاريا (قومسيونجى) ، ثم معلما فى مدرسة ، ثم سائق ((ترام)) فى الولايات المتحدة ، ثم صحفيا** .. وكلها اعمال كانت كفيلة بأن تجعله يحتك بالحياة واهلها احتكاكا مباشرا ، فأكسبته خبرة بالنفوس والعواطف .

وظهر أول كتاب لكنوت هامسون ، عندما بلغ التاسعة والعشرين من عمره ـ اى فى سنة ١٨٨٨ ـ وقد اطلق عليه اسم «الجوع» .. ثم توالت مؤلفاته ، واصابت من النجاح ما ارتقى به الى عرش الادب الاسكندناوى ، **ومكنه من ان يظفر بجائزة نوبل للأدب ، فى سنة ١٩٢٠ ..**

كنا فى الشتاء ، عندما حزمت امتعتى ، ووليت وجهى شطر ميناء (روتنبرج) ، فاستقللت احدى سفن الصيد — التى كانت تتأهب للرحيل الى جزر (لوفوتن) — سعيا وراء صديق يدعى « مونكن فنت » .. أذ كنا قد اتفقنا على ان نقوم برحلة على الاقدام .. وكان قد مضى على اتفاقنا احد عشر عاما ، اى نصف عمر شاب !

وقضيت فى البحر اربعة اسابيع ، حتى اذا كان يوم « عيد الشكر » — ١٦ ابريل — بلغنا (سيريلند) ، الجزيرة التجارية التى يتقاسم السيطرة عليها وملكية مبانى الصيادين ومشروعات صيد الاسماك فيها ، كل من ((ماك)) — السيد الكبير — و ((بنونى هارتفيجسن)) ، وكان رجلا مثريا ، لايحجم عن مساعدة احد .. لذلك لجأت الى داره ، نشد ضيافته .

واخذ ((هارتفيجسن)) يلح على بالأسئلة ، حتى عرف اننى طالب أدعى ((باربليوس)) ، واننى أجيد الرسم والزخرفة . فابدى لى من العطف والكرم ، ما أثلج صدرى ، وعرض على ان اقيم لديه فترة — قبل ان استأنف الرحيل — وأن أقوم بزخرفة سفن الصيد والقوارب التابعة له ، فضلا عن جدران منزله .. وسألنى وهو يبتسم : « امتزوج انت ؟ »

— كلا ، فانا لم اتجاوز الثانية والعشرين بعد !

وشرعت — عقب انقضاء عيد القيامة — فى اداء المهمة التى كلفنى بها .. وحدث — ذات يوم — ان قصدت حانوتا لابتياع ما كان يلزمنى فى عملى ، واذا بى اجد نفسى امام

« ماك » ، السيد الكبير ، كما كانوا يسمونه فى الجزيرة ..
وكان رجلا مسنا ، تبدو عليه امارات القوة والصلابة ، انيقا فى ملبسه ، وقورا فى مظهره ، جذلا فى حركاته ..

وكان لزاما ان نتعارف ، فما ان ادرك اننى طالب ، اعتزم القيام برحلة ، حتى تهلل وجهه ارتياحا ، اذ خشى ان اكون سجينا هاربا !

***

وراح « هارتفيجسن » يمطرنى بعبارات التقدير والثناء ، كلما شهد انتاجى ، حتى انتهى به الأمر الى ان اقترح ان ابقى الى الخريف التالى ، وان ابذل عصارة فنى فى زخرفة اكبر سفينة للصيد يملكها .. وكان اسمها « سا اى ايه » .. ولم اتردد ، فالحق ان المرء لم يكن يمل الاقامة فى (سيرلند) ، لجمالها الطبيعى ، وحسن ضيافة اهلها .

وقدر لى ان اصادف « ماك » - ذات يوم - بصحبة سيدة غريبة عن الجزيرة ، تضع على كتفيها فراء ثعلب ازرق اللون .. وكان لجمالها سحر عجيب ، هز اوتار قلبى .. كانت فى العشرين من عمرها ، طويلة القامة ، كستنائية الشعر ، ذات فم دقيق ، وعينين تفيضان دعة وبراءة .. فلما قدمنى اليها « ماك » ، عرفت انها تدعى « روزا » .

وما ان عدت الى المنزل ، حتى رويت لهارتفيجسن ما حدث ، فسألنى باهتمام : « أجميلة هى ؟ » ، فأجبت فى تحمس : « جدا ! » ، فهتف :

- روزا ؟ ! .. اذن ، فقد عادت !

ولم يكن التطفل والفضول من خصالى ، فاكتفيت بقولى : « اجل .. انها جميلة حقا ، ويبدو انها ليست من اهالى

البلدة » .. ولكنى علمت ــ فيما بعد ــ من الخادم العجوز ، انها ابنة راعى كنيسة الجزيرة المجاورة ، وانها تزوجت من شخص يدعى « نيكولاى ارنتسن » ، لكن زواجهما لم يعمر طويلا ، اذ هجرها الرجل بعد فترة قصيرة ، وسافر الى الجنوب .. ثم انقطعت اخباره . كما علمت انها كانت مخطوبة من قبل لهارتفيجسن ، وكان كل شىء قد اعد لزواجهما .. لكن هذا الزواج لم يتم ، لظروف غامضة !

ولاحظت ــ منذ ذلك الحين ــ ان هارتفيجسن اخذ يهتم بمظهره وهندامه ..

وفى ذات صباح ، كنت معه فى حانوت البلدة ــ نبتاع بعض المسامير لاطارات الصور ــ واذا به يتركنى فجأة ، ويدخل مكتب صاحب الحانوت ، وكان من حقه ان يدخل دون استئذان ، لجاهه وثرائه .. وان هى الا برهة ، حتى اقبلت « روزا » ، فرمقتنى بنظرة طويلة ، جعلت الدم يصعد الى وجنتى ، ثم حيتنى ، فأدركت انها تذكرتنى .. وتمنيت ــ اذ ذاك ــ أن يعود « هارتفيجسن » حتى يراها . وكأنما اجتذبته خواطرى من حيث كان ، فاقبل .. وبسطت اليه «روزا » يدها ، فتصافحا فى هدوء ولطف ..

وسألها هارتفيجسن : « أحسبك تقضين بعض الوقت هنا .. اليس كذلك ؟ » .. فأجابته : « بلى » . ثم راحت تبحث عن أشياء كانت تريدها من الحانوت . وما لبثت ان قالت : « انها ليست لى ، بل للمنزل ! .. الا ترى اننى اتصرف بحرية ، كما كنت افعل فى الماضى ؟ .. ولكن يدى لن تمتدا الى شىء ! » . وهتف ــ اذ ذاك ــ وقد شعر بوخز عباراتها : « دعينا من السخرية ! » .

***

ولو انني كنت فى موقف هارتفيجسن لما توانيت عن مغادرة الحانوت .. ولكن الظاهر ان الافكار تزاحمت على ذهنه ، فجعلته ينسى نفسه ويبقى فى مكانه بلا حراك .. على انه انتبه من شروده عندما آن لها ان تغادر الحانوت ، فانصرفنا معها .. وقال هارتفيجسن ، وكأنه يحاول ان يصل حبل الحديث : « معى ضيف غريب ، يود لو تفضلت يوما فاسمعتيه بعض المقطوعات على البيانو ! »

واجابته باقتضاب ! « لا استطيع العزف على مسمع من الغرباء ! » .. ثم استدركت ، ملتفتة نحوى : « لست اجيد العزف على الاطلاق .. اما اذا كنت انت تجيد العزف ، فهلا تفضلت ؟ » .. **وكنا قد بلغنا دار « ماك » ، فصعدنا الى قاعة الجلوس . وجلست « روزا » الى معزف فخم بجانب الشرفة ، وهى تحاول جاهدة ان تمحو الاثر السىء الذى احدثه فى نفسى رفضها ..**

وسرعان ما سرت الانغام عذبة من بين اصابعها الرشيقة .. ثم اقبل « ماك » فقدم لنا الشراب والحلوى . وبينما راح يطوف بى ارجاء المكان ، ليطلعنى على لوحاته القيمة ، كان هارتفيجسن وروزا يتجاذبان اطراف الحديث ، بصوت مسموع .. وما لبث ان سألها رايها فى ان يكفل « مارتا » ، وكانت طفلة ابنة عامل يدعى « ستين » . فقال ماك : « فكرى فى هذا الأمر ! » .. واذا بها تنفجر باكية ، وهى تقول : « ما الذى تريدانى على ان افعله ؟ » . فقال هارتفيجسن مسريا عنها : **« لا تبكى ! .. انما اردت ان اكفل الطفلة لأنك علمتيها الطباع الجميلة ! »**

ـ اكفلها ، وليحسن الله جزاءك .. ولكني لن اقوى على الذهاب الى دارك !

ـ .. وليس بوسعي ان اكفل الطفلة بدونك !

وهنا قال ماك مؤيداً : « طبعا ! » .. فأشارت « روزا » بيدها مؤكدة الرفض ، وغادرت القاعة .

***

وبدا الصيادون يعودون الى (لوفوتن) ـ مع فصل الربيع ـ وقواربهم وسفنهم محملة بالصيد الوفير ، فاستحالت الميناء الى عرس كبير ، وتردد الغناء في جنباتها ..

وبينما كنت اتنزه ـ في اصيل احد الايام ـ قادتني قدماي الى المنار ، فاذا حارسه جالس على قطعة من الحجر ، في سكون الجماد .. وانتبه من شروده عندما ازددت منه اقترابا ، فتفرس في بنظرات متفحصة . على اننا لم نكد نتعارف ، حتى تخلى عن جموده ، وسألني : « انت ضيف هارتفيجسن ؟ » . فلما رددت بالايجاب ، قال : « اذن .. لاتبلغه تحياتي ! » . فتساءلت في عجب : « اتكرهه ؟ »

ـ اجل ، فهذه الاراضي التي تسير عليها كانت بالأمس ملكا له .. انك تسير على مليون من الجنيهات .. ولكنه باعها عن آخرها ، واصبح .. لاشيء !

ـ ولكن .. او ليس هارتفيجسن غنيا ؟

ـ لا ، فهو لايملك سوى ان يشتري ثيابا فاخرة تناسب مركزه ، ثم لايتبقى له الا ما يقيم اوده !

وعاد الى جموده وتأملاته ، اذ تركته وآخر عباراته ترن في

اذنى : ((ان الحيــاة كالمراة ، افلا ينبغى علينــا أن نعاملها بشهامة وكرم ، فنتيح لها فرصة التغلب علينا ؟ !))

ولمحت — وانا عائد الى البلدة — سفينة تسعى الى المرفأ .. وعلمت ان ((ادوارد)) — ابنة ماك — كانت قادمة عليها ، بعد أن توفى زوجها ، وكان « بارونا » فنلنديا ، وخلفها مع طفلتين انجباهما فى حياتهما الزوجية .. والفيت روزا مع ماك وهارتفيجسن فى انتظارها ، حتى اذا هبطت الى البر — أخيرا — الفيتها طويلة ، ملفوفة القوام ، تسدل على وجهها نقابا خفيفا .. وصافحتنى — بين من صافحت — فاذا يدها طويلة ، ناعمة .. وما لبثت ان تجاهلت سيدا انجليزيا جاء معها على السفينة ، ويدعى السير « هيو تريفليان » — وقد اعتــاد ان يقضى الربيع فى الجزيرة — وســارت الى جوار « هارتفيجسن » ، منهمكة فى الحديث معه بلا مبالاة ..

ومرت ايام ..

وسألنى هارتفيجسن أن أرســم لوحة لســفينة « سا أى ايه » ، فذهبت فى قارب — ذات صباح — الى مقربة منها .. وكانت سفينة تجارية ذات شراع وعشرة مجاديف ، تكبر السفن التى كان العبيد والمحكوم عليهم بالاشــغال الشاقة يسخرون فى العمل عليها ، فى القرن الثامن عشر .. وعندما عدت ، بعد ان رسمت السفينة بالقلم الرصاص ، وجدت — على رمال الشــاطىء — روزا وهارتفيجســن والبارونة .. وكانت هذه تقول : « لكم تغيرت معالم البلدة ! .. كنت جد مشغوفة بك ، فى الايام الخالية ياهارتفيجسن ، ولكن .. هاانذى اليوم فى الثلاثين من عمرى ، واما لعدد من الاطفال .. »

ولم تكن جميلة ، ولكنها كانت صغيرة القد ، سمراء اللون ،

ذات راس رشيق .. وقاطعها هارتفيجسن قائلا : « ليسوا عديدين .. مجرد طفلتين » . فقالت : « ولكن مسئولياتهما تشقلنى » .

– ولكنهما مع ذلك ، اثنتان فحسب.. فى الوقت الحالى ، على الاقل ! ..

وضحك ، فضحكت البارونة بدورها .. وكانت لاتفتأ ترفع ذراعها ، فى دلال واغراء ، فى جو من عدم الكلفة والاكتراث .. وما كان موقفها بالمستجيب ، ولكنها كانت يائسة !

***

ودعانى « ماك » مع « هارتفيجسن » و « روزا » الى حفلة أقامها ابتهاجا بعودة ابنته « البارونة » .. وفيما كنت متهيأ للذهاب ، أقبلت « روزا » بحجة اصطحابى الى بيت « ماك » ، اذ اضطر «هارتفيجسن» الى التأخر خارج البيت .. ولاحظت انها كانت تتلفت يمنة ويسرة ، وكانها تتفحص المنزل الذى عرض عليها « هارتفيجسن » ان تشاطره سكناه .. واذ فطنت الى اننى كنت ارقبها ، استبد بها الخجل ، وتمتمت متلعثمة : « عفوا .. كنت .. لا ، لاشىء ! »

والفينا – فى دار « ماك » – حارس المنار وزوجته ، والذى « روزا » .. راعى كنيسة الجزيرة المجاورة ، وزوجته .. وكان القس مليحا ، بادى القوة ، اشتهر ببراعته فى الصيد .. حتى اذا ضمتنا المائدة ، راح «ماك» يحرص على ان يبدو انيقا ، مهذبا ، فى حين أبدت ابنته كثيرا من عدم الاكتراث بالحاضرين ، واشتطت فى تصرفاتها الطائشة . فكانت تقضم الخبز باسنانها ، وتشرب بصوت مسموع ،

ممـا أثار استياء الضيوف ! .. وما لبثت ان استأثرت بهارتفيجسن ـ بعد العشاء ـ وراحت تثرثر معه . فاذا «روزا» تستسلم للوجوم ، وقد شغلت بأفكارها الشاردة عن كأس النبيذ الاحمر ، التى تركتها «تحترق من الوحدة»، على حد تعبيرى لها .. وحاولت أن اسرى عنها ، بيد انها بدت غائبة الحس ، الى ان فطن هارتفيجسن اليها ، فدعاها الى مشاركته كأسا من الخمر .. **واذ ذاك ، تهلل وجهها ، واقبلت عليه وقد نسيت وجومها .. وما لبثت أن نهضت فراحت تعزف للحضور بعض الموسيقى !**

وتعاقبت الايام وهارتفيجسن متشبث ببقائى ، قائلا ان «روزا» ما كانت لتقبل المجىء الى داره مالم ابق انا معه .. والواقع انها ظلت ترفض طويلا ، وتحاول ان تقطع ما بينها وبين الرجل .. بيد انه كان من الجلى أن المحاولة كانت تضنيها وترهقها .. الى ان كان ذات صباح ، فأقبلت وهى بادية التعب والاجهاد ، حتى لقد اشفقت عليها لفرط ماكانت تبذل من جهد لتتناسى كرامتها ، وهى تسأل هارتفيجسن : « الم توفق بعد الى من تدير شؤون دارك ؟ » . واذ اجابها بالنفى ، فى عدم اكتراث ، قالت : «بوسعى ان اقوم بالعمل!»

وكأنما بث فيه انهيار عنادها نوعا من البطر ، فقال بتؤدة : «بديع ، ولكن .. لست أدرى تماما ..» . فقاطعته متسائلة: « اتراك غيرت رايك ؟ » . وقال فى كثير من التبجح : « لا ، لكنك انت التى غيرت رايك فيما مضى !» .. وكانت قد ظلت واقفة لدى الباب ويدها على مقبضه ، فاذا بها تنصرف عند هذا الحد من الحديث .. وقضى هارتفيجسن تلك الليلة بصحبة البارونة !

ولكن « روزا » داست كبرياءها ، واقبلت ـ مرة اخرى ـ فى الصباح التالى .. وتمنيت لو كنت على مائة فرسخ من المكان ، حتى لا اشهد ذلتها .. **وضحكت بمرارة ، وهى تشير ـ من طرف خفى ـ الى صحبته للبارونه ، قائلة : « انها تقول ان عمرها ثلاثون سنة .. اجل ، انها تكبرنى بكثير ! »**

وارتمت على الارض ، وراحت تبكى .. واذ ذاك ، نهض هارتفيجسن فتناول يدها ، وربت كتفها ، وطيب خاطرها ، وهو يشعر بأنه السيد الآمر ، الذى يتذلل الناس امامه ، فيرق قلبه لحالهم !

وانتقلت «روزا» والصغيرة «مارتا» الى دار هارتفيجسن . على أن الرجل لم يبد كثير اهتمام بهما ، وكان يتركنا معا وينطلق معظم اوقاته الى العمل ، اذ كان قد اشترك مع « ماك » فى بعض مشروعات الصيد . وداخلنى الشك فى ان البارونة كانت وراء هذا التدبير ، لتحبك شباكها حول هارتفيجسن .. ولكن « روزا » كانت تحبه ، وقد اذلت نفسها من اجله ! !

***

وتوالت الأيام هادئة ، ليس فيها من الاحداث ما يستثير الاهتمام .. اما انا ، فقد كانت لى لحظات سرور ، ولحظات احزان .. كنت كل يوم ازداد اعجابا بروزا ، ولكننى لم أكن اتوقع من القدر سعادة تذكر .. لم اكن جديراً بها ، لأننى اجنبى ، ولكن معاملة هارتفيجسن لها ، كانت تثيرنى ضد هذا القدر . فقد كان يزداد كل يوم خشونة وعدم اكتراث .

على انه لم يلبث ان فاجأها ـ ذات مساء ـ متسائلا : « ما رأيك فى ان انقل خاتمى الذهبى الى اليد اليمنى ؟ » ..

وكان هذا معناه عرضا للزواج ، ولكن ((روزا)) كانت مرتبطة بزوجها الاول ((نيكولاى آرنتسن)) ، فهو قد هجرها ، ولكنه لم يطلقها .. وكأنما حدس هارتفيجسن ، ما كان يدور بخلدها ، فقال : ((لقد دبرت الأمر مع ماك !)) .. وروى لها انهما استصدرا من الملك امرا بفسخ زواجها ـ نظرا لهجر زوجها اياها زمنا طويلا ـ وانهما دفعا لنيكولاى مبلغا من المال كى ينسحب من الميدان .. ثم اردف قائلا أن ((نيكولاى)) مات لافراطه فى الشراب !

وبدا لى ان ((روزا)) تلقت النبأ كصدمة ، فغادرت القاعة حتى لا أشهد حزنها .. وعلمت فيما بعد من هارتفيجسن انه اشترى انسحاب نيكولاى بالمال ، ولكن هذا لم يكد يتسلم الثمن ، حتى اخذ ينفقه فى الشراب الى درجة توحى بأنه كان ينتحر انتحارا بطيئا !.. ووجدتنى اسائل نفسى : ((الا يوحى هذا بأن نيكولاى لم يمت بعد ؟.. اتراه لم يمت فعلا ؟ !)) .. وكنت كلما امعنت فى التفكير ، شعرت أن ((روزا)) لم تتعلق بهارتفيجسن الا بدافع من الغيرة ! .. ولكن ، كيف حدث أن فرطت ((البارونة)) فيه بهذه السهولة ؟ .. وشعرت أن هناك امورا كثيرة لاتزال خافية على !

وفى ذات يوم ، مررت بالطاحون فى طريقى الى البيت ، واذا بى أصادف البارونة ((ادواردا))، وعلى ثيابها آثار من الدقيق ، تشى بأنها كانت بداخل الطاحون .. ولحقت بها ، فاستأذنتها فى ان انفض الدقيق عن ثيابها .. ثم سرنا معا ، فراحت تروى لى كيف انها اعتادت فى طفولتها ان تتردد على الطاحون ، وان تجرى وراء عربات الدقيق ..

واتخذ صوتها نبرة حزينة ، خافتة ، وهى تتنهد قائلة :

اننا نمارس كل العاب الحياة ، حتى نفطن فجأة الى انه لم يعد لنا شيء منها ! » .. وروت لى انه كان لدى أبيها خادم يدعى « جانس » غادر الجزيرة ، وتزوج ، ولكنه لم يلبث أن فقد ماله وصحته وزوجته .. وقد عاد الى الجزيرة أخيرا ، ولجأ الى البارونة يستعطفها حتى لان له قلبها ، فوفرت له عملا .. وقلت معلقا على القصة ، ان المرء يسعد حين يوفر السعادة للآخرين ، فهتفت فى اسى : « **السعادة ؟ ! .. لا ، انها لو جاءتنى لنظرت اليها فى استنكار ، كشيء غريب عنى !** »

وتحولت تروى لى قصة المرة التى عرفت فيها السعادة .. كان ذلك حين التقت — فى صباها — بصياد شاب يدعى « جلان » .. وهتفت والحسرة تقطر من صوتها : « أوه ، يا جلان ! .. لقد منحتنى من السعادة ما لم احظ به فى اى وقت من حياتى .. كنت احبه الى درجة ان العالم كله كان يغيب عن ناظرى حين يقبل هو ! .. ولكن الزمن حطم كل هذا ! .. كان فارع الطول ، وسيم الخلقة ، تنقل الى انفاسه عبير الاعشاب التى اعتاد أن يقتات بها . وجاءنى يوما وقد حسر قميصه عن صدره ، فبدا شعره كمرج يدعونى الى الاستلقاء عليه .. وكنت غضة العود ، صغيرة السن ، كلما التقت عيناى بعينيه — وهو مقبل على — شعرت بأن نظراته تنفذ الى أعماقى وتسبب لى دوارا .. دوار النشوة ! .. **أواه ، أننى أقول هذا وقد خبرت الزواج ومارسته ! .. كنت اعبده ، واعبد روحه التى لم يكن لها قرار .. ولست ادرى ، أكان الها ، ام كان حيوانا ! ؟** »

— ولكننى ارى انك لاتزالين على حبه بكل تأكيد ..

— احبه ؟ لست ادرى ، لكننى اتذكره كثيرا .. يقال انه رحل

الى العالم الآخر !.. اذكر اننى كنت ، يوما ، اقطع العجين بالسكين ، واذا به يمر تحت نافذة مطبخى ، فلوحت له بالسكين قائلة : « ماراًيك لو اننا متنا سوياً ؟ » ، فأجاب : « هيا معى الى كوخى لنموت هناك ! » .. ومضيت معه ، ولكننى عدلت عن رايى ، فما كان منه الا ان امتعض .. تصور ! لقد بدت عليه خيبة الأمل .. كان لبساطته لايعرف المزاح . ولئن بدأ – أحيانا – فى صورة أبله ، الا انه سرعان ما كان يصبح ثاقب النظر ، بصيراً بكل شىء .. وحاولت – فى مرة أخرى – اغاظته ، فأوصيت « جانس » بقطع أغصان شجرة كان يعتز بها فى الغابة ، فثارت ثائرته .. وخشيت غضبه ، فنسبت لنفسى ما حدث لكى ازيد من اثارته ، لكنه قال لى : «لا ، لست أنت ، أنه شخص أعسر » .. وفعلاً ، كان « جانس » قد ربط ذراعه الأيمن فى حمالة وعلقه على صدره .

وعندئذ تبينت مدى قسوة هذه المرأة ، التى مدت يدها بالأمس ، الى الشخص الذى كان سببا فى ايلام حبيبها !

***

وفى هذه الاثناء ، استولى على هارتفيجسن شذوذ مخبول ، اذ تخيل نفسه الحاكم الآمر فى الجزيرة ، ولم يعد يرى لمخلوق عداه اية قيمة .. وتمكنت هذه الفكرة منه حتى اتت على ما تبقى لديه من تواضع وكرم نفس .. واخذت سقطاته وعثراته تتوالى ، حتى اساء الى كل الناس تقريبا . وما لبث ان حان دورى ، حين اعلمنى ذات يوم بأنه اعتزم استئجار خادم للبيت ، وانه فى حاجة الى الحجرة التى كنت

اشغلها .. وادركت ان شخصا ما قد اثار شكوكه نحوى ، فقررت ان اغادر الجزيرة كلها !

ولكن البارونة علمت بالامر ، فطلبت الى ان اعنى بتربية طفلتيها ، لتستبقينى .. والحق اننى كنت قد الفت الجزيرة ، فوددت ان ابقى بها . ومع اننى ادركت ان « ادواردا »كانت وراء ما اصاب علاقتى بهارتفيجسن — رغبةمنها فى الاستئثار بى ، لاسيما حين تبينت تعلقى بروزا — الا اننى لم اتردد فى قبول عرضها .

ومع ان «روزا» كانت قد انتقلت الى دار هارتفيجسن ، الا انها لم تكن قد زفت اليه بعد .. وعندما تلقيت يوما بطاقة — من ابيها — لحضور حفلة الزفاف ، توزعتنى حيرة اليمة ، بين الرفض والقبول . ولكن مرض احدى ابنتى البارونة املى على القرار الأخير ..

وعندما ذهبت — فى المساء التالى — لاقدم التهانىء للعروسين ، كان وجه « روزا » مشرقا بالابتسام ، وكان « هارتفيجسن » لايكاد يستقر فى مكان ، كالطفل اذا استبدت به الفرحة . وشعرت — اذ ذاك — بمرارة طاغية ، وبفراغ فى قلبى .. حتى اذا استبد بى الشعور بالوحدة والوحشة والحسرة ، لجأت الى الغابة . وهناك ، كانت فى انتظارى مفاجأة تسمرت فى مكانى بسببها ، وقد جمد الدم فى عروقى .. فقد وقعت عيناى على منظر اشد ما يكون بشاعة .. **كانت البارونة فى احضان رجل طويل الشعر ، خشن المنظر ، كان يعيش فى الغابة كالحيوان .. وكانا يسبحان معا متعانقين ، وقد تجردا من كل الثياب ، وغابا عن الوجود المحيط بهما ..**

ووجدتنى اندفع هائما على وجهى فى الغابة كالمجنون ، فما خطر لى يوما ان البارونة تفرط فى شرفها بهذه السهولة .. ولمن ؟

ولم افطن الى نفسى الا وقد صرت فى غرفتى ، ورحت اتحسس وجهى الذى كان يلتهب بنار خفيه ، وقد خضبته الدماء ، من اثر الاغصان التى كانت تصفعنى وانا اعدو كالمجنون !

***

وفى يوم عيد ميلادى دعانى هارتفيجسن الى داره ، وراح يتحدث فى أمور كثيرة كعادته ، و « روزا » تصغى اليه ، وتقاطعه – من آن الى آخر – لترضى غروره . فكان يجيبها بغيظ وجفاء : « نعم ، نعم .. اننى ادرك تماما سر اكتئابك وضيقك ، فلا تبالى ! » .. وما لبثت ان غادرت مقعدها ، وانتحت جانبا عن المدفأة ، لتكتم ما كان بنفسها . وان هو الا قليل حتى انبعثت طرقات على الباب ، فمضى اليه هارتفيجسن بنفسه .

وكانت البارونة هى القادمة .. ولم تمكث طويلا ، بل سرعان ما انصرفت ، مصطحبة هارتفيجسن .. وشق على ان اشهد اسى « روزا » ، فلم البث ان اغريتها بالخروج معى لصيد السمك . وانطلقنا الى الشاطىء ، فاستقللنا قاربا صغيرا .. ورحت اروى لها قصصا مضحكة لأسرى عنها – وانا القى الشباك فى البحر – ولكنها لم تستجب لمداعباتى . وبدت مهمومة ، مثقلة الصدر ، مستسلمة الى الوجوم .. ورحت اسائل نفسى : ترى هل هى مرتاحة الى اطالة فترة بقائنا على صفحة الماء ؟ .. وهل تراها تخشى العودة الى البر ؟

وكانت تلقى بالشص فى الماء حين هتفت : « احذرى ، فان خاتم الزواج معرض للسقوط ! » . وتوقعت ان تقول : « فليسقط ! » . بيد انها - على النقيض - رفعت يدها فجأة ، وتحسست الخاتم لتحكم وضعه ، بينما كان وجهها متجهما عبوسا ..

وعندما عدنا الى الدار فى المساء ، اصر هارتفيجسن على أن أشاطرهما العشاء .. وكانت « روزا » - طيلة الوقت - بادية الوجوم والقلق ، فلم اجد افضل من الانصراف بمجرد انفضاضنا عن المائدة ، وفى نفسى عزم على ان ارسم لوحة اهديها الى « روزا » .. لوحة تمثل كأس الحياة جميلة ، مترعة بخمر قرمزية !

وفيما كنت عاكفا على رسم اللوحة ، اذا بالبارونة تدخل ثائرة ، وعلى وجهها آثار بؤس وشقاء واضحة . وامسكت بصدرها فى حركة عنيفة ، كأنما كانت تريد ان تنتزع قلبها من مكانه ، فأودت - فى النهاية - بأزرار ثوبها ، وهى تقول : « لاشىء هنا يجلب السلام .. فلعل لديك شىء منه ! » ، فهتفت : « انا ؟ ! .. لا ! »

- اذن ، فخليق بك ان تنطلق للصيد ، فان هذا يسرى عن النفس .. ان طلقات البندقية تبعث على الانتعاش !

على ان البارونة لم تكن تقصد طلقات بندقيتى ، بقدر ما كانت تقصد استعادة ذكرى طلقات الصياد « جلان » الذى استأثر بقلبها فيما مضى !

وراحت تنتقل فى ارجاء المكان ، وهى شاحبة الوجه ، بينما كنت احاول ان احدثها عن الصيد .. ثم لم تلبث ان راحت تقول ، وكأنها تتكلم بدون وعى : « ما جئت لأتحدث فى

موضوعات رفيعة ، ولكن .. عن الشيطان ، ان كنت ادرك ما هو الشيطان ! .. لست ادرى ، لماذا اعجز عن فهم مايدور في هذه الحيـاة ، وازداد حيرة يوما بعد يوم ؟ ! .. انني اسائل نفسي : ماذا دهى الحشائش ، والاشجار ، والطيور ؟ .. اكاد أرى كل شيء على نقيض ما اعتدت ان اراه بالأمس . ترى ما الذى اصابنى ؟ .. لابد ان روح الطفولة قد فارقتني مع الايام ، وان كان هنا بعض من لايزالون يحتفظون بروحهم فتية .. لكأن الشر قد اخذ يتطرق الى نفسي ! .. **لو انني كنت قد تزوجت ممن احببت ومكثت هنا ، لكان من المحتمل ان يستطيع السير في دروب الغابة ، ان يحفظ لنفسي سلامها وطمأنينتها !** .. لعل الحيـاة ذاتها هى التى سـاقتني الى معاداة نفسي ، فلمـاذا ؟ .. ان الرقى قد ابعدني عن راحة النفس .. فلقـد تزوجت رجـلا ثريا ، مهـذبا ، لايهوى الحشائش والأشجار ، وتعلمت ان اتحدث بلباقة ، واعبر عن خواطرى بأسلوب منمق مهذب .. ولكن نفسي ظلت تهفو الى شخص تملأ الأخطاء احاديثه .. **كان مثلى يحب الحشائش، ولا يحتفظ الا بقليل من الاصدقاء ! »**

واستطردت تقول : « كنا نستلقى على الحشائش ، او يقتفى كل منا خطوات رفيقه . وكنت اناديه : « ياحبيبي ! » فأحس كأن نفسي تنساب انغاما ، وامنحه ثديى مقابل طلقة البندقية التى كان يطلقها باسمى .. كانت حياتى ملكا له ، وكنت اعرف اين يوجـد الصدر الحنون الذى اريح اليـه راسى ! »

وسألتني أن ارافقها الى الخارج ، فأطعتها .. اذ شعرت انها كانت في أشد الحاجة الى أنيس يبدد وحشة وحدتها ..

وعندما افترقنا – اخيرا – وقد هدات نفسها ، قالت : « يالها من حياة ضارية .. لكم يفترس المرء أخاه ، ويدق عنق الدجاجة ليلتهمها .. أننا لنسحق الورود تحت أقدمنا ، ونضرب الاطفال فنبكيهم ! .. أن الاشمئزاز من الحياة يعتصر قلبى ! »

***

وساقتنى قدماى يوما الى الحانة ، فالتقيت بهارتفيجسن ، الذى راح يثرثر طويلا .. وكان حديثه منصبا على الرغبة فى السفر الى (بيت المقدس) . فلما تبين انه سيطر على سمعى وانتباهى ، قال فى خيلاء : **« لقد كانت هذه رغبتى منذ الطفولة .. ولن اكون وحدى ، بل ستصحبنى امرأة ! »** .. وذهلت ، فقد قفز الى خاطرى انه لن يبقى لى ما يحببنى فى البلدة ، لو ان « روزا » غابت عنها ! .. ولكن ذهولى تضاعف حين أقبلت البارونة – فى تلك اللحظة – وفوجئت بأنها كانت المقصودة .. وكأنما لمحت ما اصابنى ، فقالت وعلى شفتيها ابتسامة ماكرة : « هل يزعجك سفرنا – انا وهارتفيجسن – الى هذا الحد ؟ .. أتخشى شيئا ؟ » . **وانجابت عنى الدهشة ، لتحل محلها سعادة طاغية ، اذ تبينت ان « روزا » لن تسافر ..**

وسألت البارونة اخيرا : « ولماذا تسعين الى بيت المقدس بالذات ؟ » . فأجابت وعيناها تفيضان بالبؤس والشقاء : « اما هارتفيجسن فيبغى الذهاب الى هناك ، لأنه قرأ الكثير عن هذه المدينة المقدسة فى التوراة .. اما انا ، فأتوق الى زيارتها ، لأننى لم أعد أشعر بالطمأنينة وراحة البال .. وقد اظفر من الزيارة بما لم اظفر به من الادوية والعقاقير ! »

ودهشت لأن «روزا» لم تفاجأ بالنبأ ، حين أزجيته اليها ،

بل قالت وكأن الامر لايعنيها : « اننى أعلم ذلك » . وتساءلت وقد أزددت دهشة : « اولا تملكين ان تحولى دون هذا السفر ؟ » ، فأجابت : « ولماذا أقف فى سبيله ؟ » .. بيد اننى لم ألبث أن عرفت انها أوحت الى « مالك » بالتدخل فى الأمر ، فاستطاع هذا ان يقنع هارتفيجسن بأن يصطحب زوجته اذا شاء الذهاب الى الاراضى المقدسة .

وعدت الى لوحتى معتزما انجازها ، لتكون ذريعة للقاء « روزا » .. فلما أتممتها ، قدمتها اليها .. وتأملتها مليا ، ثم أعتذرت بأن زوجها لم يكن بالدار ليدفع لى ثمنها .. وآلمنى هذا القول منها ، ولكنى تمالكت نفسى ، وقلت فى شمم : « ولكنها ليست للبيع ! » .. فماكان منها الا ان رفضت أخذها .

وقلت ، أذ رأيتها تتأملها من جديد : **« هذه كأس النبيذ التى لم تقربيها .. لاتزال فوق المنضدة « تحترق من الوحدة » .. اما تذكرين ليلة حفلة البارونة ؟ »** .. وأومأت برأسها موافقة . ثم سألتنى فجأة : « هل رأيت هارتفيجسن فى الطريق ؟ » .. وتبينت أنها ادركت اننى قصدت لقاءها وحدها . فقلت : « اترينني اخطأت بذلك ؟ » .. وكان جوابها : **« اجل .. فليس لك ان تحبنى ! »**

— اشد ما فقدت راحة البال التى كنت أنعم بها قبل أن أعرفك !

وما كان ابسطها واطيب قلبها ، اذ فهمت اننى احببتها . فدعتنى الى الجلوس بجوارها ، ثم قالت : « اننى لست بالمرأة المستهترة ، ولذلك أشعر بأننى لم أنفصل — حتى الآن — انفصالا تاما عن زوجى الأول : نيكولاى . واظن أن هذه حال كل مطلقة ، فلا تصدق انها تنفصل تماما عن زوجها ..

ولكن هذا الشعور يقوى عند بعضهن ، ويتضاءل عند البعض الآخر .. أما فيما يتعلق بك ، فان شعورك مجرد طيش .. **فأنا أكبرك بسبع سنوات ، فضلا عن اننى متزوجة ، ولا ابتغى ان امضى معك فى علاقة حب .. وحتى لو أحببت ، فاننى افضل ان احترق بكتمانى للحب !** .. ولعلك تذكرنى بحبى لهارتفيجسن ، لكن هذا الحب لم يكن قط صادرا من القلب ، فأنا من هارتفيجسن بمثابة مدبرة بيته .. اترى حديثى هذا يسوؤك ؟ »

واذ أكدت لها اننى غير مستاء استطردت تقول : « ولو اننى كنت فى مثل سنك ، وغير متزوجة ، لما اهتممت بك ! »

— لعل السبب يرجع الى أننى مثلك ، غير موفق فى حياتى .. وكذلك كان شأن زوجك الأول ، الذى انتظرته طويلا .. انك تحاولين ان تبدى قسوة واستهتارا لتساعدينى على مغالبة موقفى !

فتساءلت مبتسمة : « اتعتقد هذا ؟ » .. واذ ذاك ، تجلت لى حقيقة قلبها .. كانت تحاول أن تشوه من حبها لهارتفيجسن ، كى تصرفنى عن حبى اياها .. وادركت هى اننى فهمت الموقف ، حين قلت لها : **« اكاد ارى ان حبك لهارتفيجسن لم يكن سوى .. مجرد غيرة من غريمة لك !»** .

فقد ابتسمت فى ضيق ، وهى تقول : « ربما ! » . بيد انها لم تلبث ان هتفت فى انفعال : « لا ، ليس الامر كذلك .. على انه لايعنيك فى شىء ، فلماذا أفسر لك موقفى ! » . ولكن انفعالها كان اقوى من ان تكتفى بهذه الكلمات ، فلم تلبث ان عادت تقول : « اتعتقد اننى اغار من البارونة ؟ .. لست ممن يتداهن فى الهوى ، بل اننى طبيعية وبسيطة ، حتى ان زوجى الاول كان يردد اننى مملة .. واعتقد انه كان محقا !»

وسكتت فترة ، ثم عادت تقول : « المهم أن مشاعرك نحوى فى غير محلها ، ولست املك سوى أن اوقفها عند حدها » .

فقلت : « ولكنك لاتملكين أن توقفيها ! » . فهتفت : « حقا ! .. ولكن ، لو انك وجدت هنا نساء غيرى ، لما فكرت فى .. أنا بالذات ! .. ومعذرة اذا قلت ان حالتك غير عادية ، فما من واحد ممن شغفوا بى أضرب عن الطعام ، وحالف السهاد .. لقد كان نيكولاى هادئا ، وكذلك بنونى ! »

وكأنما قرأت ما كان يدور بخاطرى ، اذ اوحى الى اليأس بأنه لم يعد لى أن أتردد على منزلها ، فهتفت : « كن عاقلا ، ولاتسلك مسلك الاطفال ! » .. ثم اردفت ــ بعد برهة ــ قائلة : « الحق اننى اليوم مضطربة ، فلا تزدنى اضطرابا .. لقد علمت ان ام نيكولاى العجوز ، قد تلقت مبلغا لابأس به ، عن طريق البريد ، منذ عهد قريب .. **فمن اين يأتيهـا المال ان لم يكن من نيكولاى نفسه ؟ .. لابد ــ اذن ــ من انه على قيد الحياة ! »**

ــ لكنكما منفصلان ، سواء كان حيا ام ميتا !

ــ لا ، هـذا تقدير غير مصيب تماما .. ثم أنهم أبلغونى أنه قد مات ولولا ذلك ما تزوجت .. ان القرار الملكى الذى احلنى من زواجى من نيكولاى لم يكن كافيا ، ومن ثم زعم ماك وهارتفيجسن ان نيكولاى قد توفى !

وشـعرت بالغيرة تجتاحنى فجأة ، نحو هذا الميت الذى شغل عقل « روزا » .. الم يكن قد باعها مقابل مال انفقه فى الشراب حتى توفى ، كما أخبرنى هارتفيجسن ؟ .. على اننى لم أجد داعيـا للخوض فى حديث ليس من حقى ، فاعتذرت اليها عما بدر منى ، وتأهبت للانصراف ، واذ ذاك امسكت بيدى قائلة : « ان عاطفتك ليسـت سـوى نزوة طارئة .. فلنبق صديقين ! .. ولا يسوؤنك ماقلت ، فقد كنت خائفة مضطربة منذ بلغنى ذلك النبأ ! »

– انك لم ترتكبى شرا ، ولم تأت ذنبا ، فاطمئنى !

***

وتوالت الأيام وانا لا ادرى كيف أواجه جفاء « روزا » العاطفى نحوى .. وذات يوم ، جاءت البارونة تسألنى عن صديقى « مونكن فنت » ، وحملتنى رغبتها فى دعوته ، لكى يعاون « مارتا » فى استذكار دروسها .. ومن الغريب ، أن « هارتفيجسن » جاءنى بدوره ملحا فى دعوة « مونكن فنت » .. ولم اتصور أن يعيش صديقى مع « روزا » تحت سقف واحد ، لذلك أسرعت اليها محذرا اياها من الوقوع فى غرامه . فقد كان أكبر منى سنا ، وكان يفوقنى وسامة واناقة . **ولكنها أطلقت ضحكة عالية – مست اعماقى – وقالت : « لن اقع فى غرام احد .. سواء اكان صديقك ام غيره ! »** .. وعندما اردت ان اشرح لها شيئا عن صديقى ، ردتنى قائلة : « لايهمنى ان اعرف شيئا عنه .. فلست اهتم بأحد ! »

وذهبت لأبحث عن صديقى ، ومضيت فى الغابة وحيدا .. وكان الخريف قد جرد أشجار الحور من اوراقها ، وسيطر السكون عميقا ، لا يعكره سوى تقصف الأوراق على طول الطريق .. وانطلقت الافكار والهواجس تعربد فى رأسى : لماذا ترغب البارونة فى دعوة « مونكن فنت » ؟ .. اتراه قادرا على أن يريحها من عذابها النفسى ؟ .. وشغلتنى الاسئلة عن نفسى وعن متاعب الرحلة ، الى أن عثرت على « مونكن فنت » ، بعد يومين .. فاذا البارونة كانت قد أوفدت اليه « جانس » فى المهمة ذاتها .. **فلماذا كان هذا الحرص والالحاف منها ؟**

والفيته ، كما تركته : أنيقـا ـ برغم أن ملابسـه كانت متواضعة كملابسي ـ خفيفا في مشـيته .. لكنه كان يمتاز بطباع الصيادين الذين لا يطيقون العيش بين الجدران وانما يهوون الحياة الطلقة ، في الخلاء .

وعندما اقتربنا من « سيرلند » ، لاحظنا قواما نسـائيا مقبـلا نحونا . وعندئذ صرخ متعجبـا .. واتضح لنا أن البارونة هي القـادمة .. وبالرغم من اضطرابها ، الا انهـا اصطنعت ابتسامة رقيقة ، قائلة : « ها قد وصلتما ! » .. واومضت عينـا « مونكن فنت » بخبث ماكر ، وهو يتأمل البارونة الرشيقة ..

والواقع أنه لقي حظوة لدى البارونة منذ البداية ، فقـد بالغت في اكرامـه ، وعمدت الى توثيق الود معه ، **واخذت تنتهز كل فرصة لتخرج معه في نزهة يعودان منها وسحائب الحب والهنـاء تظللهما !** .. وجاءني يوما يسـألني رأيي في « روزا » ، فتمهلت قبل أن أجيب بالثناء عليها .. ولما لم يشف جوابي غليله ، تحول يسـألني عن البارونة ، فأجبت بالأسلوب ذاته . وهنا قال : «انها سـيدة غريبة ! .. لكم تسبب الحيرة للجميع بحرارة انفعالاتها ، وبكائها المستمر على صديق صياد عرفته في شـبابها ! .. ان هذه العجوز تقتلني بثرثرتها ! »

وعندما سـألته : « هل رأيت مارتا التي جئت من اجل تعليمها ؟ » ، اجابني : « جئت من اجل ماذا ؟ .. انك تعرف تماما ان مالدي من معلومات لايؤهلني للتدريس .. وسأعود من حيث أتيت ! » .. والحق أن صديقي قد لقي ـ بجانب الحفاوة ـ عذابا نفسيا في انتظاره .. **اذ أن شخصية البارونة اتت على ما تبقى لديه من عقل وكياسـة ،** فصار في النهاية

متوتر الأعصاب ، نافد الصبر .. وانتهى به الامر الى ان رحل ، بعد ان صارحنى بحيرته !

***

وذات يوم التقيت بروزا على رصيف الميناء . ولم اكن قد رايتها من زمن بعيد ، اذ كنت قد آليت على نفسى الا اثير شعورها او ازعجها .. كما اننى رايت فى ابتعادى عنها تكفير عن ذنب اعتقدت اننى ارتكبته فى حق هارتفيجسن .

وكانت جميلة ورقيقة كالعهد بها .. فلما سألتها عن احوالها ، اشتكت من ان هارتفيجسن كان دائم التغيب عن البيت .. « فالكل يطلبه ، وهو يستجيب للجميع ! » ..

اما هى ، فقد ظل الخوف المبهم - الذى داخلها منذ علمت بنبأ وصول نقود الى ام نيكولاى - ملازما اياها .

وغصت الميناء بالناس ، اذ كانت سفن الصيد عائدة من رحلة الخريف .. وكم كانت الصدمة قاسية ، حين افتقد هارتفيجسن سفينته الكبرى ، فعلم انها اصطدمت بجبل ثلجى .. وكانت ثورته عارمة ، حين علم ان « ماك » هو الذى كان قد رسم لربانها الطريق الذى صادفت فيه الجبل الثلجى - دون ماقصد منه ، طبعا ! - فتشاجر مع « ماك »، وفض ماكان بينهمامن معاملات ، وراح يتحين الفرص للانتقام منه ، بالرغم من ان الصدمة قد اودت باعتداده بنفسه وثروته .. فطلب الى ان اهجر بيت « ماك » - حيث كنت اعلم ابنتى البارونة - وان اعود الى داره معلما لربيبته « مارتا » ..

والحق ان الفرحة انستنى نفسى وما كنت قد عاهدتها

عليه من ان لا اتعرض للازمة « روزا » .. ووجدتنى ابادر الى دار « هارتفيجسن » لألقى الفاتنة . وما ان اذنت لى بالدخول ، حتى بادرتها قائلا: « لقد جئت الى هنا برغبة فوق ارادتى ! » .. وادركت ماكنت ارمى اليه ، وما كان يساورنى من مشاعر ، فقالت : « ولكننى امرأة متزوجة ! »

ـ اجل ، ولكنك ملكت قلبى منذ اللحظة الاولى ! ..

اجماد انت ام انسان ؟ .. لقد سئمت التمثيل والتصنع ، ولك أن تفعلى بى ماتشائين !

لكم كنت سخيفا ، تافه التفكير ! .. كان الغرور قد اوحى الى انها لن تلبث ان ترحب بقدمى . ولكن شفتيها راحتا ترتجفان ، وكأنها أصيبت بمس من الحمى .. اما انا ، فقد سمرت فى مكانى ، والألم ينهش فؤادى .. وكأنما فطنت « روزا » أخيرا الى موقفنا ، واشفقت على مما فعله بى أستقبالها الجاف فتمالكت نفسها ، وحاولت ان تتلطف ـ برغم اضطرابهما ـ وهى تقول : « آه ، لقد دعاك بنونى الى المجىء اذن ؟ .. لقد ظننت فى بادىء الأمر .. »

ولم أنتظر حتى تتم حديثها .. وبترته هى اذ رأت ما الم بى . فقد رحت ارتجف فجأة ، واخذ صدرى يعلو ويهبط ، وتقدمت ـ وأنا لاأعى ـ حتى كدت ألمسها .. بل اننى لمستها بالفعل ، وراحت شفتاى تتحسسان شعرها وعنقها وجيدها

.. وفى حركة خاطفة ، هوت كفها على صدغى بصفعة ، وانفلتت من بين ذراعى ، فارتميت على مقعد ، وكأننى غائب عن الوعى !

ومرة اخرى ، اشفقت على . واخذت تعمل ـ بعد ذلك ـ على ان تترضانى ، وان تسرى عنى ، فلم تزدنى محاولاتها الا ألما ، والا شعورا بالخسة والضعة .. على ان الأيام لم تلبث ان خففت من هذا الشعور شيئا فشيئا ، حتى عادت الصداقة بيننا مجراها الاول . وان آثرت ان اظل بعيدا عن البيت ..

***

واشتد الخصام بين هارتفيجسن وماك ، فراح الأول يفتن فى تدبير المكائد للثانى .. ومن الغريب ان ابنة « ماك » ـ البارونة ـ كانت تساعده ، ألى أن أصيب « ماك » بمرض اوشك ان يودى به .. فكأنما كان هذا المرض رسول التوفيق بين الفريمين ، فلم يلبث هارتفيجسن ان انصرف عن الرغبة فى الانتقام .

وفى تلك الاثناء ، انجبت « روزا » ولدا ، فكان مقدمه سببا فى ان استرد هارتفيجسن هناءه واشراقة وجهه .. وعندما ذهبت لأهنئها ، وجدتها ترتعد .. وظننتها متأثرة من الجو ـ الذى كان عاصفا ـ ولكنى سرعان ما تبينت انها انما كانت ترتعد خوفا .. اذ كان « نيكولاى » ـ زوجها الاول ـ قد عاد الى الجزيرة ..

وتكشفت لى نواحى جديدة من نفسية المرأة وقلبها .. كانت « روزا » فى هم من عودة « نيكولاى » ، ولكنها كانت فى حيرة مما يصير اليه موقفها ازاء « بنونى هارتفيجسن » .. ولقد تبينت انها كانت تحب « نيكولاى » ، وكان حبها له غذاء لروحها .. اما الزوج الثانى ، فكان مصدر الغذاء لجسمها .. كانت تدخر لنيكولاى اجمل الذكريات ، ولكن

مامن ذكرى بريئة واحدة كانت تعتز بها لهارتفيجسن .. **وكانت تفضي بكل هذه الهواجس والاضطرابات لى .. انا الذى كنت أطوى القلب على نار حب لا أمل فيه !**

يا روزا المسكينة ! .. ويا للعواطف الحائرة ، كيف تعصف بالنفوس ! .. لقد كذب هارتفيجسن – واستعان بمالك فى كذبه – الشراء ابتعاد نيكولاى عن « روزا » ، ولاقناعها بموته .. فهل سعد هارتفيجسن وهل أسعدها عندما تزوج منها بعد ذلك ؟ .. الواقع انه ظل مذبذبا بين «روزا» الساذجة ، المتواضعة .. و « البارونة » الماكرة ، ذات الثراء والنفوذ .. ولقد حاولت البارونة أن تصرفه عن « روزا » ، ولكنها لم تكن تحبه ، بل كانت تحب صيادا شريدا فى الغابة ، عرفته فى صباها .. انما كانت محاولتها اجتذابه نوعا من الانتصار الذى كانت تنشده لتسرى عن نفسها شعورها بأن « روزا » كانت أجمل منها ، وكانت مرغوبة ! .. **واستجابت «روزا» للتحدى ، فسعت الى الفوز بهارتفيجسن ، لا لأنها كانت تحبه – بدورها – ولكن بدافع من الغيرة والرغبة فى التفوق على السيدة ذات المركز والجاه ! ..** وكانت تعرف أننى أذوب وجدا من اجلها ، ولكنها صدتنى ، لأن فؤادها كان يتجه اتجاها آخر .. اتجاها لم تستبنه الا عندما علمت ان « نيكولاى » قد بعث فى الجزيرة !

***

وخرجت فى تلك الليلة أهيم على وجهى ، فالتقيت بغريب يسأل عن « هارتفيجسن » ، ويلح فى طلب لقائه .. فتطوعت

فى ارشـاده اليه . وكانت « روزا » أمـام باب الدار حين اقتربنا ، فلم تكد ترانا ، حتى ولتنا ظهرها ، وانطلقت تعدو فى الاتجـاه المقابل من الطريق .. وكانت لاتزال ضعيفة من جراء الوضع ، فسرعان ما اصابها الارهاق ، وكادت تسقط اعياء ..

ولحقنا بها ، فبادرها الغريب قائلا : « لاعليك ياروزا .. اطمئنى ! » وادركت ـ اذ ذاك ـ ان الغريب لم يكن سـوى .. « نيكولاى » . واستطاعت روزا ان تنتزع صوتها من حلقها ـ أخيرا ـ لتسأله عن سـبب مقدمه ، فقال متأففا : « جئت لبعض اعمال .. ولأرى والدتى ! » . وهممت بأن انسـحب احتراما لعواطفهمـا ، ولأخلى لهما الجو ، ولكن « روزا » تشـبثت ببقائى ، فايد « نيكولاى » رغبتهـا .. وادركت من الحاحها انها كانت تشـعر بشىء من الطمأنينة لوجودى .

وقال الرجل : « انا نيكولاى آرنتسن ، الذى كان ـ من قبل ـ زوجا لها .. وقد جئت انشـد حقى ممن وعدونى به ! » .. ثم التفت الى روزا ، وقال : « الا ترين انه يجدربنا ان نلقى بنفسينا فى البحر ياروزا ؟ » . فهتفت المسـكينة والاسى يعتصرها : « هذا أفضل ، فى الواقع ! »

ـ ولكن ، لماذا ؟ .. أن لك زوجا ، وطفلا .. وامامك حياة طويلة ، مليئة بالسعادة ..

ـ الا تكف عن السـخرية ؟ .. جدير بك ان تقدر اننى الآن زوجة لسواك !

ـ هذا طبيعى ، وغير طبيعى ، فى آن واحـد .. وهاأنذا

قد جئت لأسوى كل شىء ، وارد الأمور الى طبيعتها .. لقد خدعك ماك وهارتفيجسن عندما زعما اننى توفيت ، لكى يجوز لك ان تتزوجى من الاخير .. **ولقد خدعانى - انا الآخر - اذ انهما لم يدفعا لى كل المبلغ الذى وعدانى به ، ومن ثم آثرت ان ارتد الى الحياة حتى احصل على حقى !**

وكانت « روزا » ترتجف بعنف ، وهى تجلس على حجر فى الطريق ، وقد راحت تدك الارض بكعب حذائها .. كانت موزعة العواطف ، مضطربة ، حائرة .. ولم تلبث ان قالت : « ليس بوسعى ان اجيبك الآن برأى قاطع ! »

- ولو ذكرتك بماضينا .. وبما كان يشرق عليه من ابتسام؟

- ولو ! .. أنك آثرت أن تنشد المال بدلا منى ..

وكان ردها اشبه بسكين قطع حبل كل حديث ، فرفع رأسه فى اباء ، وقال لها : « لم يعد بيننا كلام .. فعودى الى طفلك ، واجتهدى ان لاتذرفى الدمع على ! »

وفى اليوم التالى ، علمنا ان نيكولاى القى بنفسه فى البحر .. لقد استراح ، ولكن .. هل استراحت « روزا » ؟ .. اننى اذ استعرض هذه الاحداث - بعد أن بارحت الجزيرة ، ونزحت الى الشمال - اوقن من **ان الحب الذى كان يعمر قلب « روزا » انما كان لنيكولاى اكثر مما كان لهارتفيجسن ، فلماذا عزفت عن الرجل حين ظهر لها انه كان على قيد الحياة ؟** .. هل كان عزوفها وفاء للوعود التى قطعتها لهارتفيجسن ، حين تزوجت منه ؟ .. ولكنها كانت تدرك ان ليس لها ان تطمئن الى حب هارتفيجسن ! .. اذن ،

فهل كان تصرفها راجعا الى الطفل الذى انجبته من هارتفيجسن ؟ .. أم ترى أن الغيرة ـ غيرتها من البارونة ـ هى التى حدت بها الى ان تتشبث بهارتفيجسن ، برغم حبها لنيكولاى ؟ .. أم ترى ان قبول « نيكولاى » النزول عنها ، لقاء مبلغ من المال ، قد أثار كرامتها كأنثى ، وحبيبة ، وزوجة ؟ ..

انه لغز لا ازال افكر فيه ، دون ان اهتدى الى حل !

حوافز الحياة



النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ..

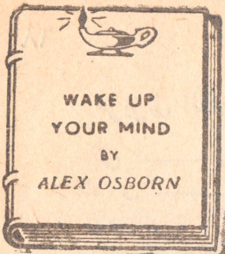
فى هذا الباب قدمت لك فى الأعداد الماضية ، الكتب الآتية على التوالى :

◆ كيف تصارح أولادك وبناتك بالحقائق الجنسية ◆ طريق السعادة الزوجية ◆ مركب النقص ◆ حواء الجديدة ◆ كيف تقهر الخجل ◆ كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة ◆ فنون الحياة : فن الحب ، فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الصداقة ، فن العمل ، فن الزعامة ، فن التفكير ، فن الاستمتاع بالشيخوخة

◆ غزو السعادة ◆ التحليل النفسى ◆ الجنس الآخر ◆ عش حياة ايجابية ◆ أبواب الحب المغلقة ◆ فن الحب (لاوفيد) ◆ الانتصار على الخوف ◆ عش بحكمة تعش سليما ◆ كيف تتجنب متاعب الاعصاب المرهقة ◆ كيف تفسر أحلامك ◆ كن متفائلا ◆ تاريخ الغزل ◆ كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة ◆ أتح لعقلك حياة جديدة ◆ دنيا الحب والسعادة ◆ حب وجنس وخيانة ◆ السلوك الجنسى عند الرجل ◆ السلوك الجنسى عند المرأة ◆ فى بلاد العراة ◆ أضواء على الجنس ◆ على أعتاب شباب الكهولة .

واليوم .. أقدم لك كتابا جديدا

لا تخنق عقلك!



للعالم النفساني الامريكي:
أليكس اوزبورن



تلخيص: محمد بدرالدين خليل

عزيزى القارىء :

كل انسان يولد وفيه قوة تؤلف جزءا من عقله ، ولك ان تسميها « قوة الخيال » ، او « القريحة » ، او « الادراك » ، او « قوة التصور » ..

على اننى آثرت هنا ان اطلق عليها الاسم الاول .. ذلك لأننا أعتدنا ـ فى الحياة العادية ـ ان نقصر الخيال على كل شيء تتصوره عقولنا دون أن يكون له وجود ، وأعتدنا أن نقرن الكلمة بالشاعرية والجو الحالم .. **لهذا اردت ان اقر فى ذهنك ان « الخيال » اوسع من هذا واعم ..** فالتفكير فى سبيل حل مسألة حسابية او هندسية ، لابد له من « خيال » .. والتفكير فى مشكلة من مشكلات الحياة ، لايستغنى عن « الخيال » .. وما المخترعات والمبتكرات الا نتائج تفكير علمى لعب فيه الخيال دورا كبيرا .. **ولولا ان الانسان اعتاد ـ منذ اقدم العصور ـ ان يتمثل فى خياله اختراق الفضاء المحيط بالأرض ، والانطلاق الى الكواكب ـ والى القمر بالذات ـ مانعمنا فى عصرنا الحالى بالصواريخ التى شقت الفضاء فعلا ، وبلغ بعضها القمر** ، كما فعل الصاروخان الروسى والامريكى اللذان حملا أعلام الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الى القمر ..

ومؤلف هذا الكتاب : **« اليكس اوزبورن »** ، يذهب ـ نتيجة لدراسته وابحاثه ـ الى ان حياتنا الحديثة تساعد على ضمور الخيال واضمحلاله ، فى حين ان « الخيال » هو النور الذى يستطيع ان يحيل حياتنا الى بهجة ومتعة ..

اننى قدم لك ـ فى الصفحات التالية ـ ماسوف يقنعك بأهمية الخيال ، والخيال الخلاق بالذات ، فى حياتك .. وبقيمة استغلالك هذه الهبة الطبيعية ـ أو هذا الجزء من تكوينك وكيانك ـ وتمرينه .. وآمل أن استطيع ان اقدم لك ـ فى عدد تال ـ خير الوسائل والطرق التى توصل اليها العلماء لشحذ القريحة واستغلال الخيال ..

اضمحلال الخيال اشبه بانهيار الجسد

• **من** الاقوال التى اذكرها لوالت ديزنى : « كل انسان ـ تقريبا ـ يكون واسع الخيال فى طفولته ، ولكننا نفقد قوة خيالنا رويدا ، كلما تقدمت بنا السن .. **واخفاقنا فى توجيه خيالنا ، لايقل اثرا عن انهيار قوانا الجسدية نتيجة اهمال الرياضة والمران ! »**

بل ان اضمحلال الخيال قد يكون أسوأ أثرا من اضمحلال القوى الجسدية ، اذ ان التغلب على العقبات التى تلقيها الشيخوخة فى دروب حياتنا ، يتطلب اكثر من القدرة على تمحيص الامور والبت فيها .. يتطلب خيالا مدربا ، مرنا ، نحتفظ بنشاطه عن طريق المران الخلاق خلال مراحل الحياة ..

وقد كرس عالم تربوى كبير ـ هو البروفيسور «هيوز ميرنز» ـ جهوده فى الفترة بين سنتى ١٩٢٦ و ١٩٤٦ لدراسة وتعليم « المقدرة الخلاقة » .. مقدرة الخيال على الخلق . وقد لخص ثمرة جهوده كرئيس لقسم التربية الخلاقة بجامعة نيويورك فى عبارات قلائل : **« الملكة (بفتح اللام) الخلاقة بمثابة قلب آخر لنا** . وما استطاع امرؤ أن يعرف مصدر

قوتها ، ولكن احدا لايشك فى ان هذا المصدر كامن فينا . وهذه الملكة كفيلة بأن نبقى على حيويتنا ، اذا اتحنا لها فرصة خدمتنا . اما اذا تركناها تخمد ، فكأنما اخمدنا الحياة فينا .. **فهى فى حاجة الى مران مستمر يقويها فتزداد معاونتها لنا فى التغلب على حاجات معيشتنا »** . على أن « البروفيسور ميرتز » لم يشق بكلامه وتجاربه سوى درب واحد ، فى عالم كان التربيون وعلماء النفس يتجاهلونه ..

مطالب الحياة تخنق خيالنا

• **ولو ان** كل امرىء منا عرف عقله كما ينبغى ، لتفتحت امامه ابواب معرفة تفوق كل ما عرف حتى اليوم .. ولكنا لانزال نتطلع – حين نتأمل عملية التفكير – الى ظلام لا تبدده سوى ومضات واهنة ، سريعة ..

ولقوانا العقلية اربع شعب ، بوجه عام :

(اولا) قوة الاستيعاب : المقدرة على الملاحظة والاهتمام ..
(ثانيا) قوة الاحتفاظ : أى ادخار ما نستوعبه ، ونذكره ..
(ثالثا) قوة التمحيص : المقدرة على التحليل والحكم ..
(رابعا) قوة الخلق : المقدرة على التأمل ، والنفاذ بالبصيرة الى ماوراء المظاهر ، وتكوين الأفكار والآراء ..

فالعقل يعمل – فى الاستيعاب والاحتفاظ – كالاسفنج ، ثم تبدا عملية التفكير .. والعقل المفكر يجد ان البت والحكم اسهل عليه من الخلق . والتعليم يسعى الى ان ينمى فينا موهبة النقد والتمحيص ، بينما تربى التجارب فينا موهبة الحكم على الامور . فأنت – من الصباح الى المساء – تنهمك فى أصدار احكام ، والبت فى مسائل : « هل اغادر الفراش ، او استلقى فترة اخرى ؟ » .. « هل اعمل هذا ، او اعمل

ذاك ؟ » .. **ومن الغريب حقا ، اننا كلما ازددنا ممارسة لموهبة الحكم ، قل تدريبنا لخيالنا ! ..**

وبالاسراف فى استخدام مقدرتنا على البت فى الامور ، نعمل على شل مقدرتنا الخلاقة .

الخيال انواع .. ارقاها « الخيال الخلاق »

• و « **الخيال** » تعبير يشمل نطاقا واسعا ، غير واضح المعالم ولا الحدود ، حتى لقد وصفه احد العلماء بأنه « مجال يخشى علماء النفس ان يطأوه » .. ذلك لأن الخيال يتخذ كثيرا من الاشكال ، بعضها جامح ، وبعضها عديم النفع وقد يكون ضارا ، وبعضها خلاق .. فمن الجموح : التهوس ، والخبل، والتعصب ومختلف انواع الشذوذ العقلى .. ومن الاشكال عديمة الجدوى : احلام اليقظة ، واحلام النوم ، **وهى قد تنقلب الى ضارة كما فى العقد النفسية والضجر ، اذ تسعى الانفعالات الى توجيه الخيال الى العمل ضد صاحبه .. ولكن فى وسعنا ان نتغلب على هذه الاشكال بالتفكير الخلاق .**

وهناك انواع **تصورية** من الخيال ، تمنحنا قدرة « التمثل » ؛ اى ان نرى بعين العقل مالم نبصره فى الحياة الواقعية قط .. كما ان هناك خيالا مبتكرا ، يمكننامن ان نبصر جبلا ـ مثلا ـ فى منطقة لاتوجد بها جبال البتة .. ثم هناك الخيال « **المسترجع** » الذى يمكننا من استرجاع منظر من الماضى البعيد ، او اصداء كلام مضى عليه زمن طويل ، فهو يضيف البصر والسمع الى الذاكرة !

ومن انواع الخيال التصويرى « **التمثل المجسم** » .. ان ابنتى تتأمل « باترون » ثوب يروق لها ، فسرعان ما تتراءى لها صورتها فى مرآة وقد ارتدت هذا الثوب !

والخيال « **التقمصى** » اشبه بجسر ينتقل عليه المرء من

شخصيته الراهنة الى شخصية اخرى .. **كما يحدث للفتاة « الكومبارس » ، حين تتصور نفسها بطلة تؤدى دورا امام « الفتى الاول » وتستأثر باعجابه وهيامه ..**

ويبقى بعد ذلك الخيال « **التوقعى** » ، وهو كثيرا مايتجه بنا الى التشاؤم او التوجس ، فيسمم عقولنا . ولكنا حين نستطيع ان نتوقع الخير ، ونحن نعد انفسنا لأسوا الاحتمالات ، انما نستغل الخيال التوقعى استغلالا خلاقا .

الطبيعة تزودنا بمخ اكبر مما نستخدم

• **وارفع** انواع الخيال طرا ، هو « **الخيال الخلاق** » . فعن طريقه نشق خلال الحقائق القديمة ، سبيلا جديدة ، ونتغلغل الى ماوراء الحقائق القائمة ، لنصل الى حقائق لم تعرف بعد . **ومن ثم فنحن نستخدم الخيال هنا كالمصباح الكشاف ، نسلطه هنا وهناك ، الى المعلوم وغير المعلوم ، لكى نكتشف جديدا .**

ومن الممكن — كذلك — استخدام الخيال الخلاق كأداة للخلط والمزج بين عناصر معلومة ، لنكون منها شيئا غير معلوم ، كفكرة جديدة او راى جديد .. وبهذا **نبتكر** او **نخترع** . وقد كان بعض الفلاسفين — فى الماضى — يصفون « المخيال » بأنه : « الارادة التى تسلط على مواد الذاكرة » .. ولاجدال هناك فى ان المقصود بهذا التعريف هو « الخيال الخلاق » .

ومن الناحية العلمية ، تزود الطبيعة الانسان بمخ اكبر مما يستخدمه فعلا . ويثبت ذلك أن معظم مراكز المخ — كتلك التى تمكننا من الكلام او القراءة او السمع — توجد مزدوجة ، بحيث يظل واحدا من كل منها معطلا الى ان يصاب

المركز المقابل له بضرر او تلف ، ومن ثم نبدا فى تدريب واستخدام المركز الذى كان بلا عمل .. وليس ادل على هذا من ان « **لويس باستير** » ـ **العالم الخالد الذكر ـ اصيب بشلل اتلف نصف مخه .. ومع ذلك ، فان فريقا من اعظم اكتشافاته العلمية تم بعد اصابته بالشلل** .. كذلك اجرى اختبار للذكاء ، لرجل من اهالى نيويورك كان الثلث الامامى من مخه قد ازيل ، فكانت النتيجة أن وجد أن ذكاءه مرتفع بدرجة كبيرة .

« برنارد شو » كان يفكر مرة كل اسبوع

• **ويقول** « البروفيسور » وليم جيمس ـ من اساتذة جامعة هارفارد ـ بهذا الصدد : « اننا انصاف يقظى ، اذا قورن بين مانحن عليه وما ينبغى ان نكون عليه . فنحن لانستغل سوى جزء صغير من مواردنا العقلية » .. وقد صاغ « جورج برنارد شو » هذه الحقيقة بأسلوب ادبى مسرحى ، حين قال : « قلة أولئك الذين يفكرون أكثر من مرتين او ثلاث فى السنة . **وقد استطعت ان اكتسب شهرة دولية لأننى افكر مرة أو اثنتين فى الاسبوع** » .

والمقصود بهذا التفكير : التمحيص ، والتحليل ، والمقارنة، واستخلاص النتائج .. اى الأحكام . اما بالنسبة للتفكير الخلاق ، فنحن اشد تقصيرا فى استعمال عقولنا فى مجاله . ويروى ـ فى هذا الصدد ـ عن « جيمس وولف » ، الذى كان من المع مصممى الاعلانات فى امريكا ، انه استخلص من خبرته الطويلة ان « **الخيال ليس هبة نادرة ، وانما هو عادة تنشا عن اقبالنا على استخدام عقولنا** .. وقد يقول معترض انه لايستطيع ابتكار الافكار الجديدة ، ولكنى اسأله : الى

اى مدى تحاول ؟ .. هل بذلت حقا جهدا صادقا ، لزمن طويل، لتدريب عقلك على التفكير الخلاق ؟ »

وما اكثر من ينظرون منـا الى « الخيـال » على انه شىء يسير من تلقاء نفسه ، كالمعدة او اى عضو من اعضاء الجسم يعمل تلقائيا تحت ارشاد من جهاز عصبى منسجم ! .. ومن ثم ، فما لم ندفع خيالنـا الى العمل ، فانه لايلبث ان يخمل ويتضاءل .

وينعقدالاجماع على ان الخيال هو الجذوة المقدسة التى تجعل الانسان ((سيد الحيوان)) . فالحضارة من نتاج الخيال الخلاق .. كل المخترعات ، وكل الافكار والآراء والمبادىء التى تدفع الانسان فى طريق التقدم ، من ثمار هذا الخيال .

الخيال القوى يخلق الفرص لصاحبه

• **ولقد** قام الدكتور « س . ل . ويلز » بدراسة تحت اشراف الجمـاعة الامريكية لعلم النفس التطبيقى والمهنى ، اختبر فيها فريقا من الموظفين ذوى المرتبات العالية ، وفريقا مساويا من ذوى المرتبات المتوسطة . فتبين ان **اولئك الذين بلغوا ارفع المراتب كانوا اكثر من سواهم مقدرة على التفكير فيما يفعلون ، وكيف ينبغى ان يفعلوه .. فالخيـال القوى يهيىء لصاحبه الفرص .**

واذا تحولنا الى شؤوننا الخاصة ، وجدنا انه مامن شىء يملأ حياتنا بهجة واشراقا اكثر من خيـال مدرب ، وموجه خير توجيه . فان مجرد استخدام هذا الخيال يعتبر متعة ومبعثـا للرضى . ومع ذلك ، فان علماء النفس والتربية لم يلقوا اضواء كافية على ملكة التفكير الخلاق .

وقد لايكترث كثيرون منا لأن يعلموا ان الخيال هو الضوء الذى ينير لنا دنيانا ، وان الافكار الخلاقة هى الدرجات التى

نصعد عليها الى المجد .. ولكن الذى يجب ان نكترث له جميعا ، هو اننا نستطيع ان نحصل من دنيانا على نصيب اوفر من نصيبنا الحالى ، اذا نحن استخدمنا خيالنا استخداما فعالا .

نحن اموات جزئيا .. مالم نستغل عقولنا

• **والخيال** — فوق كل هذا — من دعامات الحياة المستقرة الهانئة . فان ابحاث معهد الهندسة الانسانية — فى امريكا — تدل على ان معظم القلق والتذمر فى حياتنا ، ينشأ عن عدم استخدامنا لملكاتنا ومقدراتنا . فان مواهبنا تصبو دائما الى منفذ لترى النور ، فضلا عن انها تتوق دائما الى النمو والتطور . **فاذا نحن سددنا عليها المنافذ ، وضيقنا عليها مجال النمو والتطور ، انقلبت الى مصدر للضيق والقلق ، وعدم الرضى ..**

ويتناول البروفيسور «د . ك . واينبرينر» هذه الفلسفة بالايضاح ، اذ يقول : « اننا اموات جزئيا ، لاننا لانستخدم كل مقدراتنا . واوفرنا حياة هو اكثرنا انتاجا خلاقا . فالشخص الذى اوتى خيالا خلاقا ، يستطيع ان يكون حرا ولو كان رهين « زنزانة » ، فى سجن .. اما الذى لم يؤت خيالا خلاقا . فمثله كمثل حيوان يسير فى عالم مجهول ! »

ولقد انعمت الطبيعة على كل منا بدرجة معينة من الخيال .. وهذه الموهبة لاتتوقف على التعليم كثيرا ، فكم راينا من فنانين برعوا فى الفنون دون ان يكونوا قد درسوها دراسة وافية كافية .. وكم راينا من اناس نجحوا فى ميدان الاعمال دون ان يكونوا قد الموا بنصيب يذكر من العلم .

الثور الذى يسبق القطار !

• **ومن الطرائف الفكهة التى يحسن ايرادها هنا** ، المتخفيف من وطأة الحديث العلمى ، ان احد اصحاب مزارع تربية الماشية فى ولاية (تكساس) ، كان يقف يوما فى احدى النوافذ ، واذا به يرى سيارة مقبلة ، لم يكد يتعرف على من كان يستقلها حتى اندفع الى داخل داره ، وقال لخادمه : « ان القادم من ذوى المكانة فى (شيكاجو) .. وقد حدث ان ضمنى واياه مجلس شراب ، فرحت ازهو امامه — فى نشوة الخمر — **بان لدى ثورا اعتاد ان يسابق القطار كلما مر بحذاء المزرعة فى كل صباح ، وان يسبقه فعلا** .. وقد رغب الرجل فى ان يرى هذا الثور العجيب ، وانت تعرف ان لاوجود له فى الواقع .. لذلك اعهد اليك باستقبال الزائر ، فان سألك عنى ، فقل اننى سافرت ! »

وبينما تسلل السيد من الباب الخلفى ، سعى الخادم الى الباب الأمامى ، واستقبل الضيف مرحبا .. حتى اذا سأله هذا عن مخدومه ، قال : « لقد سافر الى (نيو اورليانز) ، ومنها الى (أتلانتا) و (جاكسونفيل) ، ثم الى (نيويورك) ، والى (تورنتو) ، والى (كليفلاند) و (سنسينانى) فى طريقه الى (شيكاجو) .. ومن هناك ، سيقصد الى (سانت لويس) ، ثم الى (دنيفر) ، فالى (سيتل) .. ثم يعود ، معرجا فى طريقه على هوليوود ! »

— وى ! .. يالها من رحلة ! .. وكم ينقضى من الزمن قبل ان يعود ؟

واذ اجاب الخادم : «يومان» ، هتف الضيف : «يومان ؟ ! .. كيف يتسنى له ذلك ؟ .. هل يستقل طائرة نفاثة خاصة ؟ » .. واجاب الخادم بهدوء : « لا ياسيدى .. انه يمتطى ذلك الثور السريع الذى يمتلكه ! »

النبوغ ليس شرطا للخيال الخلاق

• **واذا** كانت الملكة الخلاقـة تختلف من فرد الى آخر ، فان الدافع المحرك لها يكون اكثر اختلافا وتباينا .. وعلى هدى هذه الحقيقة ، يقسم التربويون الاطفال الى ثلاثة انواع :

(١) **المتسابقون :** الذين يريدون من يملى عليهم مايفكرون فيه ، ثم يتلونه عليه بعد ان يستوعبوه ..

(٢) **السائرون فى الركب :** الذين يحاولون ان يتبينوا ما يريده المدرس ،ثم يبذلون من الجهد ما يكفى لأن ينالوا الدرجة التى تكفل لهم النجاح .. وحسب !

(٣) **حلالو المعضلات :** الذين يحبون الافكار الجديدة ، ويحبون أن ينشروا افكارهم فى الصف الدراسى ، وان يتلقوا عنها الجزاء المناسب .

وليست بنا حاجة لأن نكون موهوبين بنعمة النبوغ الفذ ، حتى نصبح من « حلالى المعضلات » .. **كما ان من الممكن ان نحرك مقدرتنا على التفكير الخلاق ، بطريقة لا تكبد كثيراً من العناء ..**

والواقع ان الخيال اشبه بجناحى النعامة ، فهو يمكننا من الجرى السريع ، وان لم يمكننا من الطيران ! .. ولكن كثيرين منا لايمشون ، فما بالك بالجرى ؟ ! .. انهم اما ان يقفوا جامدين - فى مضمار الفكر الخلاق - واما ان يتقهقروا من طفولة نشيطة الخيال ، الى يفاع مجدب !

عقول النساء .. الغاز غامضة !

• **ولقد** قال جوستاف فلوبير - مؤلف « مدام بوفارى » - يوما : « ان الموهبة رهن بتصرفاتنا . فاما ان نهمل استعمالها فتضمحل ، واما ان ننميها . بممارسة الخيال

الخلاق .. بحل المسائل والمشكلات .. باستخدام فراغنا بطرق تروض خيالنا » ..

ويرى بعض علماء النفس ان المراة اقل من الرجل فى « القوة البدنية والخيال » . **وانى لأشك فى هذا ، اذ تبت ان الاختبارات العلمية تدل على ان المرأة لاتقل خيالا عن الرجل ، ان لم تفقه احيانا ..** وقد اتيح لى ان ادرس خيال المراة وتفكيرها طويلا ، لاسيما وان لى زوجة واربع بنات وسكرتيرة .. ومع ذلك ، فانى اعترف بأنهن لا يزلن غامضات بالنسبة لدراستى !

واذكر اننى قلت لزوجتى ، عندما ولدت ابنتنا الاولى : « اننى بالماجستيراه التى حصلت عليها فى علم النفس ، سأستطيع ان اوجهها بطرف اصبعى ! » .. ولكم كنت على خطأ ، كما تبينت عندما بلغت ابنتى العاشرة من عمرها . فقد حدث ان وجهت اليها - ذات امسية - لوما رقيقا ، فاذا بها تدق الارض بقدمها ، وتصرخ : « اننى اكرهك ! » ..

وفى اقصى كرم وتلطف - اصطنعتهما لأظهر مدى قوة ارادتى - سألتها عن سر كراهيتها المزعومة ، فاذا بها تجيب: « لمجرد اننى اكرهك ! »

ولم تتحول عن هذا الجواب فى كل مرة وجهت اليها السؤال .. بل انها كانت تزداد انفعالا كلما ازددت انا رقة وتلطفا ، حتى انتهى بها الأمر الى ان ارتمت على الارض ، وراحت تدقها بيديها وقدميها ، وانا لا اكف عن سؤالها : « لماذا تكرهيننى ؟ » .. وفى النهاية ، قالت بصوت خافت : « انما اكرهك لأنك .. شديد اللطف ! »

اعمال البيت تشحذ خيال المراة

• **وعلى الرغم** من عجزى عن الالمام بعقل المراة ، الا ان من

حقى أن اقول اننا ـ معشر الرجال ـ خليقون بأن نعترف بأننا اقل منهن خيالا . وكل ما نحتاج اليه للتثبت من هذا ، هو أن نتأمل الأعمال اليومية للنساء ، فسوف نرى ان ربات البيوت يمارسن الخيال ويستغللنه اكثر مما يفعل معظم الازواج . **ذلك لأن عمل الرجل غالبا ما يكون « روتينيا » ، اما المرأة ، فلا تخضع لقواعد تقيدها ، فى عملها فى البيت من الصباح حتى المساء ..** فتصور مدى التفكير والخيال اللذين تستخدمهما فى تدبير مشترياتها ، وفى تصميم الاطعمة ، وفى تنسيق البيت ، وفى حمل الاطفال على ان يفعلوا هذا ويكفوا عن ذاك .

وكم من ازواج تبينوا مدى مالزوجاتهم من خيال خلاق ، فركنوا اليهن ، واستعانوا بهن .. وقصة « كورى » و « مدام كورى » اقرب مثال لذلك . فقد كانا شريكين فى البحوث العلمية ، كما كانا شريكين فى الحياة الزوجية .

اثر البيئة الحديثة على العقل

• **وهناك** حقيقة هامة ، فى مجال الحديث عن تدريب الخيال الخلاق وتمرينه .. تلك هى ان نموه قد يتعطل بسبب الجو الذى نعيش فيه . فالحاجة هى التى دعت اسلافنا الى ان يبتكروا ويخترعوا مايخفف عنهم عناء الحياة والعمل . وكان عليهم ان يقدحوا فكرهم معظم الوقت ، لكى يصونوا حياتهم . **اما حياتنا الراهنة ـ وهى ناعمة نسبيا ـ فمن شانها ان تخدر روحنا الخلاقة ، وان تبث الخمول فى تفكيرنا الخلاق !**

ذلك لأن الانسان اصبح ـ فى العصر الحديث ـ اكثر امنا وطمانينة ، بفضل ما اصبحت تكفله له الدولة من امن ، ومن معاش ، ومن تأمينات تقيه شر البطالة والعوز .. كذلك

اصبح الانسان اقل جهدا فى العمل ، بفضل المخترعات الحديثة .. حتى العمليات الحسابية – بالنسبة لكاتب الحسابات – اصبحت الآلات تقوم عنه بها .. الأمر الذى يشجعه على ان لايشحذ عقله ، او يجهد فكره .

لقد كان شعار الحياة عند أجدادنا : « اعمل والا مت ! » .. **اما الآن ، فاصبح انسان العصر الحديث يعتمد على الدولة ، ويطمئن الى انها لن تتخلى عنه ، او تترك اسرته للجوع والمرض والتشرد** .. فضلا عن انها تدافع عنه وعن اسرته ضد كل مايهدد أمنهم وسلامتهم .. لهذا فقد أصبح الشعار اليوم : «لماذا احاول ؟ .. ان الدولة ترعانى ، وتكفل لى العمل الذى ارتزق منه .. فلماذا ارهق عقلى فى الابتكار ؟ »

حياة المدينة تخدر الفكر والخيال

• **وهكذا** نرى – من وجهة النظر الى استغلال المرء لمواهبه – ان الشعور بالأمن والطمأنينة ، كثيرا مايكون عائقا لنمو خياله الخلاق .. فعدم الاطمئنان هو اعظم قوة محركة فى العالم .

ولقد كانت روح الجماعة محفزة فى الماضى على التنافس ، ولكنها اليوم تزداد خمولا .. كذلك اصبح اسراف الدولة فى فرض الضرائب من العوامل التى تقعد بالكثيرين – ممن لم يؤتوا التوجيه السليم – عن الاجتهاد والابتكار ..

وحياة المدن من العوامل التى تخدر قوى الفكر والخيال ، اللهم الا بالنسبة لبعض اهل الفن ورجال العلم واصحاب الاعمال .. اما حياة الريف ، فان الخشونة التى تتسم بها تتيح مجالا لممارسة الخيال الخلاق.

وقد قامت لجنة تابعة لمؤسسة كارنيجى ، بدراسة استغرقت خمس سنوات ، لتحديد الاصول الجغرافية والنشأة الاقتصادية لعدد ممن برزوا فى ميدان البحوث العلمية

.. فانتهت الى ان « البحث الخلاق يقوى فى العقول التى لاتزال مرتبطة بالأوساط البدائية ، ولو بالذكريات .. وفى العقول التى نشأت ـ من الناحية الاقتصادية ـ فى الصفوف الدنيا من الطبقة المتوسطة » .

كذلك تؤثر الحرب ، والخوف من الحرب ، على القريحة الخلاقة فتضعفها .. بل أن المجندين يدربون ـ فى الجيوش ـ على ان يفعلوا مايؤمرون ، وليس لهم ان يفكروا .. ثم ان الحرب تولد عقدا مناوئة للمقدرة الخلاقة .. كذلك الشعور الذى يوحى للمرء : « ما الفائدة ؟ » .. على ان هناك استثناء واحدا يتمثل فى مجال البحوث التى يتطلبها المجهود الحربى ..

***

وبعد ؟ ! ..

الآن وقد ادركت قيمة التفكير والخيال الخلاقين ، ابدا من هذه اللحظة .. ايقظ عقلك ، وأيقظ خيالك ، حتى تنعم بالحياة وتشعر ببهجتها !

عندما يرتفع الستار..



روائع
المسرح
العالمى
(التمثيلى... والغنائى)

عزيزى القارىء ..
قدمت لك فى هذا الباب المسرحيات العالمية الآتية :
خطايا الحب . نزاهة الحكم . سلاح المرأة . فولبون . جيوكندا . كلام الناس . مدرسة الفضائح . سيرانو دى برجراك . لعبة الحب والموت . مروحة الليدى وندرمير . فاوست . فى سبيل الحب . الام . الملك يلهو . الجنس الآلى . هرنانى . ترويض النمرة . الحياة نفاق . أغلال الحب . المنافق . بيت الليل . علموهم الحب . زوج مثالى . سالومى . مدرسة الارامل . برهان الحب . لوسيد . كيف نقع فى حبائلهن . حلاق أشبيلية . الهاربة من الفضيحة . رجل الاقدار . جوديث . نيكراسوف . انباء مثيرة . الدروماك . جندى محترف . الشقيقات الثلاث . مهنة مسز وارين . الجحيم هو الناس . اقوى من المال . كردينال اسبانيا
واليوم أقدم لك : ((توسكا))



توسكا !

أروع تحف
المسرح الغنائى العالمى

عن مسرحية من تأليف : "ساردو" . ألحان : "بوتشينى"

عزيزى القارىء :

التمثيلية التى اقدمها لك – فى هذه المرة – **((اوبرا))** ، تعتبر من أروع تحف المسرح الغنائى العالمى .. وهى مقتبسة عن مسرحية من تأليف ((ساردو)) ، مثلتها ((ساره برنار)) .. الفنانة التى تألق نجمها فى الربع الاول من القرن الحالى ، حتى تجاوز وهجه سماء المسرح الفرنسى لينتشر فى سماء مسارح العالم بأسره ..

ومما زاد هذه ((الأوبرا)) قوة وخلودا ، أن تولى وضع ألحانها الموسيقى الايطالى ((جياكومو بوتشينى)) ، واصنع الحان اوبرات ((مدام بترفلاى)) ، و((البوهيمية)) ، و ((مانون ليسكو)) .. وكلها ((اوبرات)) قدمناها لك فى اعداد سابقة من ((كتابى)) . وقد بلغ من ابداع ((بوتشينى)) فى الحان ((توسكا)) ، أن توارى اسم مؤلف المسرحية وراء اسمه !

والقصة – بعد ذلك – تبدع فى وصف التضحية فى سبيل الحب – من جانب المرأة – والتضحية فى سبيل الصداقة ، من جانب الرجل ..

ومن طريف ما يذكر ، أن ((توسكا)) نقلت الى العربية ، فى أوج انتعاش المسرح المصرى – فى العقد الثالث من القرن الحالى – وقامت بدور البطلة السيدة ((منيرة المهدية)) ، التى كانت ملكة الغناء فى ذلك الحين ..

شخصيات الرواية :

فلوريا توسكا : مغنية مشهورة
ماريو كافارادوسي : رسام
البارون سكاربيا : رئيس البوليس
سيزار انجيلوتى : مجرم سياسى

الجلاد – الكردينال – القاضي – مسجل العقود – الضابط – لفيف من الجنود والشرطة .. سيدات ونبلاء ومواطنون وصناع .. الخ .

الزمان : يونيو سنة ١٨٠٠
المكان : روما ..

الفصل الاول

• **نحن** فى احدى امسيات يونيو سنة ١٨٠٠ ، وقد بات « نابليون » طاغية اوربا ومصدر الرعب لاكثر ممالكها وسكانها ..

المنظر : بهو فى كنيسة « سانت اندريا الافالى » .. الى اليمين قاعة صغرى للعبادة شيدتها أسرة « أتافانتى » .. والى اليسار « سقالة » مما يستعمله البناءون والرسامون ، ومنصة للرسم عليها صورة كبيرة مغطاة بقطعة من القماش ، والى جانبها ادوات الرسام .. ثم سلة بها طعام .

يدخل الهارب السياسى « **انجيلوتى** » لاهثا ينشد مكانا يختبىء فيه من مطارديه ، بعد ان فر من سجنه .. ويتلفت حوله فيرى صورة للعذراء معلقة وسط عمود ضخم ، **يبحث تحتها فيعثر على مفتاح ، فيفتح به باب قاعة اتافانتى ويختبىء فيها ..**

يدخل « شماس » الكنيسة المسن – المنوط به خدمة

الهيكل ـ حاملا فرشاة الرسام التى فرغ من تنظيفها ، فيدهشه ان لايرى الرسام « كافارادوسى » فى مكانه فوق منصته .. وحين ينظر فى السلة فيرى محتوياتها لم تمس ، يقتنع بأنه كان واهما حين خيل اليه انه لمح الرسام يدخل منذ برهة ..

وبعد لحظات يدخل الرسام فعلا ، فيرفع الغطاء عن الصورة التى يرسمها .. واذا هى صورة « مريم المجدلية » الخاطئة ذات العينين الزرقاوين الكبيرتين وجدائل الشعر الذهبى .. واذ ذاك يتعرف الشماس فى ملامح الصورة على قسمات سيدة من كرام المترددات على قاعة « اتافانتى » ، فيعترف « كافارادوسى » بأنه قد استوحى صورة المجدلية من تلك السيدة بالذات ، لكنه لايرى فى ذلك بأسا ، وانما يأخذ فى المقارنة بين وجهها ووجه المرأة التى يحبها ، المغنية المشهورة « فلوريا توسكا » .. وهو يرفع عقيرته بأغنية مرحة !

لكن الشماس ـ وهو يغسل فرش الرسام فى اناء به ماء ـ لايكف عن تأنيبه على استلهامه صور الشخصيات الدينية من وجوه النسوة الطائشات .. وحين يرى زهد الرسام فى الطعام الذى تحويه السلة ، يرمقها هو بنظرة نهمة ، ويغبط نفسه على المنفعة التى سوف تعود عليه من قناعة الفنان الكبير .. ثم يغادر المكان ، بينما يمضى « كافارادوسى » فى مهمته ..

***

واذ تسكن الاصوات ، يحسب السجين الهارب « انجيلوتى » ان المكان قد خلا من الرجلين ، فيخرج من مخبأه .. ولاتكاد عيناه تلتقيان بعينى الرسام حتى يعرف كلاهما فى الآخر

صديقا قديما له .. فيعرض « كافارادوسي » على « أنجيلوتي » معونته الكاملة .. وفي تلك اللحظة ، يسمع صوت « توسكا » في الخارج ، فيعطي الرسام الهارب المضني سلة الطعام — التي تحوي لحما ونبيذا — كي يقوى على مقاومة مطارديه . ويهيب به ان يعود الى مخبئه في القاعة المجاورة قبل دخول توسكا .. بينما تواصل هذه مناداة حبيبها من الخارج : « ماريو ! »

ويفتح لها كافارادوسي اخيرا ، فتدفعها الغيرة الى استجوابه عن المخلوقة التي كان يتهامس معها والتي سمعت هي من الخارج خطواتها وحفيف ثيابها ! .. لكنه يطمئنها ويقبلها ، فتطلب منه أن ينتظرها عند باب المسرح في نهاية السهرة ، كي تصحبه الى « الفيللا » التي يقطنها ، فيعدها خيرا وهو شارد الذهن .. ثم يتذكر صديقه المختبيء فيستحثها على الخروج بحجة رغبته في اتمام لوحته . لكنها ترتاب في نواياه ، وخاصة حين تلحظ الشبه بين الصورة وبين وجه الليدي اتافانتي ، فتثور ثائرة غيرتها الضارية .. لكنه يفلح في تهدئتها بعد لأى . ولا تكاد تخرج ، حتى يفتح الباب لانجيلوتي ، الذي نعلم من نقاشهما انه شقيق الليدي اتافانتي ، وانها هي التي دبرت ترك مفتاح المخبأ له ، كما اعدت له في القاعة طقما كاملا من الثياب النسائية التي تعينه على الهرب ..

ونسمع طلقة مدفع قوية ، تعلن هروب احد المسجونين .. فيقترح الرسام على صديقه ان يخبئه في بئر عتيقة جافة ملحقة بمنزله ، ومنها عبر ممر سري الى سرداب مظلم ، لايستطيع « سكاربيا » وزبانيته من رجال الشرطة ان يهتدوا اليه .. ويتطوع كافارادوسي بأن يقود الهارب بنفسه الى

مخبأه الجديد ، من خلال باب القاعة الخلفى .. وهكذا يخرج الانسان على عجل ..

وبعد لحظات يدخل الشماس منفعلا يحمل انباء خطيرة . فقد هزم نابليون ! .. وسرعان ما تتقاطر الجماهير من كل صوب ، كى تستوثق من الانباء وتحتفل بالنصر العظيم .. وفجأة يدخل سكاربيا مدير البوليس - ورجاله - على غير انتظار ، فيسود المكان سكون رهيب ، ويجمد الجميع فى اماكنهم كالمأخوذين ..

واثناء التفتيش ، يعثر رجال الشرطة على مروحة تحمل الحروف الاولى لاسم الليدى اتافانتى - شقيقه الهارب - وعلى السلة الفارغة .. ولايكاد يخرج احدهم بها ، حتى يصيح الشماس - دون وعى - قائلا انها سلة الرسام ، ويبدى دهشته من العثور عليها فارغة بينما كان صاحبها قد اكد انه لن يأكل مابها !

وهكذا يظهر لسكاربيا بوضوح - وخاصة بعد ان تبين مشابهة صورة المجدلية لوجه شقيقة الهارب - أن الرسام هو الذى اعطى ما كان فى سلة الطعام لانجيلوتى ، وهو الذى اعانه على الفرار !

***

وهنا تدخل «توسكا» لتعتذر لحبيبها عن عدم استطاعتها تلبية موعد الليلة ، بسبب حفلة النصر ، فيدهشها ان لاتجده أمام لوحته .. ويستغل « سكاربيا » الماكر هذه الفرصة لاصطياد الهاربين عن طريق هذه المرأة ، فيعرض عليها المروحة كى يثير غيرتها ، زاعما انه وجدها فوق منصة الرسم ! .. فتتناولها منه فى لهفة وتفحصها ، فترى عليها رموز اسم « اتافانتى » ! ..

ونجد توسكا فى ذلك الدليل - اقوى الدليل - على ان

صديقها على صلة غرامية بامراة اخرى ، لعلها قد صحبته الى مسكنه ! .. فتتملكها نوبة غضب شديدة ، وتغادر المكان والدموع فى عينيها .. فيشيعها سكاربيا فى لباقة حتى الباب ، حيث يومىء براسه الى مساعده « سبوليتا » كى يتبعها خلسة ، ويخطره بالنتيجة فى حفلة المساء بقصر « فارنيز » ..

وفى تلك الاثناء ، تبدا اجراس احتفالات النصر تدق فى تجاوب منتظم ، ويسمع دوى مدافع قلعة سانت انجلو .. ثم يدخل الكردينال ويتجه فى مهابة نحو المذبح الأعلى ، معلنا بدء الاحتفال . واثناء مروره ، ينحنى له رئيس البوليس فى احترام وهو يخاطب نفسه : « سوف نلتقى مرة اخرى ياتوسكا ! » . فقد صح عزمه على ان يرسل كافارادوسى الى المشنقة ويرغم توسكا على ان ترتمى بين ذراعيه هو .. وسوف ينزل فى سبيلها مختارا عن جميع آماله فى السماء !

ثم يركع على ركبتيه ويشارك الحاضرين — فى حرارة — فى صلاة الشكر لله من اجل النصر ..

الفصل الثانى

• ويحل المساء ، فاذا نحن فى قصر فارنيز ، فى جناح « سكاربيا » بالطابق الاول .. نافذة كبيرة تطل على فناء القصر .. سكاربيا جالس الى مائدة يتناول عشاءه . وبين الحين والآخر يتوقف عن الاكل ليفكر فى قلق .. يسمع عزف جوقة موسيقية من الطابق الاسفل ، حيث تقيم الملكة « كارولين » احتفالا ضخما لمناسبة الانتصار على نابليون .. الجماهير ترقص ، فى انتظار حلول موعد غناء توسكا .

يستدعى سكاربيا مرؤوسه « سكيارون » ويعطيه خطابا كى يسلمه الى المغنية حال وصولها .. بينما يعود مرؤوسه الآخر سبوليتا من المهمة التى كان قد اوفده فيها ، فيقص على سكاربيا ماحدث : لقد تبع توسكا عند خروجها من الكنيسة حتى بلغت «فيللا» تكاد تخفيها الاشجار ، فدخلتها .. وبعد برهة قصيرة خرجت ، **فاقتحم سبوليتا واتباعه البيت ، وفتشوه تفتيشا دقيقا .. لكنهم لم يعثروا لانجيلوتى على أثر !**

ويغضب سكاربيا لذلك ، لكن غضبه ينقشع حين ينبئه سبوليتا بأنهم قد اهتدوا الى الرسام كافارادوسى ، والقوا القبض عليه ، واحضروه معهم !

ومن النافذة المفتوحة ، يسمع الآن لحن بدء الحفلة ، فنعلم ان « توسكا » قد وصلت ، وانها فى الطابق الأسفل ، حيث توجد قاعات الأستقبال الملكية . وبناء على امر سكاربيا يحضر الشرطة كافارادوسى مخفورا ، يتبعه الجلاد «روبرتى» وقاض معه كاتبه ..

ولا يخفى الرسام شعوره بالحنق والتحدى ، لكن سكاربيا يظهر فى البداية شيئا من الحلم والدماثة .. وبين لحظة واخرى ، يسمع صوت توسكا تغنى فى الطابق الاسفل . واخيرا يغلق سكاربيا النافذة فيحتجب كل صوت .. ويبدا فى استجواب كافارادوسى بصوت صارم : **« مرة اخرى واخيرة ، أسالك : اين انجيلوتى ؟ »**

وفى هذه اللحظة تقبل توسكا ، منزعجة على اثر الرسالة التى تلقتها من سكاربيا .. فلا تكاد ترى حبيبها حتى تعانقه فى حرارة وانفعال .. وخلال انفاسها اللاهثة يوصيها هامسا بأن لاتبوح بحرف عما رات فى الفيللا !

***

وبأمر سكاربيا بنقل كافارادوسي الى غرفة التعذيب المجاورة ، لارغامه على الاعتراف .. ثم يبدأ حديثه مع توسكا فى هدوء واحترام ، فتقرر انها لم تمكث فى «الفيللا» غير فترة وجيزة . ولكن سكاربيا يكون قد بنى على المعلومات التى ادلى اليه بها تابعه « سبوليتا » ، أن « توسكا » حين ذهبت الى « الفيللا » لم تفاجىء حبيبها متلبسا مع غريمتها المزعومة اتافانتى - كما اوحت اليها غيرتها وشكوكها - بل وجدته يدبر الخطة لاخفاء انجيلوتى .. ويرى فى لقائها العاطفى الحار لحبيبها الآن تأييداً لهذا الاستدلال .

وتجيب المرأة فى البداية على اسئلة سكاربيا فى هدوء .. لكن اجاباتها لاتلبث ان تتخذ مظهراً عصبيا ، حين يلح ويلحف فى سؤالها عن الأشخاص الذين رأتهم فى الفيللا .. فيستدير اليها آخر الامر ، قائلا - بصرامة وحشية - ان رجاله لن يكفوا عن تعذيب كافارادوسي حتى ينتزعوا منه اعترافا شاملا ..

وفى تلك اللحظة ، تسمع من الغرفة المجاورة آهة متوجعة، فتناشد توسكا محدثها ان يرحم حبيبها .. لكنه يشترط عليها فى مقابل ذلك ان ترشده الى مكان اختفاء انجيلوتى .. وتتوالى الآهات الصادرة من غرفة التعذيب ، حتى تنهار توسكا تحت وطأتها ، فتنخرط فى البكاء بحرقة وعصبية ، ثم تتهالك على اريكة قريبة ..

لكن قلب «سكاربيا» لايرق للتعسة ، فيظل العاتى جامداً صامتا حتى يلمح بوادر تخاذلها .. واذ ذاك ينهض الى الباب ويشير الى الجلاد طالبا مضاعفة اجراءات تعذيب المتهم .. فتمزق الهواء صرخة الم واحدة طويلة ، تعجز معها توسكا عن احتمال اوجاع حبيبها المتزايدة ، فتضطر

الى التفريط فى توصيته اياها ـ من بين اسنانه المطبقة ـ بان تلزم الصمت المطلق .. وهكذا تبوح لسكاربيا ملهوفة ، وبصوت خائر : « البئر .. فى الحديقة ! »

ويحمل « كافارادوسي » على الفور من غرفة التعذيب الى حيث يلقى على اريكة ، فتركع توسكا بجانبه وتمطره بدموعها وقبلاتها .. وفى هذه الاثناء ينصرف الجلادوالقاضى والكاتب ، بينما يبقى سبوليتا وجنوده فى مؤخرة المكان اطاعة لاشارة من سكاربيا ..

***

ولا يلبث كافارادوسى ان يسأل محبوبته ـ بتأثير من اخلاصه القوى لصديقه ، وبالرغم من آلامه المبرحة ـ عما إذا كان قد بدر منه اثناء تعذيبه قول يستدل منه على موقع المخبأ المنشود ؟ .. فتطمئنه «توسكا» من هذه الناحية ، فى الوقت الذى يصيح فيه سكاربيا بمرؤوسه سبوليتا بصوت عال آمر : « فى البئر التى فى الحديقة .. هيا ياسبوليتا ! »

ومن كلمات سكاربيا ، يعلم كافارادوسى ان توسكا قدباحت بالسر اثناء تعذيبه فأرشدت القوم الى مكان اختفاء انجيلوتى .. فيغتم . وفجأة ، يدخل القاضى سكياروون مضطربا ، ويعلن انه يحمل انباء سيئة .. فان الانتصار الذى يحتفلون به قد انقلب الى هزيمة ، وقد انتصر بونابرت فى موقعة (مارنجو) .. فيثير النبأ حماسة كافارادوسى ، ويصيح برئيس البوليس : « فلترتعد خوفا ياسكاربيا .. ايها السفاح المرائى ! »

لكنه بذلك يسجل صك وفاته ، فان سكاربيا يأمر القاضى والجنود بأن يقتادوه تمهيدا لشنقه ! .. وبعد خروجهم يجلس الماكر الى سالبة لبه توسكا ، يساومها على انقاذ

حبيبها من الموت .. فيملأ لها كأسا بالنبيذ ويدفعها اليها ، فتسأله فى ازدراء : « وما الثمن الذى تطلبه ؟ » .. لكنه ـ دون أن يجيب ـ يملأ لنفسه الكأس الاخرى فى برود مثير .. انها « هى » الثمن الذى يطلبه لانقاذ حبيبها !

وتجفل المرأة مذعورة من فداحة الثمن ، ولا تخفى بغضها الشديد للرجل الذى يطلبه .. لكن اجفالها ورعبها يزيدانها سحرا وجمالا فى عينيه .. وتسمع دقات طبول من بعيد .. طبول الفصيلة التى سوف تقود كافارادوسى الى حتفه !

ويوشك سكاربيا ان يفرغ من عشائه ، فيتناول تفاحة ـ فى هدوء ـ ويقطعها الى اربعة اجزاء ، وهو يرمق ضحيته بين لحظة واخرى ، بنظرة فاحصة تحاول قراءة افكارها ..

ويستبد بالتعسة الخوف ، ولا تجد من تستنجد به فى محنتها غير ربها ، فترفع اليه صلاتها الضارعة وتغنى اغنيتها المشهورة : « فى سبيل الموسيقى والحب عشت .. لم أوذ قط انسانا .. فلماذا يارب تركتنى فى ساعة حزنى وبليتى ؟ »

وتسمع طرقة على الباب ، ثم يدخل سبوليتا ، فيبشر رئيسه بانه قد داهم السجين الهارب ـ انجيلوتى ـ فى مخبأه بالبئر .. فلما لم يجد هذا سبيلا الى الفرار ، ابتلع سما ومات !

ثم يضيف الضابط : « اما الآخر ـ يقصد كافارادوسى ـ فهو فى انتظار قراركم الاخير » . وهكذا تبيت حياة معشوق توسكا رهن تصرف الرجل الذى افصح لها ـ منذ هنيهة ـ عن الطريقة الوحيدة لانقاذ هذا الحبيب ..

***

ويسألها سكاربيا فى نعومة : « ماقولك ؟ » .. فتهز رأسها ـ مضطرة ـ بالموافقة .. ثم تدفن رأسها فى وسادة الاريكة ، وتسيل دموعها .. تبكى عارها !

ولا يلبث سكاربيا ان يشرح لتوسكا خطته لانقاذ كافارادوسى ، فيقرر انه لامفر من ان تجرى عملية اعدام صورية ، محافظة على المظاهر ، قبل ان يتسنى للعاشقين الفرار من روما .. ثم يستدير الى مرؤوسه قائلا ان الاعدام يجب أن يصطنع **« كما فعلنا فى حالة السجين بالميرى .. اتفهم ؟ »** .. فيجيب سبوليتا وهو يضغط على مخارج الالفاظ مؤكدا : **« بالضبط مثل حالة بالميرى ! »**

ثم ينصرف ، فيستدير سكاربيا الى توسكا قائلا : « الرين؟ لقد حافظت على وعدى ! » .. واذ ذاك ، تطلب توسكا ـ اولا ـ جواز مرور يخول لها ولحبيبها حق الخروج من روما **آمنين** .. فيتجه رئيس البوليس نحو مكتبه كى يجيبها الى طلبها ، بينما ترفع هى الى شفتيها ـ بيدين مرتجفتين ـ كأس الخمر التى ملأها لها سكاربيا ، عسى ان تجد فى الخمر ما يشد عزمها على التضحية .. وفيما تفعل ذلك ، **تلمح السكين الحادة المدببة التى قطع بها التفاحة ونزع قشرتها ـ فتسترق نظرة سريعة الى الرجل تستوثق بها من انه مايزال منهمكا فى الكتابة ـ ثم تمد يدها فى حذر الى السكين فتتناولها . وتخفيها وراء ظهرها !**

ويفرغ سكاربيا من اعداد التصريح بالمرور ، فيطوى ورقته ، ثم يتقدم نحو توسكا فاتحا ذراعيه يبغى عناقها ، وهو يهتف جذلا : « توسكا .. اخيرا صرت ملك يمينى ! » .. لكنها بدلا من ان تستجيب لعناقه ، تطعنه بحركة واحدة سريعة ، قائلة : « بل هكذا يكون عناق توسكا ! »

ويترنح ، ثم يسقط .. ويحاول جاهدا ان ينهض ، فيبذل محاولة اخيرة .. لكنه يسقط على ظهره .. ميتا !

وتتجه توسكا ـ على عجل ـ الى المائدة ، حيث تغمس طرف المنشفة فى الماء ، وتغسل بها اصابعها ، وهى تلقى

نظرات متقطعة الى الجثة الملقاة وراءها .. ثم تقف لحظة امام المرآة كى تصلح شعرها وهيئتها ، وتهرع الى المنضدة لتأخذ جواز المرور ، فلا تجده ! .. **وبعد أن تفتش عنه فى عدة اماكن ، تعثر عليه آخر الامر بين اصابع سكاربيا الميتة ، فترفع ذراعه ، وتستخلص الورقة – فى حذر – من بين اصابعه ..** ثم تفلت الذراع اليابسة من يدها – لتسقط على الارض ثقيلة جامدة – بينما تعمد هى الى الورقة فتخفيها فى طيات صدرها ، وتلقى على الجثة نظرة اخيرة ، ثم تطفىء الشموع التى فوق مائدة العشاء ..

وفيما هى تهم بالخروج ترى الشمعة التى فوق المكتب موقدة ، فتوقد بها اخرى ، وتضع الشمعتين فى خشوع .. واحدة الى يمين راس سكاربيا وواحدة الى يساره . ثم تتناول صليبا – كان معلقا على الحائط – فتركع ، وتضعه على صدر الميت .. وانها لكذلك ، تسمع دقات طبول بعيدة – طبول فرقة الاعدام – فتنهض وتتسلل من الغرفة فى سكون ..

الفصل الثالث

• **زنزانة** فى سجن سانت انجلو .. الى اليسار نافذة صغيرة ، بجوارها منضدة ومقعد خشبى ، وعلى المنضدة مصباح ، وسجل ضخم ، وادوات للكتابة .. والى اليمين باب يفضى الى درجات سلم تقود الى فناء السجن .. ومن بعيد ، يرى مبنى الفاتيكان وكاتدرائية سان بول .. والسماء الصافية لا تزال مرصعة بالنجوم ، فنحن قبيل الفجر ، واجراس الماشية – الذاهبة الى مراعيها – تملأ الهواء من بعيد ، ثم تقترب وتعلو .. راع يعزف على مزماره .. ضياء اغبر قاتم يبشر باقتراب الفجر ..

فرقــة الاعدام ـ التي تقود كافارادوسى ـ تهبط سـلم الزنزانة ، الى حيث يستقبلها حارس يسلمه جاويش الفرقة ورقة يكتب بمقتضاها شيئا فى سجل السجن ، ثم يذيله الجاويش بتوقيعه ..

ويهبط الجميع سلما اخرى ..

وينبعث رنين جرس ، فيقول الحـارس لكافارادوسى : « لاتزال فى عمرك ساعة ! »

ويفيض الشجن بالفنان ، فيدفن وجهه بين راحتيه . بينما يقود سبوليتا والجاويش «توسكا» ـ التى اقبلت على عجل ـ الى حيث يوجد السـجين .. فلا تكاد عيناهـا تبصران حبيبهـا المنكفىء على ذراعيه ، حتى تندفع نحوه ، فترفع وجهه عن راحتيه ، وتريه نفسها . ثم تطلعه على جواز المرور الذى حصلت عليه لكليهما فيسألها فى انزعاج : **«وما الثمن؟»**

وتروى له هامسة ماطلبه منها سكاربيا ، وكيف تظاهرت بالقبول حتى حانت لها فرصة مناسـبة فانتقمت لشرفها وقتلته . فيتنـاول كافارادوسى يد حبيبتـه بين يديـه فى شغف ، ويرتفع صوتهما معا باغنية الشـكر على الخلاص : **« أواه ايتها اليدان الرقيقتان الرحيمتان .. لم احس قسوة شوكة الموت الا اشفاقا عليك ياغرامى .. ! »**

وتوضح توسكا لحبيبها ما تم التفاهم عليه ، من ضرورة اجراء عملية اعدام صورية ، ووجوب تظاهره ـ بمجرد اطلاق النار ـ بانه اصيب ، فيتظاهر اذ ذاك بالارتماء على الارض بلا حراك .. ويظل جامدا كالميت حتى تناديه هى ..

ويضحكان من طرافة الخدعة التى سيمثلانها . ولا تلبث أن تصل فرقة اطلاق النار الى ساحة التنفيذ .

***

ويعرض انجاويش ان يعصب عينى كافارادوسى ، ولكن هذا يرفض ، ويدير ظهره نحو الحائط ، ووجهه الى الجنود المتراصين .

ويطلق الجنود النار .. ويسقط كافارادوسى .. وتحدث توسكا نفسها معجبة : « يالبراعته فى التمثيل ! » . ثم يلقى الجنود غطاء على « جثة » المحكوم عليه .. وتبدأ الفرقة سيرها ، عائدة الى مراكزها ..

وتهمس « توسكا » لحبيبها ان لايتحرك بعد .. حتى اذا مات صدى خطوات الجنود المبتعدة ، هتفت به : «والآن .. انهض ! » .. لكنه لايتحرك ! .. امن الممكن ان لايكون قد سمعها ؟

وتزداد منه اقترابا ، وتهيب به : « ماريو ، انهض بسرعة كى نفر .. قبل فوات الاوان ! .. انهض ، انهض ياماريو ! »

وترفع عنه الغطاء ، فاذا المفاجأة تتكشف لها ..

لقد خدعها سكاربيا ، واوصى مساعده ان ينفذ فى المتهم اعداما حقيقيا لا صوريا .. اذن فهذا ماكان يقصده حين امره باتباع سابقة السجين « بالميرى » ؟ !

وتتعالى الصيحات من اقصى فناء السجن .. لقد اكتشف مصرع سكاربيا ، وجاء جنوده يطاردون القاتلة ! .. **ولكن ماذا بقى لتوسكا فى الدنيا كى تحرص على حياتها ؟**

وقبل ان يبلغ الجنود مكانها ، تندفع باقصى سرعتها نحو سور السجن المطل على الهاوية .. وتلقى بنفسها الى الفضاء السحيق !

(ستار)

الخالدون

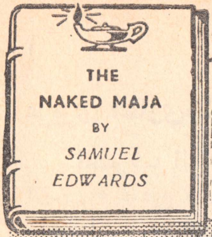


عظماء .. فى غير السياسة

عزيزى القارىء ..

فى الأعداد السابقة قدمت لك فى هذا الباب قصص حياة :
« لويس باستير » .. و« اميل زولا » .. و « ماركونى » .. و « تشايكوفسكى » .. و « مصطفى كمال » .. ثم « شوبان » .. و « جى دى موباسان » .. و « مختار » و « تشارلس ديكنز » و « بيتهوفن » و « موسولينى » و « شيلى » .. و « بلزاك » و « بودلير » و « دستويفسكى » و « جيته » و « موليير » و « كونفوشيوس » و « الكسندر ديماس » و « ميكيل انجلو » ثم « ارسطو » و « اينشتين » و « فولتير » و « بيكاسو » و « البرت شفايتزر » وغير هؤلاء من الخالدين فى شتى ميادين الأدب ، والطب ، والاختراع ، والفنون .. الخ

وفيما يلى اقدم لك قصة حياة وغرام الفنان الاسبانى « جويا » ..



"الماجا" العارية !

قصة الفنان الاسبانى الثائر "فرانشيسكو جويا"

والمرأة التى ألهمته ثورات .. فى الفن ..

والحب .. والسياسة !

للكاتب والمؤرخ الروائى :

صمويل ادواردز



تلخيص : رمسيس شكرى

عزيزى القارىء :

انصرف الرأى العــــام فى انجلترا ، فى الأسابيع الاخيرة ، عن متابعة الاحداث الدوليــة ، ليتابع حدثا داخليا .. **سرقة لوحة ، من المتحف البريطانى !**

واللوحة تمثل « دوق ولنجتون » .. ولكن اجلال الشعب الانجليزى لذكرى هذا القائد ، لم يكن السبب الرئيسى لكل هذا الاهتمام ، فقد طغى عليـــه سبب آخر ، أهم وأعظم .. ذلك هو : **ان اللوحة من ريشة فنان اسبانيا الخالد « فرانشيسكو جويا » !** .. فان لدوق ولنجتون لوحات كثيرة ، ولكن .. ليس بينها سوى لوحة واحدة بريشة « جويا » !.. ومن هنا كانت هـذه اللوحة ــ فى نظر شعب يتطلع الى الفن بنوع من التقديس والاكبار ــ أثمن من ان تقدر بمال !

فمن هو « فرانشيسكو جويا » ، الذى اعتبر ضياع لوحة من ريشته نكبة تثير الاهتمام ؟

ان الصفحات التالية تحدثنا عن « جويا » هذا .. عن شخصيته .. وعن نزواته .. وعن غرامياته .. وعن عبقريته .. وعن اخطائه .. ثم ، عن الحب الذى رد اليه وعيه ، واضاء له الطريق لكى يعرف نفسه ، وهـداه ــ أخيرا ــ الى أن يكرس ريشته لتحرير وطنه (اسبانيا) من الاحتلال الفرنسى ، بعد ان خـدع يوما بشخصية نابليون بونابرت ، وبرنين مبادىء الثورة الفرنسية ، فخيل اليه أن فى احتلال نابليون لبلاده ، تحريرا لهذه البلاد !..

تناقض؟!.. لا بأس ، لنقرأ القصة كى تجد التفسير الذى يبرره !

- ١ -

هبت ريح نظيفة من العلم والمعرفة على اوروبا ـ فى القرن الثامن عشر ـ فمحت عن العقول ما كان يرين عليها من غبار الجهل ، وسمحت للضوء بان ينفذ الى الاذهان ، مما استحق معه ذلك العصر ان يلقب « عصر النور » .. **ولكن هذا النور لم يجد سبيلا ـ فى بادىء الأمر ـ الى اسبانيا ، اذ شاء حكم « شارل الرابع » أن يحتمى منه بظلال محاكم التفتيش ..** وحاول أن يبقى البلاد فى حمأة الجهل والتأخر ، رازحة تحت طغيان طبقة النبلاء التى كان أفرادها يتمتعون بسلطات غير محدودة ..

على أن هذه الجهود لم تقو طويلا على صد الهواء النقى ، والشمس الصافية ، فما لبثا أن تسربا الى البلاد .. وما أن سرى نقاؤهما ودفئهما الى عقول الناس ، حتى سرى معهما الى النفوس تململ من الاوضاع ، وحنين الى الحرية .. **وكان الادباء والفنانون فى طليعة حملة المشاعل ـ كشأنهم دائما ـ** فسرعان ما انتشرت آراؤهم الصريحة الجريئة فى مختلف المدن ، من (مدريد) ، الى (برشلونة) ، الى (ساراجوسا) ـ عاصمة اقليم (اراجوان) ـ حيث كان يقيم رسام شاب ، يدعى **« فرانشيسكو جويا »** .

وكان « جويا » يقطن غرفة صغيرة فى قمة مبنى لم يكن يبعد كثيرا عن كاتدرائية « متروبوليتان ديل بيلار » ، الكاتدرائية الرئيسية للمدينة .. ولكن القرب من مكان التعبد ، لم يصرف « جويا » عن أن يقضى الشطر الأكبر من وقته فى الرقص والشراب ، فى حانات المدينة ومواخيرها ، برفقة الراقصات وفتيات « الماجا » .. وهن صنف من الاناث ، كرسن حياتهن لايناس طلاب اللهو .

***

وفى ذات يوم ، أقبل « مارتن زاباتر » على مسكن « جويا » .. وكان من ادباء المدينة المشهود لهم بروعة الانتاج فى الفلسفة والتعليق على الأحداث الجارية فى الصحف ، وقد ارتبط بجويا برباط وثيق من صداقة مخلصة ، كانت تجعله يعتبر نفسه فى مركز الأخ الأكبر له ، فكان لا يفتأ ينصحه بأن يكف عن اسرافه فى اللهو ، **خشية ان يقتل المجون ما كان يؤمن بتوفره لديه من مواهب ونبوغ .**

ولقد أثاره — فى ذلك اليوم — اصرار الرسام الشاب على مجونه ، فراح يتأمله وهو يتخلل — بأصابعه الرقيقة — شعره الفزير الفاحم ، الذى كان ينسدل على عنقه ، ثم قال له : « عيبك انك لا تصغى لنصح ، وتعتقد انك ما دمت تمارس الرسم ، فمن حقك ان تنساق لكل ماتمليه عليك نزواتك .. ولكنى أقول انك وصمة عار للفن .. انظر الى نفسك ! »

وألقى « جويا » نظرة على ثيابه ، ثم قال : « لقد ابتعت معطفى بنقود كسبتها من مصارعة الثيران .. وبقية ثيابى من رهان فزت به فى الحانة ! » .. فصاح «زاباتر» فى مرارة : **« مصارعة الثيران والمقامرة ؟ !.. أهذه وسائلك الى تنمية مواهبك يا « مايسترو » فرانشيسكو جويا ؟ » ..**
وصعد الدم الى وجنتى الشاب ، اذ لمس سخرية صديقه ، فان لقب « مايسترو » لم يكن يطلق الا على أعضاء أكاديمية مدريد . وأسلم رأسه الى راحتيه ، ثم قال معاتبا : « لماذا تصر على تأنيبى وتوبيخى ؟ »

— لأنك لا تمل صحبة فتيات «الماجا» فى حانة «ديابولو»، ولا تكف عن المقامرة مع الضباط ، وعن مصارعة الثيران ..

— ولكنى لا أجد فى ذلك ما يعطل انتاجى الفنى !

ـ حقا ؟ .. لقد أخبرنى « مارتينيز » انك لم تمسك الفرشاة منذ أن انتهيت من لوحة المدفع !

ـ فقط أعطنى وقتا ، وسوف ..

ـ ليس للفنان الخلاق ما يبيعه سوى وقته .. ولن تستطيع أن تستعيد تلك الشهور التى تنفقها هكذا هباء !.. اننى واثق من أنك ـ لو عمدت الى اتباع النظام فى حياتك ـ لاستطعت أن تغدو مرموقا ، والا .. فلن ترتفع يوما عن فنان من الدرجة الثالثة ، يكتسب رزقه من تصوير صغار الضباط !

ـ ليس هذا صحيحا !

ـ اننى أدرك أن هذا ليس هدفك . غير أنه ينقصك أمران لا بد من أن تتعلمها : **انك لا تدرك معنى العاطفة ، ثم انك لم تخبر الألم .. فاذا ما مررت بهاتين التجربتين ، صار فى وسعك أن تغدو فنانا حقيقيا ! !**

وما أن انصرف (زاباتر) ، حتى أخذ « جويا » يستعيد نصائحه .. وشعر فى قرارة نفسه بأن صديقه كان محقا ، وان الواجب عليه أن يبدأ فورا فى العمل . غير انه كان يكره العمل فى ضوء الشموع ، وكان فى تلك الليلة يشعر بالقلق ، فلم يلبث أن شد حزام سيفه حول وسطه ، وارتدى قبعته ذات الريشة فى زاويتها اليمنى ، ثم يمم صوب حانة (ديابولو) !

***

وكانت الحانة مزدحمة بروادها ، غير أن « فرانشيسكو » وجد منضدة شاغرة . وما أن جلس حتى طلب لنفسه مشروبا ، وأخذ يذرع المكان بنظراته عله يجد أحد معارفه . وفجأة ، استرعى انتباهه نبيل شاب يدعي « دون لويز مينوزا » ، كان يجلس الى منضدة مجاورة برفقة احدى فتيات « الملجا » . وكان « دون لويز » ملازما فى فرقة المشاة

الثالثة ، كما كان عمه كبير قضاة محاكم التفتيش ، مما جعل سكان (ساراجوسا) ينظرون اليه على أنه من أعداء الشعب .

وأخذ « فرانشيسكو » ينظر فى اهتمام الى الفتاة التى كانت تجالس الضابط .. كانت باهرة الفتنة ، برغم انها كانت تنتمى الى احقر الطبقات . وكان قميصها قصير الأكمام ، مفتوح الصدر ، يكشف عن نحر ناصع البياض . وادركت الفتاة اهتمام « جويا » بها ، فما أن تطلع رفيقها بعيدا ، حتى أغدقت على الشاب نظرة فتانة. **ولكن الضابط لمح ابتسامتها للغريب ، فقال لها فى غضب : « بياتريس .. يحسن بك أن تركزى اهتمامك على ! »**

واذ ذاك ، ضحك « جويا » بصوت عال ، ثم نهض متجها الى مائدة الضابط وقال : « لبياتريس الحق فى أن تجالس من تشاء . واعتقد أنها تفضل صحبتى عن صحبتك » . واذ رأى الضابط أن غريمه كان يحمل سيفا ، رماه بقفازه ، فأسرع الخدم وأزاحوا المناضد استعدادا للمبارزة ، والتف الرواد الى جوار الجدران يتطلعون فى اهتمام . أما « بياتريس » فقد أثملها الشعور بالفخار ، فرفعت صدرها مختالة ، ووقفت فى تيه وقد وضعت يديها فوق ردفيها ، وأخذت شفتاها تختلجان .

وكان غريم « جويا » يجيد استخدام السيف ، لكنه كان ـ اذ ذاك ـ فريسة للغضب والغيظ ، فلم يمض وقت طويل حتى وجد جويا فى صدر غريمه هدفا سهلا اخترقه بحسامه . ووقف الضابط فى مكانه ساكنا ، والدم يتدفق من جرحه ، ثم ما لبث أن سقط على الأرض ، وقد بان الألم على وجهه . فمسح جويا سيفه بقميصه ، وهو ينظر الى غريمه الملقى على الأرض بلا حراك. **وفى تلك اللحظة ، سمع**

صوت « بياتريس » تهمس فى أذنه قائلة : « اتبعنى ! »

وقادته الغانية خلال أزقة ملتوية وشوارع خلفية لم يشاهدها من قبل . حتى اذا ما أدركها التعب ، توقفت فجأة وأخذت تلهث تلهث أعياء . فسألها « جويا » أن تدله عن الطريق التى تؤدى به الى منزل « مارتن زاباتر » ، ثم أصر على أن يفترقا هناك ، وأفرغ كيس نقوده المليء بالقطع الفضية فى يديها .

وكان الظلام يخيم على منزل صديقه ، ولكنه راح يطرق الباب فى رجاء .. واذا « زاباتر » يفتح الباب ، وهو فى كامل ثيابه . وما أن عرف شخصية « جويا » حتى قاده الى الداخل ، وهو يقول : « كنت أتوقع قدومك .. ان المدينة تتحدث عن فعلتك الجنونية ! » . **وأنبأه بأن « دون لويز » لم يمت ، وان عمه قد استعدى السلطات على الرسام الشاب ، فأصبحت سجون محاكم التفتيش فى انتظاره !**

وقال « فرانشيسكو » فى ارتياح : « ولكن ، ما دام دون لويز لم يمت ، فلن يستطيعوا أن يلفقوا لى تهمة قتله ! » . فأجاب صديقه بقوله : « باكو .. يخيل الى أحيانا انك لن تتعلم شيئا البتة .. أسمعت يوما أن احدى محاكم التفتيش قد أصدرت حكما عادلا ؟ .. يجب أن تغادر (ساراجوسا) الليلة ، فلا تعود ثانية ! » .. وحملق « جويا » فيه فى حيرة ، بينما استطرد زاباتر قائلا : « حاول أن تصل الى مدريد .. وهناك ، اتجه فورا الى منزلى . وسأبقى هنا يومين قبل أن أتبعك .. وسأنطلق الى هناك رأسا ، ومن ثم فسوف أسبقك فى الوصول » . ودفع الى صديقه بثياب ليرتديها بدلا من ملابسه ، ثم لوث وجهه بالفحم . وبعد أن انتهى من عملية التنكر التى أجراها له ، قال : « لست أعلم لماذا أهتم بأمرك . لقد أظهرت فى عملك بعض ملامح العبقرية ، ولكنك لن تغدو فنانا حتى تكتشف روحك ! »

***

ما أن انطلق « جويا » فى طريقه ، وبارح حدود المدينة ، حتى اكتشف أنه أعطى كل نقوده لفتاة « الماجا » ، وأصبح خالى الوفاض . فكان عليه أن يعمل ــ خلال طريقه ــ فى كل مزرعة يصادفها ..

واكتشف خلال رحلته ، أن السنوات التى قضاها فى (ساراجوسا) أنسته ما انطوت عليه نفوس عامة الشعب والفلاحين من نبل .. كما تبين ما كان يعيش فيه النبلاء من بذخ ، بينما كانت بقية الشعب ترزح تحت وطأة الفقر والعوز ..

ودامت الرحلة أشهرا .. فلما أقبل الخريف ، لم يكن قد تجاوز ــ فى سيره ــ حصن (جوادا لاجارا) القديم .. وهناك ، عمل خادما فى حظيرة خيل تابعة لفندق كانت تؤمه صفوة النبلاء .. وكان دوق « البا » ــ الطاعن فى السن ــ بين النزلاء ، فما لبث « فرانشيسكو » أن سمع عن حياة الرجل ، **وكيف أنه لم يكن يعنى فى الحياة بغير الصيد ومطاردة العذارى الصغيرات !**

وتصادف أن ذهب « فرانشيسكو » ــ ذات يوم ــ الى بئر فى مؤخرة الفندق ، فملأ دلوا بالماء .. وبينما كان يبحث عن ركن منعزل ليغتسل ، أبصر فتاة صغيرة تركض نحوه ، وعلى أساريرها ذعر قاتل ، وقد انزاح قميصها عن أحد كتفيها كاشفا عن ثديها .. وعرف فيها الوصيفة التى عينت بالفندق بمناسبة مقدم الدوق .. ثم أبصر الدوق الكهل يعدو خلفها ، فى حيوية لا تلائم سنه ، **فلم يتردد « جويا » فى أن يعترض طريقه ، فيصطدم به متعمدا .. وسقط الاثنان على الأرض ، والدلو فوقهما .. وكان جزاء « الخادم ! » أن فصل من الفندق فورا ..**

وآوى الى غرفته يحزم متاعه القليل ، ليستأنف رحلته .. واذا به يسمع طرقا خفيفا على الباب ، ثم أقبلت الوصيفة ، فرمقته فى امتنان ، وقالت : **« جئت أقدم لك شكرى ، وأهبك ما عجز الدوق عن شرائه ! »** .. ومع انه لم يكن قد خالط النساء من أمد غير قصير ، الا أنه لم يشعر برغبة فى أن يستغل « كرم ! » الفتاة .. وفجأة ، ألفى نفسه يهمس لها : « لا تتحركى ! » . ثم أمسك بقلم الفحم ، وصفحة من الورق ، وراح يرسمها وهى تزيح قميصها لتكشف له عن مفاتنها .. ودفع اليها بالرسم قائلا : « احتفظى به تذكارا للمناسبة التى أعادت الى فرانشيسكو جويا ايمانه بالشعب ! »

- ٢ -

وبلغ مدريد أخيرا ، فألفاها مليئة بالمتناقضات ، تثير فى النفس اعجابا واشفاقا ، وتفيض جمالا وقبحا ، ويعيش فيها الأغنياء فى نعيم باذخ بينما ينسحق عامة الشعب تحت أعباء الفقر ..

ولم يلبث « جويا » أن اختلط بأهل الفن ، فسمع منهم سيرة الملك شارل الرابع ، وزوجته « ماريا لويزا » ، ورئيس وزرائه « دون مانويل جودوى » ، الذى قيل أنه كان عشيق الملكة ، وان واحدا ـ على الأقل ـ من أبناء الملك كان ثمرة هذه العلاقة التى أطلقت يده فى الحكم ، فكان المسيطر الفعلى على البلاد ..

وأخذ « فرانشيسكو » يقضى فترة الصباح متتلمذا على الفنان المشهور « مارتنيير ديل باراكو » ، وينصرف بعد الظهر الى الرسم ، حتى أن « زاباتر » ـ الذى كان يشاركه المسكن ـ لم يعد يجد فى حياته مجالا للانتقاد . ولم يستبق الرسام الشاب من هواياته السابقة ، سوى التردد على

حلبات مصارعة الثيران .. الى أن قدر له أن يتعرف على أخت زميل له ، كانت بارعة الجمال ، وتدعى « جوزيفا » ..

وفى ذات مساء ، استبد به الاعجاب ، فدعاها الى أن تتمشى معه فى الحديقة ، وراح يبثها آماله العراض ، وحلمه بأن يصبح يوما رسام البلاط الملكى .. وفجأة ألفى نفسه يضمها الى صدره ، ويطبق بشفتيه على شفتيها .. **وعندما استطاعت الفتاة أن تفلت من ذراعيه ، وأن تدفعه عنها ، ابتدرها قائلا : « أرجو – بكل تواضع – أن تقبلينى زوجا ! »**

وكانت « جوزيفا » متزمتة فى استقامتها ، متسامية بعواطفها ، ولكن حرارة المفاجأة أذابت تزمتها .. فتزوجا ! !

***

على أن هذا الزواج كان مقدرا له الفشل من البداية ، اذ أن المسئوليات الجديدة اضطرت « فرانشيسكو » الى أن يرسم أفرادا كان يرفض – من قبل – أن يخلدهم بريشته ، مما أوحى اليه بأن الزواج كان سببا فى أن يخالف مبادئه .. كما أن « جوزيفا » كانت تثور كلما وفد على مسكنها أحد أصدقاء زوجها من مصارعى الثيران ، مصطحبا احدى فتيات « الماجا » ..

وما كان هذا كله ليحطم الزواج تماما ، لو لم يلمس « فرانشيسكو » فى زوجته نفورا من العلاقة الجنسية ، نتيجة التزمت التى نشأت عليه ، والذى كان يصور لها هذه العلاقة – المشروعة بين الزوجين – لونا من التبذل والتردى .. ثم جاءت الطامة الكبرى ، يوم أراد « جويا » أن يسترضى زوجته ، فرسم لها لوحة – أطلق عليها اسم **« الشمسية »** – وعلقها فى قاعة الاستقبال .. فما أن رأتها « جوزيفا » حتى ثارت وبكت ، اذ رأت فى تعمده رسمها وصدر ثوبها مفتوح ، اهانة لها .. وعبثا حاول أن يقنعها

بأن الجمال نعمة من الخالق ، يجب أن يراها كل الناس ، وأن يخلدها الفن ، فقد كان جواب جوزيفا : « لا تكن متبذلا ! .. لقد صاحبت فتيات « الماجا » طويلا ، ولعلك تخيلتنى منهن !.. أترغب فى أن تعرض جسدى على الملأ ؟ »

وقال – أخيرا – يسترضيها : « لا بأس .. ما دامت اللوحة لم تحز رضاك ، فسأبيعها ! ». **واذ ذاك اشتدت ثورتها وتناولت سكينا ، وانقضت على اللوحة تحاول أن تمزقها** .. واعترض جويا طريقها ، فصاحت فيه : « لن تجرؤ على بيعها ، فلست أسمح لك ! .. أترغب فى أن يتأملنى الأغراب ، كأننى من فتيات الماجا ؟ » .. وهددته بأن تبرح داره فلا تعود اليها . وكان الغضب قد استبد به ، فانحنى لها فى سخرية ، ثم سار الى الباب . حتى اذا بلغه ، التفت اليها قائلا : « من تراك تكونين حتى تتعالى بهذا الشكل على ؟.. اذا قدر لأحد أن يتذكرك فى الدنيا ، فلن يكون هذا الا لأنك كنت يوما أنموذجا (موديل) لفرانشيسكو جويا ! »

* * *

وفيما كان يهيم فى شوارع المدينة ليفثأ غضبه ، التقى بصديق ممن كانوا يشاطرونه التردد على حلبات مصارعة الثيران فى (ساراجوسا) ، ويدعى «جوانيتو» ، فاحتفى به ، وانطلقا الى حانة راحا يعبان فيها من شراب «الكالفادوس» ، الذى تشعل كأس واحدة منه النيران فى أشد الدماء برودة .. ثم دعا « جوانيتو » صاحبه الى مشاهدة حفلة لمصارعة الثيران ، فى ساحة كان قد تولى ادارتها مؤخرا .

واحتلا مقعدين وسط الصفوف التى كانت مخصصة لعلية القوم .. ومع أن « جويا » كان قد أفرط فى الشراب ، الا أن الغضب – الذى ظل يراوده – حفظ له توازنه . فما

أن استقر به المقام ، حتى راح يتأمل وجوه المتفرجين ، وما ارتسم عليها من تعبيرات ، وقد راودته رغبة فى أن يرسمها .. وفجأة لمح « دوق البا » فى احدى المقصورات ، **ولكن نظراته سرعان ما تحولت عن الوجه المكتهل ذى اللحية البيضاء ، واستقرت على وجه حسناء كانت الى جواره ..**

وكان قد علم أن الدوق تزوج ــ قبل شهرين ــ من فتاة فى عمر ابنته ، قبلته مرغمة ، تحت ضغط والديها الطامعين فى ثروته ونفوذه .. وخيل الى « فرانشيسكو » ــ وهو يتأملها ــ انها اجمل امرأة فى الوجود ، فما كان ليخطر بباله ان بين البشر امرأة اوتيت كل هذه الفتنة والجمال .. اذ كانت طويلة ، رشيقة القوام ، ذات شعر احمر متألق ، كأنه نار انحدرت فى تموج على كتفيها .. وكانت بشرتها ناصعة البياض ، وعلى محياها معالم الصحة .. وقد ارتدت ثوبا ذهبى اللون ، التف حول جسمها فى احكام ، كاشفا عن صدر شامخ ، فوق خصر نحيل ، على خلاف نساء الطبقة العليا فى ذلك العصر ، اذ كن يهوين البدانة !

وفطنت الدوقة ــ أخيرا ــ الى الفنان الذى كان يلتهمها بنظراته .. وبدون حرج أو استحياء ردت عليه بمثلها ! .. وبدا أنها وجدت فى شكله ماا ستأثر باهتمامها . ولكنه لم يفطن الى شىء ، اللهم الا انه لن يجد فى حياته من تفوقها حسنا وسحرا !

وفجأة ، انتبه الى انتهاء المباراة ، فراح يشق طريقه ــ مع جوانيتو ــ بين أمواج الحشد .. وغابت الدوقة عن نظره برهة ، ولكنه لم يلبث أن لمحها من جديد مع زوجها ، وقد أحاطت بهما ثلة من الجنود ــ يرأسها ضابط بدين ــ تفسح لهما الطريق ..

والتقت نظراته بنظراتها ، فأيقن أنها كانت تتفحصه فى

جرأة ، غير محاولة أن تكتم اعجابها به ! ..ثم انتبه من شروده فجأة على صوت الضابط البدين ، وهو يصيح فيه : « انت .. افسح الطريق ! » .. ودفعه بطرف سيفه ، فمدت الدوقة شفتيها فى استياء ، وتطلعت الى « جويا » ترتقب ماقد يفعل ..

وألفى نفسه يشهر سيفه ، ويلوح به فى وجه الضابط صائحا فى مثل لهجته : « انت .. حذار من استعمال لعبتك الحديدية هذه ! » .. فرد الضابط فى استكبار : « أتتحدى الملك ؟ » .. ولكن فرانشيسكو أجاب ببرود : « ولكنك لست الملك ! » .. ولم ينه جملته حتى كان الضابط قد هجم عليه ، رافعا سيفه وكأنه هراوة .. وانزاح « جويا » عن طريقه فى اللحظة المناسبة ، فتعثر الضابط . واذ ذاك **وخزه جويا بسيفه قاصدا مجرد جرحه .. لكن السيف اخترق جسده ، فسقط الضابط على الارض والدم ينبثق من جرحه بغزارة ..**

أما الاحداث التى تلت ذلك ، فقد كان فرانشيسكو غائب الوعى عنها .. كل مافطن اليه منها ، هو أن الدوقة كانت تبتسم له ، ولم يكن لديه شك فى أنها كانت تقر مافعله .. ولكن « جوانيتو » ـ الذى لم يسلب لبه جمال الدوقة « ماريا كايتانا » ـ أدرك حرج الموقف ، فقبض على معصم الفنان ، وراح يركض به بين الجموع ، حتى اجتازا نطاق الناس ، وتغلغلا فى أزقة مدريد .. وتذكر الفنان الشاب ـ وهما يلوذان بالفرار ـ ماجرى فى (ساراجوسا) من قبل ، فأدرك أنه لم يفد شيئا من تجربته السابقة .. واستبد به الحنق على « جوزيفا » ، فان استثارتها اياه ، كانت سبب كل هذه الاحداث !

***

واضطر « فرانشيسكو » الى أن يختفى عن الانظار فترة من الزمن ، راح خلالها يتنقل من بلدة الى بلدة - بصحبة « جوانيتو » - مكتسبا قوته من مصارعة الثيران ، حتى دبر صديقه وسيلة رحلا بها الى ايطاليا .. وبالرغم من أن لندن وباريس كانتا تتنافسان لاحتلال الصدارة فى ثقافة العالم الغربى ، الا أن (روما) كانت بعد أكثر المدن فنا وثقافة .. وهناك انهمك « فرانشيسكو » فى عمله ، وواصل النهار بالليل فى رسم اللوحات ، حتى أن كثيرا من أساقفة الفاتيكان عهدوا اليه بعمل لوحات دينية للكنائس . **غير أن عاطفته ووجدانه ظلا يتجهان الى وطنه المكبل بأغلال الاقطاع** .. وفطن - فى تلك الاثناء - الى أنه من السخف أن يحاول أن يفك تلك الاغلال بالقوة ، ورأى فى ريشته الوسيلة المثلى لتحقيق هدفه . ولكنه لم يكن يملك أن يفعل شيئا فى هذا السبيل مادام يعيش فى المنفى ، ومن ثم كتب الى صديقه « زاباتر » طالبا منه أن يحاول أن يجد طريقة للحصول على عفو ملكى ، كما سأله أن يذهب الى زوجته ، عارضا عليها أن يستأنفا حياتهما الزوجية ، معبرا عن ندمه على حماقاته السابقة ، موطدا العزم على الاستقرار .

ووفق « زاباتر » فى الطلب الاول ، فقد وصل الى سمعه أن « دوقة ألبا » كانت معجبة بأعمال « جويا » ، وكانت تحتفظ فى منزلها ببعض لوحاته . ومن ثم فقد ذهب الى منزلها وعرض عليها قضية صديقه ، واذا بها تعده بأن تعمل غاية وسعها للحصول على العفو . وقبل أن ينصرف ، نظرت اليه الدوقة ، ثم قالت : « ان أسبانيا تحتاج الى رجال أمثال فرانشيسكوجويا .. وأنا - أيضا - أحب وطنى ! » .. لكنه حين ذهب لزيارة « جوزيفا » فى منزل أخيها ، رفضت

باصرار وبرود أن تعود الى زوجها مهما يحاول ، قائلة انها وطدت العزم على قضاء بقية أيامها « أرملة » !!

- ٣ -

وكان « فرانشيسكو » قد غادر روما الى نابولى ، عندما زاره أحد موظفى السفارة الاسبانية ، وسلمه - **دون** ايضاح - مستندا يحمل توقيع الملك شارل الرابع ، بالعفو عنه عفوا شاملا .. فبادر يتخذ عدته للرحيل .. وبعد أيام قلائل وصله خطاب من « مارتن زاباتر » يخبره فيه بأن **« دوقة ألبا » كانت صاحبة الفضل فى العفو عنه ، فكتب اليها - على الفور - معبرا عن امتنانه .**

وما أن وصل الى أسبانيا ، حتى ذهب - من فوره - الى زوجته ، غير ملق بالا الى ماقاله « زاباتر » . لكن « جوزيفا » استقبلته فى برود وتعال ، وأصمت اذنيها عن توسلاته . على أن الشىء الذى أثار غضبه ، هو أنها اتجهت نحوه ، وقالت فى صوت يشبه فحيح الافعى : « مازلت تعمد الى الحيلة لبلوغ أغراضك ، فلست تطلب منى أن اعود اليك ، الا لان أخى انتخب رئيسا للاكاديمية ، وأحسبك تطمع فى أن يعينك فيها ! » .. وقاوم الشاب نفسه حتى لايبطش بها ، وتسمرت قدماه ، والتمعت عيناه ، ثم قال : « ان أعمالى هى التى ستقودنى الى الاكاديمية ، ولن يستطيع أخوك أو أى انسان أن يوصد أبوابها فى وجهى ! » .. وغادر المنزل وهو موقن من انه لن يشعر بالاسف أو الندم ، اذا لم يقابل زوجته مرة اخرى !

وفى اليوم التالى ، استأجر غرفة صغيرة ، تصلح لان تكون مرسما - « استوديو » - وابتدأ من جديد يكرس وقته للعمل .. **وبرغم انه كان يستخدم كثيرا من فتيات « الماجا »**

كنماذج حية لرسومه ، فانه لم يحاول قط أن يندمج فى أية علاقات غرامية !

❊ ❊ ❊

وكان « فرانشيسكو » منهمكا فى رسم احدى اللوحات ـ ذات يوم ـ حين اندفع « جوانيتو » الى المرسم صائحا : « باكو ، لقد نجحت .. لقد نجحت ! » . فقطب فرانشيسكو حاجبيه ، وقال دون أن ينظر اليه : « نجحت فى ماذا ؟ » ، فأجاب جوانيتو وهو يفرك راحتيه : « لقد بعت لوحتين الى أحد تجار اللوحات ! » .. ثم التفت الى (الموديل) قائلا : « بيبا .. لقد عشت حياتى كأحد العبيد ، أقضى أيامى فى تدبير مباريات مصارعة الثيران .. لكن كل هذا انتهى الى غير رجعة .. كل مايتعين على أن أفعله ، هو أن أذهب الى حوانيت الفن قائلا ان « السنيور فرانشيسكو جويا » قد خولنى حق بيع لوحاته . وعندئذ يتبارى أصحاب الحوانيت فى الفوز بهذه اللوحات ، واكتسب فى نصف يوم ماكنت اكتسبه فى اسبوع كامل . يالها من حياة رائعة ! »

واذ استقر « جويا » فى حياته الجديدة ، فكر فى أن واجبه كان يحتم عليه أن يزور « ماريا كاييتانا » ـ دوقة ألبا ـ ليعرب لها عن امتنانه لسعيها فى الحصول له على العفو الملكى ، غير أنه علم أنها غادرت مدينة مدريد بصحبة الملك والملكة ـ الى المصيف الملكى ـ فعاد من جديد الى الانهماك فى عمله . وسرعان ماذاع صيته فى مختلف بلدان اوربا ، حتى أن صحف لندن وباريس كانت تنشر ـ بجوار أخبار غزوات نابليون بونابرت ، وأطماعه فى الاستيلاء على بلدان اوربا ـ مقالات طويلة عن الفنان الاسبانى الشاب ، الذي كانت رسومه تعبر عن روح الشعب الاسباني ، ممثلة

فى فلاحيه وعامته . وانهالت عليه الرسائل من كثير من الشخصيات المعروفة فى اوربا .. بل ان « مدام دى ستايل » – التى كانت من المع نجوم البلاط الفرنسى يوما – قدمت خصيصا لرؤيته ! .. **ثم قدر له أن يتوج كل هذا النجاح اذ انتخب عضوا فى الاكاديمية ، برغم معارضة شقيق زوجته!**

غير أن هذا المجد كله لم يفلح فى أن يبعد عن نفسه القلق .. القلق الذى كان « جوانيتو » يعزوه الى حاجة الفنان الشاب الى النساء ، برغم اصراره على التعفف والزهد .. ولقد حاول « جوانيتو » أن يقنعه بأن فتاة « الماجا » التى اعتادت أن تقف أمامه ليرسمها ، كانت على استعداد لان تهجر كل « زبائنها » لتعيش معه .. بيد أن « فرانشيسكو » كان ينظر الى « بيبا » – فتاة « الماجا » التى كانت مضطرة الى أن تبيع جسدها تحت ضغط الفاقة والجهل – فيتمثل فيها وطنه الذليل المستضعف !

انما كان القلق – فى رأى « فرانشيسكو » – ناشئا عن شعوره بأن **لوحاته اخفقت فى أن تحث بلاده على النهوض أو توقظ وعى الطبقة الفقيرة ، أو تنبه ضمير الطبقة المستنيرة ..**

وفى تلك الفترة بالذات ، اعلن عن مسابقة بين الفنانين لاختيار الرسام الاول للبلاط الملكى .. ودفع الطموح « فرانشيسكو » على ان يتقدم اليها ، فطلب اليه تزيين جدران كنيسة « القديس انطونيو » – التى اعتادت الاسرة الملكية أن تتردد عليها – برسوم مستمدة من القصص الدينية .. واذ ذاك ، قرر أن ينفذ الرسوم بطريقة لم يتبعها رسام أسبانى من قبله ، **بأن ينقل قسمات وجوه شخصيات من عامة الشعب ، على صور الملائكة والقديسين ..**

واستخدم فى ذلك « بيبا » ، وشحاذا ، وكهلا كان فى ماضيه مديرا لمباريات مصارعة الثيران !

***

وبينما كان « فرانشيسكو » منهمكا ــ ذات يوم ــ فى عمله ، وصل الى سمعه هتاف جماعة من الشعب : « الموت للساحرة » . فلما خرج ليستطلع الامر ، شاهد ثلة من رجال محاكم التفتيش تدفع امامها امرأة فى مقتبل العمر ، على ظهر حمار ، وقد ألبسوها ثوبا من الخيش ، ووضعوا على رأسها قبعة المسجونات . فجمد « فرانشيسكو » فى مكانه ، وصر على أسنانه فى غيظ ، قائلا فى نفسه « ياللمجانين ! .. انهم يقتلون الابرياء باسم المسيح ! » . واذ ذاك أحس بيد « جوانيتو » على ذراعه ، وسمعه يهمس : « لاتحاول أن تقاومهم ، والا كان مصيرك مثل مصيرها . دعنا ندخل ! » . غير أن « فرانشيسكو » نزع ذراعه من يد صديقه ، ثم قال فى عنف : « كلا .. اننى أريد أن أتذكر دائما هذا العار ! »

وفيما هو فى انفعاله ، لمح ــ فجأة ــ ثلة من النبلاء تحيط بامرأة بارعة الجمال . ومضت فترة قصيرة قبل أن يتعرف فيها على « ماريا كاييتانا » دوقة ألبا ، فوقف والذهول مسيطر عليه ، اذ لم يكن قد علم بعودتها الى مدريد . وأحست « ماريا » بنظراته الثاقبة ، فتطلعت اليه .. ثم تلاقت عيونهما ، فأحس بذلك الشعور الجارف الذى استولى عليه عندما شاهدها أول مرة .. **لقد أيقظت رؤيتها ــ فى نفسه ــ مختلف المشاعر ، من اثارة وتحد وخوف ، فى آن واحد .. فلقد داخله خوف من لقائها ! ..**

وسمع صوت جوانيتو يقول : « دعنا ننصرف .. انهم يحرقون المرأة البريئة ، بدلا من هذه (الساحرة) ! » وأشار نحو « ماريا » بهزة من رأسه ؛ فقال فرانشيسكو : « أتنسى

انها صاحبة الفضل فى عودتى الى اسبانيا ؟ » . فأجاب جوانيتو : « ربما كنت محقا ، ولكن .. صدقنى انها ذات عين شريرة ! »

وظل « فرانشيسكو » عاجزا عن ان ينسى منظر البائسة ـ التى كانوا يقودونها الى الحرق ـ حتى بعد ان ذهبا الى حانة « روجا » ، حيث اعتادا أن يتناولا وجباتهما . فأخذ يسرف فى الشراب ، ثم تناول قلما وورقة .. **وسرعان ما اكتمل على الورقة شكل الموكب الرهيب .. غير ان وجه المرأة اتخذ ـ دون وعى منه ـ ملامح « الدوقة » تماما ! ..** وعندما رفع رأسه أخيرا ، كاد القلم ان يفلت من بين أصابعه، اذ أبصر « الدوقة » وسط أصدقائها النبلاء .. ومع انه كان يؤمن بالمساواة بين طبقات الشعب ـ حتى فى ارتياد الحانات ! ـ الا انه اعتبر وجود امرأة مثل « الدوقة » فى حانة « روجا » عملا غير ناضج ، ولعله كان منبعثا عن تظاهر كاذب ، أكثر منه عن رغبة صادقة فى الاختلاط بالشعب .

وراح يراقب « الدوقة » وصحبها فى فضول ، فلم يلبث ان خيل اليه انها لم تأت سعيا وراء المغامرة ، او رغبة فى الخروج على رتابة حياتها ، **وانما أقبلت لأنها كانت تشعر بأن مثل هذه الحانة هى مكانها الطبيعى ..** تماما كزوجة الخباز التى انتحت وزوجها أحد الأركان ، وكفتاتى « الماجا » اللتين كانتا تجالسان بعض الرواد !

ولفت نظره بطل من مصارعى الثيران ـ يدعى « جوزيه » ـ راح يفرط فى الشراب حتى ثمل تماما .. وما لبث ان سار مترنحا الى « الدوقة » ، وسألها ان تراقصه . واذ ذاك ، تصدى له أحد رفاقها ، فصرعه « جوزيه » بلكمة قوية .. وقفز رفاق النبيل من أماكنهم ، ولكن المصارع تغلب عليهم واحدا بعد آخر .. وثار الهرج فى الحانة .. ولم يجرؤ أحد

من الرواد على كبح جماح المصارع المهتاج ، سوى « فرانشيسكو » الذى لم يقو على أن يقعد دون نجدة « الدوقة » ، فى موقفها الحرج .. فلما رأى المصارع « فرانشيسكو » يتقدم نحوه ، استل مدية وشهرها فى وجهه. **فأمسك هذا بالرداء الذى يستعمله مصارعو الثيران فى الحلبة ، وأخذ يلوح به فى وجه « جوزيه » ، متلقيا به الطعنات** .. وما لبث ان القى بالرداء فى وجه المصارع، وانتهز فرصة تخبطه وتعثره ، فصوب الى فكه لكمة قوية ألقت به على الأرض صريعا .

وبينما كان يعود الى مائدته ، لمح « الدوقة » تبتسم له : فانحنى لها ، وقد خطر بباله ان الفرصة كانت مناسبة كى يزجى اليها شكره وامتنانه لتدخلها فى صالحه . وأخذ قلبه ينبض فى عنف ، وتفصدت راحتاه بالعرق ، وشعر بارتباك يشبه ارتباك الفتى المراهق عندما يحاول ان يلفت نظر فتاة حسناء اليه .. لقد كان « جوانيتو » محقا فيما قاله عن عينيها ، فقد بدا ان نظراتها راحت تخترق رأسه وتصل الى أعمق أفكاره !

وفى تلك الاثناء ، أفاق « جوزيه » من غيبوبته ، ولمح المدية ترقد بجواره ، فما لبث أن قبض عليها ، ناهضا على قدميه . وقبل أن يشعر أحد بما كان ينتويه ، ركض نحو « فرانشيسكو » ، ولو لم تصرخ الدوقة فى الوقت المناسب ، لاخترقت المدية ظهره ، غير انه انحرف فجأة ، فأصابت المدية ذراعه بجرح سطحى ..

***

والتف « جوانيتو » وبعض الحضور حول الرسام الشاب ، وقادوه الى غرفة جانبية ، فغسلوا جرحه بالبراندى .. ولم يجدوا ضمادة للجرح ، فما كان من « بيبا » ـ التى

كانت بين الحضور ـ الا ان مزقت قطعة من قميصها الداخلى، لتكون ضمادة .. واذ شهد «فرانشيسكو» ساقيها البديعتين ـ عندما رفعت عنهما القميص ـ ألقى اليها بعشر قطع من عملة « الدوبلون » ، قائلا : **« اليك .. خمس من أجل الثوب ، وخمس لقاء الكشف عن أجمل ساقين شاهدتهما منذ سنوات طويلة ! »**

وفجأة ، انبعث فى الغرفة صوت نسائى يقول : « كنت أعتقد ان رؤية السيقان العارية ليست مستغربة لدى الفنانين ! » .. **وكانت « الدوقة » هى صاحبة الصوت .** وما ان رآها القوم حتى انصرفوا تباعا ، وخلا المكان الا منها والرسام الجريح . وانحنت تصلح له الضمادة التى احاطت بذراعه ، وهى تقول : « أخشى ان اكون قد أفسدت عليك سهرتك » .. ثم أردفت : **« ما من مرة نلتقى فيها الا وتقحم نفسك فى عراك بسببى ! »** . فبادر قائلا : « بالعكس ياصاحبة السمو .. ان لك فضلا سابقا لا يزال يطوق عنقى ، اذ توسطت لدى الملك من اجلى ! »

ـ كان هذا أقل ما ينبغى ان افعله ، فقد كنت السبب المباشر فى اضطرارك الى مبارزة ذلك الضابط .. **ألم أكن أشجعك بنظراتى ؟**

وارتبك فرانشيسكو ، وارتج عليه القول ، اذ لم يألف مثل هذه الصراحة من النساء .. ولكن « الدوقة » لم تلبث أن بددت الصمت الممض ، بأن راحت تتحدث اليه عن رسومه ، فقالت : « ان رسومك تثير الفزع فى نفسى ، فهى قاسية وحكيمة فى نفس الوقت .. غير أن الحقيقة غالبا ما تكون قاسية ، أليس كذلك ؟.. أخبرنى ، ماذا يوجد فيها ، حتى أنها تثير فى نفسى ذلك الاحساس ؟ » . فأجاب « فرانشيسكو » بقوله : « ليس لى أن أتحدث عن أعمالى

يا صاحبة السمو .. **غير انه يبدو لى ان الحقيقة ترتدى دائما قناع الشيطان .. لكن الشيطان لا ينبغى أن يفزعنا ، اذا ما واجهناه بشجاعة !..** اما اذا تجنبنا الحقيقة ، فاننا نبنى حولنا عشا من الأكاذيب ، نحتمى داخله من متاعبنا ! » .. فأطرقت برأسها علامة الموافقة ، غير انها ما لبثت ان انفجرت ضاحكة وقالت : « يبدو انك تعتقد ان للشيطان عدة وجوه ! »

وفجأة ، لمح فرانشيسكو فى يدها الورقة التى رسم فيها منظر الساحرة ، فصعد الدم الى وجهه وقال : « عفوا يا صاحبة السمو .. أؤكد لك اننى لم أقصدك شخصيا بذلك الرسم . كل ما فى الأمر اننى شاهدت المرأة البائسة تقاد الى المحرقة ، وكنت انت هناك ، فرحت أفكر فيها ، وفيك فى نفس الوقت .. فلم أشعر الا وقد رسمت صورتك مكانها ! »

فأخذت تهون عليه الأمر ضاحكة ، وأخيرا قالت : « انك فنان موهوب يا سنيور جويا . لذلك ، ارجو أن تحضر غدا لترسم صورتى .. **ربما كان فى استطاعتك ــ بفنك ــ أن أن تبدد الشائعات التى يروجها اعدائى بأن روحا شريرة تسكن جسدى ! »** . وحاول « جويا » أن يعتذر عن الذهاب ، بحجة ان الرسم الذى كلفه به البلاط الملكى كان يشغل كل وقته ، غير ان لهجتها اللطيفة تغيرت فجأة ، فصارت تماما كلهجة الدوقات عندما يصدرن أمرا ، ويتوقعن ان يطاع . اذ قالت : « غدا .. فى الخامسة تماما ! » . ثم تحولت منصرفة .

وقرر « جويا » ان يرفض الموعد ، فظل فى مرسمه منهمكا فى العمل ، حتى ناهزت الساعة السادسة . واذا برسول من الدوقة يفد متسائلا عن سر تخلفه عن الموعد ، فما كان منه

الا أن أجاب بخشونة : « اخبرها بأننى كنت مستغرقا فى العمل ، ولست أقبل ان يصرفنى انسان ، مهما تكن مكانته ـ ولو كان امرأة جميلة مدللة كالدوقة ـ عن أهم شىء فى حياتى ! » .. ولم يتراجع عندما قال الرسول : « حسنا يا سيدى ، سأنقل اليها ردك حرفا بحرف ! »

وكان صديقه « زاباتر » موجودا ، فأخذ يلومه على تهوره الذى يكسبه اعداء وهو أشد حاجة الى أصدقاء ، ومضى يبين له ان الدوقة كانت أشد افراد طبقة النبلاء ميلا الى الشعب ـ لا سيما بعد وفاة زوجها ـ **فهى لا تفتأ تجاهد بكل ما تملك من عزم وحيلة ، لتكسب لهم حقوقا جديدة ، حتى أصبحت حاشية الملك تناصبها العداء** .. وكانت الملكة أشد الجميع خصومة لها ، اذ كانت تحقد عليها لجمالها ، ولاستئثارها باعجاب الرجال .. ثم لتنديدها بالعلاقات غير المشروعة التى كانت بين الملكة ورئيس الوزراء « جودوى » !

وكان « فرانشيسكو » ينصت وهو مبهوت ، فقد كان من العسير عليه ـ ازاء ما كان يراه من تصرفات « الدوقة » ـ أن يصدق ان هذه المرأة المترفة تجاهد من اجل عامة الشعب عن ايمان صادق ، بل خيل اليه انها انما كانت تفعل ذلك عن تظاهر ، ليكون لها من تعلق الشعب بها ـ اذا ما اغتر بما تزعمه من دفاع عن حقوقه ـ ستارا تفعل من ورائه ما تمليه عليها نزواتها ، ولتجد من مناصرة العامة لها ـ اذا ما اشتد الصراع بينها وبين الحاشية ـ ما تستطيع ان تستند اليه !

ـ ٤ ـ

واستطاع « جويا » ـ أخيرا ـ ان يفوز فى المسابقة الملكية فأصبح الرسام الأول للبلاط الملكى ، وترك مرسمه القديم فى رعاية صديقه « جوانيتو » ، وانتقل الى الجناح الخاص الذى أفرد له فى القصر الملكي ، حيث لم يعد له من

عمل سوى رسم أعضاء الأسرة المالكة ، والتنقل فى ارجاء القصر دون رقيب .. وسرعان ما تفتحت عيناه — فى الوسط الجديد — على كثير من الاسرار .. **وروعه ان تبين ان الملك كان على علم بعلاقة الملكة برئيس الوزراء ، ولكنه كان يؤثر ان يغضى عنها خشية « جودوى » الذى كان يمسك أزمة السلطان فى قبضته !**

واستنكر « جويا » هذا الانحلال ، حتى أنه شعر بشىء من الابتهاج ،حين نمى اليه ان رئيس الوزراء كان يمهد لجيوش « بونابرت » كى تحتل اسبانيا . فبالرغم من ان الفنان الشاب لم يكن يحبذ أن يحتل اجنبى بلاده ، لا سيما اذا كان هذا الاحتلال قائما على غدر من رئيس الحكومة ، الا أنه كان يكبر « بونابرت » ويحترمه ، فأيقن من ان دخوله الى اسبانيا كفيل بأن يطهرها من الفساد ، وان ينشر المبادىء التى كانت الثورة الفرنسية تنادى بها : **الحرية والاخاء والمساواة !**

وفى ذات يوم ، أفضى اليه « جوانيتو » بأن دوقة ألبا لا تفتأ تنشر عنه الأقاويل بين اصدقائه ، زاعمة أنه باع نفسه وريشته للملك وحاشيته ، وان الترف صرفه عن قضية الشعب المضطهد ، والحرية التى كانت مقيدة مكبلة .. واستشاط « فرانشيسكو » غضبا ، فقد غاظه انه كان يشعر — فى قرارة نفسه — بأن هذا الاتهام يحمل ظلا من الحقيقة ، الى حد ما .. وراح يتحين الفرص ، الى أن لمح « ماريا كايتانا » مقبلة على القصر ذات مساء ، فأسرع الى استدراجها بعيدا عن الأنظار والآذان ، ثم بادرها متسائلا عن سر حقدها عليه .

واجابته فى رقة مصطنعة : « أحقد عليك ؟!.. صدقنى يا سيدى ، اذ قلت اننى لا أحمل لك أية شعور ، سواء اعجابا أو كراهية ! » . فقال بخشونة : « اذن ، فلماذا تحاولين

تشويه سمعتى ، ونشر الشائعات عنى ؟ » . واذ ذاك هتفت : « آه ! .. اذا شئت الحقيقة ، فاليك بها .. **لقد اعتقدت يوما - كما اعتقد كثيرون غيرى - انك قد تصبح الزعيم المرتقب لمعركة الحرية .. ولكنك اخترت لنفسك الطريقة السهلة المريحة** .. وما احسبك تنكر انك تكرس وقتك وموهبتك لخدمة أولئك الذين يكبلون شعب اسبانيا بالاغلال ! »

- وماذا تريدينى ان أفعل ؟.. ان اقدم رسوما تمكن « دون مانويل جودوى » من ارسالى الى السجن ؟

- اريدك ، أنا ؟!.. لا يا سيدى ، لست اريدك على شىء ، **فقد فقدت كل اهتمام بك منذ اللحظة التى تحولت فيها من وطنى متحمس الى انتهازى أجير !**

- وكيف تجرؤين على ان تجعلى من نفسك حكما وقاضيا ؟

- أليس من حق كل من يشاهد أعمال فنان ان يصدر حكمه عليها ؟

- مهما يكن ، فلن تستطيعى ان تحطى من قيمة اعمالى !

- اننى أكن لأعمالك الفنية كل تقدير واكبار ..

- اذن ، فأنت تقدرين « فرانشيسكو جويا » الفنان ، أما « فرانشيسكو جويا » الانسان ، فأدنى من ان يصل الى مستواك الرفيع . أليس كذلك ؟ .. لو انك كنت رجلا ، لدعوتك الى المبارزة !

- ولكنى امرأة ، ولست رجلا .. فما رأيك ؟

واقترب منها فى انفعاله ، حتى لفحته أنفاسها .. ولم يمنعه من ان يقبض على عنقها ، سوى شعوره بأنها كانت تستثيره ، فلم يشأ ان يمكنها من غايتها !

***

شعر « جويا » – فى اليوم التالى – بأن جو القصر الملكى يكاد يخنقه ، فقصد الى مرسمه القديم ، واذا به يجد « جوانيتو » ممسكا بهراوة ضخمة .. وتناولها منه ، فراح يزنها فى قبضته ، ثم قال : « يا لها من سلاح رهيب .. اننى اكره ان تصيب جمجمتى منها ضربة ! » . فأجاب صديقه ضاحكا : « انها أعدت لقوات جودوى ! »

وعجب فرانشيسكو ، فتحول يسأل جوانيتو تفسيرا . وروى له صديقه كيف ان انباء ما كان جودوى يفعله لتمهيد الطريق لبونابرت قد اثارت سكان مدريد ، **فاعتزموا ان يقوموا بمظاهرة سلمية – منتهزين فرصة اجتماعهم فى حفلات « الكرنفال » – ليطالبوا جودوى بأن يذهب الى الشيطان ، وان يصحب «نابليون» معه !** .. وقال الرسام – اخيرا – فى تباطؤ : « ولكن جودوى لن يحجم عن ارسال فرقة من الحرس الملكى لتشتيتكم »

– لو كنت فى مكانه ما فعلت هذا ، لا سيما اننا سنكون متفوقين فى العدد .. وسيكون معنا بعض النبلاء ..

– أتقصد .. دوقة البا ؟

– لماذا لا تنضم الينا فترى بنفسك ؟.. لسوف تكون معنا ، أليس كذلك ؟

– لو ان المظاهرة كانت ضد « جودوى » وحده ، لما ترددت .. ولكن ، لماذا تقحمون « نابليون » فى الأمر ؟

– لأنه يطمع فى الاستيلاء على اسبانيا ..

– وهل ستكون الأمور ، اذ ذاك ، اسوأ مما هى الآن ؟.. **ولماذا لا ترجحون ان يتيح نابليون لنا من الحرية ما كفله للشعب الفرنسى ؟.. اننى لا اقر العنف !**

– ألم تكن تردد انه لا بد للشعب الاسبانى من النضال ان شاء ان يحصل على حريته ؟

ـ ولا أزال أؤمن بهذا ، ولكن .. دون اراقة الدماء .. كذلك أوقن من ان « نابليون » كفيل بأن يساعدنا فى استعادة حريتنا ، ولذلك فلن اشترك فى مظاهرة الغد !

بيد انه لم يستطع ان يكبح فضوله ـ فى اليوم التالى ـ فخرج الى الميدان الرئيسى ، واذا به يغص بالقوم وقد ارتدوا ثياب التنكر . وبدلا من ان يحتفلوا بـ « الكرنفال » ، اذا بهم يشرعون فى التظاهر .. ولمح فريقا من الرجال يرفعون على اكتافهم امرأة ، فتدوى فى أرجاء الميدان عاصفة من التصفيق .. وخيل اليه انها احدى فتيات « الماجا » ، ولكنه ما لبث أن امسك انفاسه ، اذ تبين انها **«ماريا كاييتانا» ، دوقة البا ، وقد ارتدت قميصا مكشوف الصدر ، التف حول جسدها فى احكام ، مبرزا مفاتنه !..** وادرك انها اختارت هذا الزى ـ زى فتيات « الماجا » ـ لتقنع الشعب بأنها تشاركه مشاعره وآلامه .

وعزفت الموسيقى الشعبية ، فقفزت الدوقة الى منصة عالية ، وأخذت تؤدى احدى الرقصات القومية .. وفجأة ، لمحته وسط الجماهير ، فتوقفت ـ وعلى شفتيها ابتسامة مزهوة ـ ودفعت صدرها الناهد الى الامام ، ووضعت يديها على ردفيها ، ثم صاحت مشيرة اليه : « فرانشيسكو جويا .. ألا تراقصنى ؟ » . وارتج عليه القول اذ ادرك السخرية فى لهجتها .. وامسكت الموسيقى عن العزف .. وظل «جويا» جامدا ، صامتا .. وغاظها موقفه ، فصاحت : **« انها ليلة شعب اسبانيا .. ومن ليس معنا ، فهو علينا .. ففى أى صف تقف يا فرانشيسكو جويا ؟ ..** أأنت أسبانى ، أم تراك خادما حقيرا لاولئك الذين يضنون على الشعب بحريته ؟.. لماذا لا تجهر بحقيقة ميولك ؟.. أمامك أحد أمرين : اما ان

تراقصنى ، واما أن تجرؤ على أن تعلن نفسك عدوا لحرية الشعب ! »

ووجد جويا نفسه فى موقف لا يحسد عليه ، فلم ير بدا من الصعود الى المنصة ، وقد نازعته رغبة فى خنقها . وكانت الجماهير تهتف وتهلل فى حماس جنونى ، ولا ريب انها ما كانت لتتردد فى تمزيقه اربا ، لو انه استسلم لرغبته !.. وانحنى نحوها فى احترام مصطنع ، ومد يديه نحوها ، فى اللحظة التى عاود فيها الموسيقيون عزف لحن مثير !

وفجأة ، وبينما كانا منهمكين فى الرقص ، والجماهير تصفق على نغمات الموسيقى ، سرت همهمة بين الجموع ، **اذ أقبلت فصيلة من الحرس الملكى .. ودب الرعب فى الصدور ، فأخذ القوم يركضون على غير هدى ..** وقفز الراقصون من فوق المنصة ، فلم يبق هناك سواهما . وصاح فرانشيسكو فيها فى غضب : « أرجو ان تكونى قد استمتعت بحوادث الليلة ! » . ولكن ماريا لم تسمع حرفا مما قاله ، وبدا وجهها - تحت مسحوق الأرز واللون الأحمر ، اللذين تستعملهما فتيات « الماجا » - شديد الشحوب . وفجأة انتابتها نوبة من الذعر ، فقفزت بدورها من فوق المنصة ، لتحاول الوصول الى عربتها التى كانت تنتظر خارج الميدان ، غير ان الجماهير - التى كانت تتدفق حولها بالآلاف فى فزع جنونى - ما لبثت أن أسقطتها فوق الأرض ، ووطأتها بأقدامها الغليظة . ولم يشعر فرانشيسكو الا وقد اندفع خلفها ، شاقا طريقه وسط ذلك الخضم الهائل من الشعب ، مستعملا كتفيه . **فلما ادركها ، وجدها تصرخ فى رعب حتى اذا انهضها الى قدميها تعلقت به ،** وسرعان ما جرفهما تيار الأجساد المتدافعة الى خارج الميدان ، وأصوات طلقات البنادق تدوى فى آذانهما .

وبلغا اخيرا أحد الازقة الجانبية ، وهما يلهثان ، فوقفا يلتمسان بعض الراحة .. وأخذ « فرانشيسكو » يتفحص الدوقة بنظراته ، فاذا هي لم يصبها سوى بعض رضوض بسيطة .. **وبدت بشعرها المشعث، وثيابها المتهدلة، وحذاءيها الملوثين بالطين ، أشبه ما تكون بفتيات «الماجا» !..** وفي تلك الاثناء ، مرت بهما كوكبة من فرسان الحرس الملكي ، تطارد الناس وتقسو في البطش بهم ، حتى ان « فرانشيسكو » لم يتمالك ان راح يلوح بقبضته في غيظ ، بينما دفنت الدوقة وجهها في صدره ، واخذت تنتحب ، وهي تتمتم : « ما كنت أحسب جودوي يجرؤ .. » . واحاطها الفنان الشاب بذراعه ، وجذبها ليستأنفا سيرهما ..

وفجأة ، التقيا بضابط شاب — برتبة الملازم — بدا من هيئته انه من النبلاء ، وقد سار متقدما اربعة من الجنود . فلم يكد يرى الدوقة حتى عرفها ، فقفز عن جواده ، واندفع نحو فرانشيسكو صائحا ، وهو يلوح بسيفه : «دعها فورا !» .

فدفع الرسام رفيقته خلف ظهره ، وشهر سيفه قائلا : «عد الى معسكرك ايها الفتى، قبل ان تجر الشر على نفسك!» . وعبثا صاحت الدوقة فيهما ، فقد التحما في مبارزة لم تجد « ماريا » معها بدا من ان تلقى بنفسها بينهما .. وجمد كل منهما ، وأخذ يرمقها بذهول ، **فصاحت في الضابط : « لم أتصور قط ان تتصرف بمثل هذا الغباء يا ردريجو ! » . ثم التفتت الى فرانشيسكو قائلة : « اما انت فقد أثبت من زمن طويل انك اكثر رجال اسبانيا تهورا واندفاعا ! »**

وبادرت تعرف كلا منهما بالآخر ، فأعادا سيفيهما الى قرابيهما .. وراح « ردريجو » يؤنب الدوقة على نزقها ، اذ ذهبت وحدها الى ساحة « الكرنفال » ، فشعر

« فرانشيسكو » بلذعة الغيرة تسرى فى فؤاده ، وقد اوحى اليه الشك بأن ثمة علاقة بين « ماريا » والضابط الشاب .. ولكن الدوقة لم تفطن الى ما خامره ، بل تأبطت ذراعى الرجلين ، قائلة : « أحب ان تتصادقا .. ولنبدأ علاقتنا الجديدة بتناول الشراب معا ! »

- ٥ -

ولم تكن حانة « روجا » بعيدة عن المكان ، فساروا اليها، واذا بها غاصة بالقوم الذين كانوا يحاولون نسيان أحداث اليوم بالرقص والاغراق فى الشراب .. واقترحت الدوقة على « فرانشيسكو » ان يراقصها ، فلم يمانع .. وتقبل « ردريجو » الأمر برحابة صدر . على ان الرسام أخذ يرقص وهو شارد الفكر ، تائه فى فتنة المرأة التى راحت تهتز فى خطوات منتظمة ، ويداها فوق ردفيها ، ووجهها لا يبعد عن وجهه بمسافة تذكر .. **وأحس بأنه عاجز عن احترامها كدوقة ، اذ غدت - فى نظره - مجرد فاتنة لا تدخر وسعا فى اظهار رغبتها فيه .. حتى عيناها ، كانتا تصرخان بنداء صامت !**

وعندما عادا الى المائدة ، كان « ردريجو » قد انصرف ، وكأنه لم يستسغ وضعه بينهما .. وسأل فرانشيسكو صاحبته عن علاقتها بالضابط الشاب ، ولكنه لم يشأ ان يتقبل ردها بأنه كان مجرد صديق ، بل مضى يلح عليها بشكوكه : « أولست مغرمة به ؟.. أولم تكونى يوما مغرمة به ؟.. ما احسبه الوحيد .. ثم انه لا يزال يهواك ! » .. واسندت ظهرها الى ظهر المقعد ، واغمضت عينيها لحظة سادهما الصمت خلالها، ثم اتكأت الدوقة بمرفقيها الى المائدة، وتفرست فى وجهه قائلة : « لقد رسمت لى صورة ، فى لقاء سابق ، فماذا ترى الليلة فى وجهى ؟.. **أما زلت تتمثلنى**

ساحرة ، أم شيطانة ، أم غانية تنشد الهوى على قارعة الطريق ؟ »

وتردد قبل أن يجيب فى تؤدة : « أرى الليلة فى وجهك سماء (اراجون) ، وقد ازدحمت بالنجوم الساطعة .. ومياه نهر (كاستيليا) الصافية ! » . وحاولت « ماريا » أن تبتسم ، ولكنها شهقت مأخوذة ، على الرغم منها .. وما لبثت أن عادت تسأله : « منذ متى ترى كل هذا فى وجهى ؟ »

ـ مذ رأيتك أول مرة .. حتى ونوبات الغيرة والحقد تتنازعنى .. لقد رسمتك آلاف المرات !

ـ واى اللوحات تراها أقرب الى حقيقتى ؟

ـ تلك التى سأرسمها الليلة !

***

وذهبت معه الى مرسمه ، فأشعل كل الشموع والمصابيح ، ثم شرع يمزج الألوان بعناية ، بينما راحت الدوقة تسوى شعرها ، وتصبغ شفتيها باللون الأحمر .. ثم استلقت على أريكة مواجهة للوحة الرسم .. ولم ينبس أحدهما بكلمة ، بينما راحت الفرشاة تتنقل فوق اللوحة .. وبدت الدوقة ساكنة ، هادئة ، لا ينم عما كان يضطرب فى صدرها من عواطف ، سوى ارتفاع وانخفاض ثدييها ، مع تردد أنفاسها .. وما لبث الرسام أن لاحظ أن رعشة سرت الى يديه ، فألقى بالفرشاة جانبا ، وتقدم فوقف أمام الحسناء المستلقية . واذ ذاك ، فاضت مشاعرها وهى توقن من أنه سيرتمى فى احضانها ، **فان الحاجز الذى كان يفصل بينهما قد أنهار أخيرا .. وتلقت خطوته الأخيرة بلهفة ، وبفرح امرأة لا تطمع من دنياها فى أكثر من الفوز برجلها !**

وعندما أفاقا من الغيبوبة التى لفتهما ، هتف فرانشيسكو :

« أواه ، لكم أحبك ! » .. وأدهشه أنه ظل طويلا يعاند نفسه ، قبل أن يدرك هذه الحقيقة . ولكنها رمقته طويلا ، ثم قالت وهى تطرق برأسها : « أخشى اننى لا أصلح لك .. بعد كل ما كان منى فيما مضى ! »

وهفا الأسى الذى ارتسم على وجهها بعواطفه ، فهتف : « لقد مات الماضى وانتهى ! .. أو تظنيننى منزها عن الأخطاء ؟ .. أتعلمين لماذا هجرتنى زوجتى ؟ .. لأنها كانت بحاجة الى رجل عاقل متزن ، بينما كنت ضاريا ، مغرورا ، صعب المراس ! » .. فأنعمت ماريا النظر فيه ، وقالت : « وأنا الأخرى لست بالسهلة القياد .. ألم تسمع ما يروى عنى من قصص لا يمل أهل مدريد ترديدها ؟ .. لقد كنت صبية ، لا أفقه من امور الدنيا شيئا ، عندما تزوجت . فما أن ترملت ، حتى رحت أبحث عن الحب والحنان ، ولكنى أخفقت .. لماذا لا تدعنى وشأنى ؟ .. اننى جموح ، ولا أصلح لأى رجل ! »

وقاوم رغبة طاغية فى أن يغرق جفونها بقبلاته ، وقال : « لا أصدق هذا » . فقالت ، كأنها تنذره : « ستظل ذكرى ما حدث تطاردك ما حييت ! » .. فأجابها : « لن يحدث هذا قط ! »

***

وعادت الى قصرها ، على وعد أن تزوره فى اليوم التالى ليتم رسمها .. وكانت موقنة من أن « جودوى » — رئيس الوزراء » — لن يغفر لها دورها فى المظاهرة ، ولكنها لم تتوقع أن يضرب بالسرعة التى فوجئت بها ، فما أن دخلت قصرها ، حتى وجدت غريمها مع ثلة من الجنود ، وقد حزموا ثيابها فى الحقائب ، واستصدروا أمرا ملكيا بأن تنفى سنة كاملة فى

ضيعتها ، فى مقاطعة (سولينار) .. ولم تجد توسلاتها لجودوى فتيلا !

واذ لم توافِ « جويا » — فى اليوم التالى — وعلم برحيلها الى ضيعتها ، صمم على اللحاق بها ، ولو فقد بذلك منصبه ككبير رسامى البلاط الملكى ! .. على أنه لم يكد يبلغ الضيعة ، حتى استقبلته وصيفة الدوقة فى غلظة ، وأنبأته بأن مولاتها نائمة .. **ولم يعبأ الرسام المفتون ، بل أزاح الوصيفة عن طريقه ، واندفع الى مخدع الدوقة ، فاذا بها تجلس الى المرآة تصفف شعرها !**

واجفلت ماريا اذ لمحته على صفحة المرآة ، وصاحت فى غضب : « كيف تجرؤ على اقتحام خدرى ؟ » . فأجابها : « وكيف جرؤت على الهرب منى ؟ » .. وكان ردها : « انما فعلت لمصلحتك .. ألم أنذرك بأن تبتعد عن طريقى ؟ »

ولم يشعر الا وأصابعه القوية تغوص فى لحم كتفيها ، وقد راح يهزها فى عنف ، صائحا : « قلت لك اننى احبك .. ولست بالذى يفرط فى عاطفته ! » . وحاولت أن تفلت منه ، ولكنه ظل يهزها ، وكأن شيطانا قد تملكه .. حتى اذا أفلتها أخيرا ، لاحظ أنه قد مزق ردائها فانزلق عن جيدها ، كاشفا عن أحد ثدييها عاريا .. وظلت ساكنة لا تتحرك .. ومع أن سكونها كان يحمل معنى الاستسلام ، الا أن النيران التى اتقدت فى عروق « فرانشيسكو » لم تلبث أن امتزجت بفيض مفاجىء من الحنان ! .. **وأدرك أن رغبته فيها لم تكن وليدة الجسد وحده ، وان حبه لهاكان نابعا من أعماق قلبه وروحه !**

واحتواها بين ذراعيه ، وأطبق شفتيه على شفتيها ، فلم تقاوم ، بل استكانت فى جمود .. ولكن دفء عناقه لم يلبث أن أذاب برودها ، فأحاطت عنقه بذراعيها !

وتوالت الأسابيع فاكتملت أشهرا ، وهما غارقان في كؤوس الهوى .. ولم يكن فرانشيسكو يفيق من لذته الا ليمضي في رسم لوحة جديدة لامرأة عارية تماما - كما ولدتها امها - وقد اتخذ من « ماريا » نموذجا .. حتى اذا فرغ منها ، أيقنا معا من أنها تحفة سيكتب لها الخلود .. واختارا لها اسم « **الماجا العارية** » ، تخليدا لذكرى ليلة الكرنفال ، التي اكتشفا فيها غرامهما .. والى جانب اللوحة ، رسم « جويا » لعشيقته « اسكتشات » لا حصر لها ، في أوضاع مختلفة ، مستمدا الالهام من غرامهما الملتهب .

وكانا يحرصان على أن يتجنبا الجدل في السياسة ، اذ لم يكن لدى اي منهما أمل في أن يعالجا اختلاف وجهات نظرهما .. على أن « ماريا » لم تقو على مغالبة قلقها ، عندما نمى اليها ان « جودوي » أرسل كل قوات الجيش الاسباني غربا - لتواجه خطر جيش البرتغال - تاركا الحدود الشمالية بدون حراسة ، في الوقت الذي كان نابليون يتأهب فيه لغزو البلاد .. **ولم تستطع أن تكبح غضبها ، حين تبينت ان « فرانشيسكو » لم يكن يأنف من أن يغزو « نابليون » بلاده ، ايمانا منه بأن هذا سيكفل للشعب الاسباني حريته !**

وفي ذات يوم ، فوجئت « ماريا » بوصيفتها تعلن اليها مقدم « جودوي » . وكان « فرانشيسكو » قد خرج ليتريض ، فلم تجد بدا من أن تقابل رئيس الوزراء .. واذ دخل عليها ، بادرته بجفاء : « أجئت لتتأكد من انني لم أهرب ؟ » .. فارتسمت على شفتيه ابتسامة ذات معنى ، وقد وقع بصره على اللوحات التي رسمها « جويا » لها ، وبينها « الماجا العارية » .. وعادت تسأله عن سر حضوره ، فلما اطمأن الى اشتداد فضولها ، كشف لها عن مهمته . فقد جاء يساومها على منحها حق العودة الى مدريد ، مقابل أن ترحب

باحتلال نابليون لاسبانيا .. فقد كان «جودوى» يعلم مدى ما لها من نفوذ شعبى !

واذ أعيته الحيلة ، أنذرها بأن على « فرانشيسكو » أن يعود لفوره الى مدريد ، وأشار الى أن لوحاته ـ التى رسمها لها ـ قد تهم محكمة التفتيش ، لما سجلته من أوضاع منافية للآداب ..

واستطرد قائلا : « **انك هنا تنفيذا لحكم صدر عليك بالنفى ، وليس لتستمتعى بشهر عسل . وسأترك هنا فصيلة من الجند لاعتقال جويا ، اذا رفض الرحيل طواعية !** »

وكان ضابط الفصيلة هو العاشق الذى خيبت الدوقة آماله من أجل فرانشيسكو .. الملازم « دون ردريجو شانسيز ! »

- ٦ -

وأدركت ماريا ـ بعد انصراف جودوى ـ حرج ظروفها .. كان من العسير اقناع « ردريجو » بأن يدعها وعشيقها فى سلام ، فان وفاءه لواجبه ـ كضابط فى الحرس الملكى ـ كان يفوق تدلهه فى هواها ، فلم تفلح معه أساليب الاغراء والاقناع التى عمدت اليها .. وفى وقدة غيظها ، صاحت فيه : « ألا تفطن الى أن جودوى يستخدمك ـ فى هذا الموقف ـ كما لو كنت قطعة من الشطرنج ، تحقيقا لمآربه .. ان أهل مدريد طرا يعلمون اننا كنا نلتقى كثيرا هناك ، فاذا ما أقصيت « جويا » عن هنا ، أدركوا انك تصدر عن نقمة عليه .. أو اننى نبذته من أجلك ، واذ ذاك سيعتبروننى عاهرة .. **وهذا ما يسعى اليه جودوى ، فهو يصبو الى تشويه سمعتى ، والقضاء على نفوذى فى الأوساط الشعبية ، وبذلك يكبت المساعى التى تبذل لاحباط تحالفه مع**

الفرنسيين ! » . فأجاب الضابط فى تحمس : «اننا لن نتردد عن قتال نابليون ، لو جاء غازيا ! »

وأمسكت بذراعى الضابط الشاب ، وراحت تهتف : « أرجوك يا ردريجو .. ساعدنى ! » .. واذا صوت فرانشيسكو ينبعث من خلفهما فى تهكم مرير : « **يبدو أننى** حضرت فى وقت غير مناسب ، فاغفرا لى تطفلى ! » .. كان قد حضر دون أن يفطنا اليه ، فأساء فهم الموقف .. وقفزت « ماريا » مرتاعة ، ثم تمالكت نفسها ، وحاولت أن تقرب بين الرجلين اللذين كانت الغيرة تلذع قلبيهما من أجلها .. غير أن « ردريجو » **ـ الذى كان ينظر بامتعاض الى أنها سلمت قلبها لذلك السوقى الوضيع المنبت ـ** ابتدر جويا قائلا : « سنيور جويا .. ستعود اليوم الى مدريد ! » . فانحنى فرانشيسكو نحوه فى سخرية ثم قال : « **ينبغى أن أهنئك** يا دون ردريجو .. غير اننى لا أملك سوى أن أشفق عليك ! » . واذ ذاك استشاط الضابط غضبا ، وصاح فيه قائلا : « اننى أمنعك من أن تتحدث بهذه اللهجة أمام صاحبة السمو .. أحزم متاعك ، وارحل عن هذا المكان فى الحال ! »

وحاولت « ماريا » أن تشرح الأمر لفرانشيسكو ، غير أن الضابط التفت اليه ، وصاح به مرة أخرى : « أخرج من هنا ! » . فأجابه فرانشيسكو فى هدوء ورباطة جأش غريبين : « لست أسمح لأى انسان بأن يتحدث الى هكذا .. اننى أطلب منك أن تسحب ملاحظاتك الوقحة ! » .. وسرعان ما كان الاثنان يتبارزان ، وقد صمم كل منهما على أن يظهر مهارته أمام المرأة التى كانا يتنافسان على حبها ! .. وراح ردريجو يقاتل بمهارة ، غير أن فرانشيسكو استخدم فى قتاله مع غريمه الطريقة التى تعلمها فى مصارعة الثيران ، فما لبث أن جرح « ردريجو » جرحا سطحيا فى كتفه .

وما أن رأى بقع الدم تلطخ بزة الضابط ، حتى اجتاحه فرح وحشى ، وصمم أن يقتله . الا أن صراخ « ماريا » كان عاليا ، فوصل الى مسامع الجنود . وفى الحال اندفع فريق منهم وأمسكوا بفرانشيسكو ، وانهالوا عليه ضربا بمؤخرات بنادقهم ، حتى فقد رشده . ولو لم تصرخ فيهم « ماريا » آمرة اياهم بأن يكفوا ، لقضوا عليه تماما !

***

وقضى فرانشيسكو شهرين فى الفراش بمرسمه فى مدريد . وقد بذلت « بيبا » جهدا محمودا فى الاعتناء به حتى أبل من اصابته . وبعد اسبوعين عاود الرسم من جديد ، الا أن تغييرا شاملا كان قد ألم به ، فرفض أن ينبس بكلمة عما حدث له فى (سولينار) ، كما رفض نصيحة « زاباتر » بأن يزور القصر الملكى كى يحاول استعادة منصبه القديم . **وأخذ يقضى ساعات طويلة من يومه فى رسم مجموعة من الصور ، أطلق عليها اسم « نزوات »** ، تهكم فيها على جميع الناس ، وكل الطبقات ، وهاجم مختلف مظاهر الحياة فى اسبانيا ، مثل استغلال الأثرياء للفقراء ، وجشع الطبقة المتوسطة . بل أن قلمه القاسى هزأ من بطولة مصارعى الثيران فى الحلبة ، وسخر من الزواج .. **غير أن زاباتر وجوانيتو لاحظا أن ملامح دوقة ألبا كانت تبدو بوضوح فى وجه كل فتاة أو امرأة رسمها !**

وفى ذات يوم ، وبينما كانت ريشة فرانشيسكو تخط فى لوحة بعض الخطوط ، وصل الى سمعه ـ من الخلف ـ صوت « ماريا » تناديه باسم التدليل : « باكو ! » .. فلم يستدر نحوها ، وظل منصرفا الى الرسم . فقالت له وكأنها كانت تحدث نفسها : « لست ألومك على كراهيتك لى ، غير أن الوقت قد حان لتعرف الحقيقة .. لم تكن ثمة علاقة بينى

وبين « ردريجو » .. لقد كان ينفذ أوامر صدرت اليه من رئيس الوزراء » . واذ ذاك ، التفت فرانشيسكو نحوها ، وسألها فى تهكم : « وهل كان ينفذ أوامر رئيس الوزراء عندما ترك جنوده يضربونى حتى كادوا يقتلوننى ؟ » . ففامت سحابة من الحزن على وجهها ، وأجابت قائلة : « لقد كانت هذه حادثة مؤسفة .. غير أن الذى يؤلمنى ويحز فى نفسى هو كراهيتك لى ! »

ـ انك مخطئة يا صاحبة السمو .. فلست أحمل لك أية كراهية أو ضغينة .

ـ لا أصدق انك سلوت حبى بهذه السرعة . .لا أصدق انك ترفض الاستماع الى تفسير ما حدث .. ان القضاء يسمح لأعتى المجرمين بأن يقدم تبريرا لما فعله !

ـ ليس هناك ما يستلزم الشرح والتفسير .. يا صاحبة السمو !

ـ اذن ، فالماضى لا يعنيك فى شىء !

ـ اننا نعيش فى الحاضر ، يا صاحبة السمو ! .. لقد مات الماضى ودفن منذ زمن بعيد !

ـ انك تكذب يا « باكو » ، فلقد شاهدت مجموعة « النزوات » التى قمت برسمها .. ان وجهى يبرز فى كل صفحة فيها !

ـ لقد تعلمنا فى المدرسة أن للشيطان عدة وجوه ..

ـ هل تحاول أن تنتقم لكرامتك المجروحة ، بتصويرك اياى فى أوضاع تثير الاستهزاء والسخرية ؟

ـ كلا .. فأننى أرسم ما أشعر به !

ـ سوف تدرك يوما ما ـ كما أدركت أنا ـ أن الحب لا يعرف معنى للكبرياء الزائفة !

***

أدرك رجال محاكم التفتيش أن الزمام يوشك أن يفلت من أيديهم ، نتيجة لانتشار العلم والمعرفة ، فصاروا يترقبون فى لهفة مقدم « نابليون بونابرت » الى اسبانيا ، معتقدين أنه سيعزز قبضتهم على الشعب الثائر .. ومن ثم رأوا أن يقضوا ـ تمهيدا لذلك ـ على الأدباء والفنانين الذين كانوا يبثون بذور الكفاح والثورة ، وعلى رأسهم « **فرانشيسكو جويا** » !

وفى ذات مساء ، ألقى القبض على الرسام ـ دون ما تعليل او تبرير ـ وألقى فى سجن القلعة القديمة ، حيث قضى أياما قبل أن يمثل أمام محكمة التفتيش . .وما أن دخل القاعة ، حتى شاهدها مكتظة بالجماهير التى جاءت مشوقة الى سماع دفاعه عن نفسه . . فلما جلس فى قفص الاتهام ، تقدم منه قس أبيض الوجه ، طويل القامة ، فى ثوب اسود فضفاض .. وسأله : « أأنت فرانشيسكو جويا الفنان الزنديق ؟ » .. فأجابه بهدوء : « **بل أنا فرانشيسكو جويا.. الفنان !** » . وعرض عليه القس ـ الذى كان يمثل الاتهام ـ مجموعة « النزوات » ، فقال الرسام بصوت جهير : « اننى اجاهر امام الملأ بأن هذا من انتاجى » . فالتفت القس الى رئيس المحكمة قائلا :

ـ انه يدين نفسه بلسانه ، وانى لأقدم لهيئة المحكمة المبجلة احدى الصور ، وقد أطلق عليها اسم : « منقار من ذهب » ، وصور فيها جمعا من الرهبان ينصتون الى تبشير ببغاء !

والتفت الى جويا قائلا : « ألا تؤمن بغضب الله ؟ » .

فأجابه الرسام : « **بل أؤمن بمحبة الله !** »

ـ أتزعم انك لا تسخر من الكنيسة ؟

ـ بل اننى أحاول ما استطعت انتشالها من الوهدة التى تردت فيها . لقد شاهدت فى البلدان الأخرى ـ حيث لا نفوذ لمحاكم التفتيش ـ مدى الخدمات التى تقدمها الكنيسة لرعاياها . أما هنا ـ فى اسبانيا ـ فلا تقدم الكنيسة للشعب المعذب سوى التفاهات !

وراح يرد على كل اتهام بتوجيه اتهام آخر الى الكنيسة الاسبانية ومحاكم التفتيش ، فلم يجد ممثل الاتهام بدا من ان يقدم المفاجأة الكبرى .. اذ أمر رجلين ، فتقدما يحملان لوحة مغطاة بقماش سميك .. وقال القس لجويا : « هذه لوحة رسمتها .. صورة داعرة ، فاسقة ، يستنكرها الله والناس ! .. الست تعلم ـ وأنت الرجل النابه المتعلم ـ أن رسم صورة أمرأة عارية خطيئة مميتة ؟ »

ـ فى رأى من هذا ؟

ـ فى رأى محاكم التفتيش .

ـ اذن ، فكل الرسامين العباقرة على مر الاجيال ـ ممن كانوا ابناء بررة للكنيسة ـ قد ارتكبو الخطيئة المميتة ! .. **وقداسة البابا ، وكثيرون من امراء الكنيسة ، يعتبرون ـ على ضوء رأى محاكم التفتيش ـ مذنبين ، لتشجيعهم رسم هذه اللوحات !**

وتململ أحد اعضاء المحكمة .. وساد الوجوم الحضور ، بينما كشف القس الستار عن « الماجا العارية » فسرعان ما سرت فى القوم همهمة اعجاب مذهول .. وصاح جويا فى حرارة : « انها ليست داعرة .. لقد صورت فيها جمال المرأة، الذى اعتبره من جلال الخلق ! .. ان المدعى يحاول ان يظهر اللوحة ، وكأنها عمل مدنس ، **وينسى ان أول عرى فى الدنيا كان من صنع الله ، وان الدنس لم يلحقه الا من عمل الشيطان !»**

وهنا قال رئيس المحكمة : « لقد اخترت لنفسك مهنة **لاتناسبك ياسنيور جويا ، وكان خليقا بك ان تختار لنفسك**

مهنة المحاماة .. ويدهشنى انك لم تقف فى صف بونابرت مدافعا عنه : .. فصاح جويا ، دون وعى : **« لو ان نابليون منحنا الحرية والمساواة ، لما ترددت فى الوقوف فى صفه ! »**

وما أن نطق بهذه الكلمات ، حتى لاحظ ان رئيس الوزراء كان يجلس وسط المتفرجين ، الامر الذى أثار دهشته ، اذ لم يكن من عادته التردد على محاكم التفتيش . ولاحظ « جويا » ان « جودوى » كان يبتسم فى رضا .. فلما سكتت الضجة التى حدثت نتيجة لتصريح « جويا » المذهل ، توجه رئيس المحكمة اليه قائلا انه تلقى من القصر الملكى التماسا باطلاق سراحه ، ومن ثم فان المحكمة تخلى سبيله ، ثم ختم كلامه قائلا : « أرجو ان تتعظ من هذه المحاكمة .. لقد أغدق عليك المولى موهبة رائعة ، حبذا لو استخدمتها فى خدمة الكنيسة والدين ! »

وحار فرانشيسكو فى تعليل هذا العفو : لاشك ان «جودوى» هو الذى سعى لاطلاق سراحه ، ولكن .. ما الذى دعاه لذلك ؟.. على انه سرعان ما عرف الحقيقة . فقد حضر اليه «جودوى » — فور انفضاض المحكمة — وسيماء الظفر تبدو على وجهه ، وقال له : «اهنئك بحصولك على حريتك» . فاجابه فرانشيسكو بقوله : « اننى مدين بحريتى اليك ، يا صاحب السعادة »

— لقد وفيت ذلك الدين مقدما ، دون ان تدرى . لابد انك تعلم أن نابليون يعتزم تسيير جيوشه الى اسبانيا ، وسيصل الى مدريد قبل نهاية فصل الصيف .. **الا ان الكثيرين من النبلاء وعامة الشعب وضباط الجيش يعارضون ماأراه من عدم مقاومة نابليون .. وقد حضر الكثيرون منهم محاكمتك ، لذلك لن ينقضى اليوم قبل أن يعرف الجميع بأمر دفاعك عنه ، واستعدادك للوقوف فى صفه .**

ولما خرج رئيس الوزراء من قاعة المحكمة ،التفت الى مساعده قائلا : « أما زالت «دونا انيتا» تعمل وصيفة لدوقة البا ؟ »

واذ اطمأن « جودوي » الى أن « دونا انيتا » لاتزال فى خدمة الدوقة ، تساءل : « **وهل مازلت تحتفظ بالمسحوق الذى استولينا عليه من الصيدلى الذى أعدم لدسه السم فى شراب زوجته ؟»** .. وواتاه الرد بالايجاب ، فقال له : « اذن ، فأوفد مندوبا الى دونا انيتا، يطلب اليها ان تنفذ التعليمات التى لديها ! »

- ٧ -

وبلغت جيوش نابليون ــ أخيرا ــ الاراضى الاسبانية ، وتوغلت فيها .. واصطفت الجماهير فى شوارع (برشلونة) و(اشبيلية) تشاهد القوات الفرنسية . ولكن احدا لم يهتف للغزاة أو يحتفل بمقدمهم . بل ان بنات « الماجا » اعرضن عن غزل الفرنسيين وانصرفن عنهم .. **ولكن « فرانشيسكو » كان أحد القلائل الذين رأوا فى الاحتلال الفرنسى بداية لخلاص الشعب من سيطرة النبلاء والاقطاعيين** ، حتى انه لم يرفض ان يرسم صورة للسفير الفرنسى ! .. على انه لم تمض ايام قلائل ، حتى اعتقلت السلطات الفرنسية جميع أفراد الاسرة المالكة ، وارسلتهم مخفورين الى فرنسا .

واعتبر الشعب هذا العمل لطمة .. وقبل ان يفيق منها ، فوجىء بتنصيب « جوزيف » ــ شقيق نابليون ــ ملكا على أسبانيا ! .. وتجلى الغدر واضحا ، فصعق الشعب ، وذهل « فرانشيسكو » واهتز ايمانه بنابليون ومبادىء الثورة الفرنسية . .على ان بقية من الامل جعلته يتمالك ايمانه ويتريث .. ولم يطل به الانتظار ، فلم يلبث ان تبين ان كل التطور الذى حدث ، لم يتعد انتقال الحكم من سيد غبي ــ من الاسبان ــ الي

سيد ذكى من الاجانب .. **اما الفرد العادى ، فظل يعانى ما كان يعانيه فى الماضى .. ولأول مرة ، تبين «فرانشيسكو» ان « ماريا » كانت على حق فيما قالته عن نابليون ، وان غرامه بها أضر بقضية الشعب الذى كرس نفسه لخدمته .**

وجافاه النوم ، وعافت نفسه الطعام .. وحاول ان يجد فى الرسم ما يسرى عنه ، ولكنه عجز عن تركيز أفكاره.

وفى ذات يوم ، فوجىء بجوانيتو يعود الى المرسم ، فينعم النظر فى وجهه ، ثم يتحول فى صمت ،ويأخذ فى حزم متاعه .. حتى اذا فرغ ، التفت الى « فرانشيسكو » ، وقال : «امرتاح انت الآن ؟ .. لو ان أحدا أخبرنى بانك - انت بالذات - تقبل التعاون مع الفرنسيين ، لأبيت أن اصدقه ،ولكن اللوحات تشهد عليك ..» . فقاطعه فرانشيسكو قائلا : «أننى فنان ، ارسم ما يروق لى ، وأرفض أن أقدم حسابا الى أحد ! »

وتحول جوانيتو فتناول سكينا كبيرة دسها بين الحذاء والساق ، وهو يقول : « لعلك تعيش فى غير الزمن الذى نعيش فيه .. انهم يسلبوننا القليل الذى نملكه ! .. لست اشك فى أن السفير سيجزل لك العطاء لقاء رسمك اياه، ولكنى اشك فى انك ستستمتع بأموال سرقت من الشعب الاسبانى ! » . واذ لمح الاكفهرار يسود وجه الرسام ، عاد يقول : «لاداعى للغضب ياصديقى ، فاننى مغادرك .. الاتتمنى لى حظا طيبا ؟ »

- بلى ، بالتأكيد .. والى اين ترحل ؟
- الى حيث اقاتل الفرنسيين !
- اتراك فقدت صوابك ؟ .. اتعتقد ان بوسعكم التغلب على جيش قهر جيوش العالم ! .. وبأى سلاح ؟.. بالمدى والسكاكين ؟
- **لقد كنت تتحدث عن المساواة بين العامة والنبلاء ، فها قد**

اصبحنا الآن متساوين فى العبودية ! .. فلماذا لانوحد جهودنا لقتال العدو المشترك ؟ .. ان الجيش الفرنسى يتألف من مائتين وخمسين الفا من الجنود ، فى حين ان الاسبان عدة ملايين .. لقد نفد صبرنا ، ولن نحجم عن ان نهاجم جنودهم اينما وجدو ، وان نقطع عنهم خطوط التموين والامدادات ، وسنرميهم بالرصاص فى الازقة ومن النوافذ .. وان نكف حتى يجلو آخر جندى فرنسى عن اسبانيا ..

ـ لا ازال أعتقد ان علينا ان نتيح لنابليون فرصة لاثبات حسن نيته ..

ـ عندما يسطو لص على منزلك ، فانك لاتقعد حتى ترى ماذا يأخذ ، بل انك تطلق عليه النار قبل ان يستولى على متاعك !

وأخذت الكلمات تدوى فى رأس فرانشيسكو ، بعد انصراف جوانيتو .. وراح يذرع الغرفة بخطوات مضطربة ، ونفسه نهبا للانفعالات .. وفجأة ، سمع طرقات على الباب ، فلما فتحه ، الفى الملازم « دون ردريجو شانسيز » أمامه . وتذكر ماكان بينهما ـ فى اللقاء الاخير ـ فتلفت بحثا عن سيفه ، ولكن الضابط ابتدره قائلا : « لاداعى للسلاح ، فلست احمل سيفا .. اذ صدر مرسوم ملكى ، بتوقيع صاحب الجلالة « جوزيف بونابرت » يحرم على المواطنين حمل السلاح »

وهتف فرانشيسكو ، فى دهشة : « ولكنك ضابط فى الجيش .. »

ـ كنت .. ولكنى لم اقو على العيش فى مهزلة ، وماكان بوسعى ان اسهم فى حفر قبر اسبانيا !

وظلا برهة صامتين ، يتأمل كل منهما الآخر . ومالبث الضابط ان قال : « لعلك مندهش لزيارتى .. انما جئت لاعتذر لك ـ اولا ـ عما حدث فى (سولينار) ، وأؤكد لك انه لم يكن

لى يد فى اعتداء الجنود عليك .. **وجئت ــ ثانية ــ لأنبئك بأن « ماريا كاييتانا » مريضة .. أشد المرض ! »**

وأجفل فرانشيسكو ، ولكنه تمالك مشاعره ، وقال ببرود : « ان هذا يؤسفنى ، وانى لآلم من اجلك ، واتمنى لها شفاء عاجلا ! »

وأوشك ردريجو أن يفقد صبره ، ولكنه تجلد وقال : **« أما زلت تأبى الاقتناع بأنها لم تحب أحدا سواك ؟ » ..** فسأله فرانشيسكو : « أهى التى أوفدتك ؟ » .. وأجابه الآخر : « لا .. بل انها لا تعلم عن حضورى شيئا .. أفتتصور اننى كنت أكتم عن العالم بأسره حبها ــ وهو جل مرادى فى الحياة ــ لو انها أحبتنى ؟ »

وأغمض الفنان عينيه ، وراح يمسح وجهه بيده ، بينما دار « ردريجو » على عقبيه وانصرف . وظل فرانشيسكو وحيدا ، لا يفكر فى غير .. « ماريا » . واستبدت به الرغبة فى أن يراها ، فسعى الى قصر « البا » على قدميه .. واخبرته الخادم التى استقبلته بأن الدوقة كانت تنتظره فى الحديقة .

وألفاها جالسة تحت ظلال الأشجار ، فى ثوب ذى ألوان هادئة .. **وما أن رأته ، حتى هتفت باسم التدليل : « باكو ! » .. وأردفت : « كنت موقنة من أنك ستأتى ! » ..** واندفع نحوها ، ثم ركع على الأرض أمامها ، وقد انعقد لسانه . وإذ ذاك ، تنهدت « ماريا » فى لطف ووهن ، ومدت يديها ، فاحتوت وجهه بين راحتيها .. وظلا ساكنين فترة ، ثم نهض فرانشيسكو قائما ، فأوسعت له « ماريا » مكانا بجوارها على المقعد . واستسلما للصمت مرة أخرى ..

***

وامسك رأسها بين يديه فترة ، وهو يحدق فى عينيها ، فهمست : « ماذا تقرأ فيهما الآن ؟ .. أما زلت ترانى من الساحرات الشريرات ؟ » . فأجابها : « بل أرى الصبح ينبلج بعد ليلة مظلمة طويلة .. أرى أشعة الشمس تنسكب على قصر (سولينار) ، فتحيل الظلام نوراً ! » . وهلع قلبه وهو يتبين شحوب وجهها ، والهالات السوداء التى أحاطت بعينيها ، ولم يلبث أن أضاف : « وأرى فتاة مريضة كذلك ! »

وراح يحاول مغالبة القلق الذى سرى من فؤاده ، ثم سألها . « وما رأى الأطباء ؟ .. هل يعلمون متى تستكملى الشفاء ؟ »

ـ لقد انتهى الآن أقسى انتظار .. انتظار مقدمك . أما الانتظار الباقى ، فسهل يسير !

وأشرق وجهها بالابتسام ، ثم همست : « لكم يؤسفنى اننى لم أمرض قبل وقت طويل ، لأستعيدك ! » . وضاعفت لهجتها قلقه .. وقال يغالب ما به : « لسوف تبلين من مرضك .. أليس كذلك ؟ » . فجاهدت لتخفى ما كان بها ، وقالت : « بالتأكيد ! »

ـ لو كان ثمة خطر ، فلست أحسبك تخفينه عنى .. أليس كذلك ؟

ـ بلى .. ما كنت لأخفيه حتى لا أحرم نفسى متعة تلاوة كلمات الوداع ، التى انتقيتها بعناية ، وحفظتها عن ظهر قلب .. أتود أن تسمعها ؟ .. اليك هى : وصيتى الأخيرة ألا تشعر بوحشة لغيابى ، وألا تفتقدنى ، لأنك اذا انعمت النظر فستجدنى فى وجه كل اسبانى واسبانية .. وهذا ـ فى رأيى ـ تفسير لغز وجهى !

وقهقه فرانشيسكو قائلا : « أأنا الفنان أم أنت ؟ ..

ما صادفت ـ ولن أصادف ـ فى حياتى امرأة مثلك . فمنذ أن قابلتك لم أرسم شيئا ، ولا عملت عملا ، الا بوحى منك ! » . فقالت : « هراء ! .. من الجائز اننى ساعدتك فى ادراك حقيقة نفسك ، والتشبث بها . . ولكنك ما كنت تعجز عن الوصول الى المجد بدونى ! » .. وبعثت عبارتها توجسا انقبض له قلبه فهتف : « ولكننى لن أستطيع المضى فى الحياة بدونك يا ماريا ! »

وكانت قد دبرت كل شىء ، فمرت بأصابعها خلال شعره ، وقالت مصطنعة الانشراح : « ان مستقبلك لم يبدأ الا أخيرا ، وبعد أن فارقتنى .. ولسوف تدرك يوما ما يفعله الفرنسيون بشعبنا ووطننا ، ومع اننى لا أود أن أثير موضوعا قد يقودنا الى خلاف ، الا اننى موقنة من أنك لن تستمر طويلا فى ولائك لبونابرت .. **واذ ذاك ، ستحيا اسبانيا خلال قلمك وريشتك ! »**

وغص حلق فرانشيسكو بالعبرات ، فظل صامتا .. وما لبثت ماريا أن سألته : « هل ستحبنى دائما ، يا باكو ؟ » . فلم يجد جوابا أبلغ من أن يرفع يدها الى شفتيه ، ويقبل راحتها فى عبادة صامتة .. وأشاحت بوجهها حتى لا يرى الدموع تترقرق فى عينيها . . ومع أنها كانت قد وطنت نفسها على الاستسلام للقدر ، عندما تكهن الأطباء بأنها وشيكة أن تموت ، الا أن رغبة جامحة جعلتها تتمنى ان تتشبث بالحياة .. وعادت تسأله : « أتحضر لزيارتى قريبا ؟ » . فهتف : « بل غدا .. وكل يوم ! »

ـ انك تمدنى بسبب يجعلنى أتشبث بالحياة !

وأخيرا ، آن له أن يفارقها ، فطبع قبلة على شفتيها ..

وود كل منهما لو يطول العناق ، الى نهاية الأجل.. وأخيرا ، أفلتها فرانشيسكو وأسرع بالانصراف ، وفى نفس كل منهما هاجس بأنه . . اللقاء الأخير !

- ٨ -

وكان اللقاء الأخير فعلا .. ورفض الفرنسيون أن تقام الصلاة على روح « ماريا كاييتانا » فى النهار ، ومنعوا الجماهير من أن يودعوها ، خشية المظاهرات .. أما « فرانشيسكو » فقد ظل ساعات يهيم فى الطرقات ، وقد كاد الحزن يودى بصوابه . . وفيما هو يتخبط فى أساه ، أبصر الجماهير تنساب فى اتجاه معين ، وهى تهتف : « الموت للطغاة !.. الموت لجودوى . . تحيا اسبانيا ! »

وسار بينهم ، وقد خطر له ـ فجأة ـ انه لم يعد ثمة لديه ما يخشى أن يخسره . . حتى الحياة !

وبلغت المظاهرة الميدان الرئيسى ، فشاهد « فرانشيسكو » ستة من الاسرى ، قيدت أيديهم خلف ظهورهم ، وسار خلفهم عدد من الجنود الفرنسيين ، راحوا يلكزونهم بالبنادق ، ويدفعونهم الى نافورة فى وسط الميدان .. وجرى الدم ساخنا فى عروق فرانشيسكو . ثم لمح ـ فجأة ـ بين الأسرى صديقه « جوانيتو » ! .. وكان يدرك أنه لا يملك لصديقه انقاذا ، ولكنه لم يستطع أن يقاوم رغبة فى نفسه ، فى أن يشعره بأنه يقف الى جانبه ، فهتف بأعلى صوته : « جوانيتو ! »

ومع أن « جوانيتو » لم يستطع أن يميزه بين الحشد ، الا أنه عرف صوته ، فابتسم مغتبطا ، واذ ذاك صاح فرانشيسكو : « ليباركك الله ياصديقى.. وتحيا اسبانيا ! »

فهتف الرجل : « المــوت للطغاة ! » . وسرعان ما زأرت الجماهير مرددة : « الموت للطغاة ! . .لتحيا اسبانيا ! » .
وفى تلك اللحظة ، أصدر أحد الضباط أمرا ، فســاد القوم صمت رهيب .. ثم ارتفع صوته بأمر آخر ، فدوت طلقات نارية .. ولمح فرانشيسكو صديقه يهوى — وسط أقــرانه الاسرى — والدماء تنزف منه !

***

ولكن الشعب لم يستسلم لحكم الارهاب ، فكان الفرنسيون يكتشفون — كل يوم — بعض جنودهم مقطــوعى الرقاب ، وكان ضباطهم يختفون دون أن يظهــر لهم أثر .. وتوحدت قوى الشعب — كما تنبأت ماريا — لمقاومة المحتلين ، فأخذ القوم يغادرون مدريد تباعا الى الجبال ، حيث اجتمعــت قيادتهم تمهيدا لحــرب عصابات مسلحة .. وحــاول الفرنسيون أن يسدوا المنافذ بحراسة مشــددة ، ومع ذلك فقد ظل المناضلون يتسللون ..

وقضى فرانشيسكو اسبوعـــا يقلب الأمر على جميع وجوهه . **فقد عقد العزم — منذ مصرع جوانيتو — عــلى أن ينتقم له ولكل من استشهــدوا فى سبيل قضية البلاد .. فقرر أن ينضم الى العصــابات ، وأن يكرس فنه لخدمــة القضية ! ..** ومن ثم امتطى جواده — ذات صباح — واتجه الى خارج المدينة .. وتصدى له ضــابط فرنسى وثلة من الجنود ، عنــد الحدود . ومـــا أن عرف الضــابط انه « فرانشيسكو جويا » الفنان ، حتى هتف فى عجب : « ولماذا تغادر المدينة يا سنيور جويا ؟ »

— **ان الحيــاة أصبحت لا تطاق هنا .. فلا بد لمهنتى من**

الهدوء والسكينة ، ولذلك أسعى الى مكان منعزل أعمل فيه بعيدا عن اطلاق الرصاص !

ـ ان الجميع يعرفونك مواليا للامبراطور.. فهل ما زلت على مبادئك ، أم تحولت الى صفوف المتمردين ؟

ـ ما زلت كما أنا دائما .. أؤمن بالحرية والأخاء والمساواة !

واذ تأكد الضابط من أن « جويا » لم يكن يحمل سلاحا ، وان حقيبته لم تكن تضم سوى أقلام الرسم والفرش والألوان ، تركه يغادر المدينة ، وهو يقول لجنوده : « خلوا سبيله ، فهو غير مؤذ . .غير مؤذ اطلاقا ! »

وما أن ابتعد « جويا » عن مركز الحراسة ، حتى انطلق مقهقها ، وهو يقول لنفسه : « يا لهم من أغبياء ! .. غير مؤذ اطلاقا ! .. **من المضحك حقا أن الفرنسيين لم يفطنوا الى الدور الذى يستطيع القلم والفرشاة أن يؤدياه فى الصراع ضدهم ! »**



ملكات صنعن التاريخ بغرامياتهن

ابتسامة وحدت مملكة

للمؤرخ الفرنسي المعاصر

جي بريتون



ترجمة وتلخيص : ماهر مينا

عزيزى القارىء :

قد تكون الكتابة فى التاريخ سهلة ، ولكن كتابة ما يستحق ان يقرأ – من التاريخ – من أشق الأمور .. ويبدو – فى بعض الاحيان – ان اقبال الكتاب على هذا الميدان ، قد أستهلك ما فيه من مواد مشوقة ونافعة .. ولكن الكاتب المؤرخ المتمكن من علمه ، والعاشق لفنه ، يأبى أن يقف عند هذه الظاهرة . فيصر على ان يغوص فى أعماق التاريخ ، او ان يضرب فى جوانبه ، **وسرعان مايتبين أن التاريخ اشبه بالمحيط .. بل اشبه بالفضاء ، كلما ارتاد الانسان منه طبقة ، وجد انه لايزال عند ابوابه !**

و ((**جى بريتون**)) – المؤرخ الفرنسى المعاصر – من هذا الصنف الذى لايكف عن ارتياد التاريخ ، وان كان يقتصر فى الغالب على قطاع ضيق من قطاعاته .. القطاع الخاص بفرنسا . وهو قطاع حافل – برغم ضيقه – بالأحداث والقصص والعجائب .. احداث العهود السابقة على المدنية ، وقصص الاقطاع وعهود الملوك ، وعجائب الثورة والانتصارات التى حققتها .. **ثم غرائب النكسات التى أودت بالثورة ومبادئها ، وانتهت بتنكر حاكم مثل ((ديجول)) ، لا لمبادىء الثورة الفرنسية وحدها ، بل لمبادىء الانسانية باسرها ..**

وفى اطواء هذا التاريخ الحافل ، عثر «جى بريتون» – فى بعض جولاته الارتيادية – على ناحية راح ينبش اطواءها ، فخرج بمجموعة عجيبة ، مشوقة من القصص .. **قصص ملكات فى تاريخ فرنسا ، استطعن بالحب ، وبمغامراتهن الغرامية ، ان يساهمن فى صنع**

تاريخ بلادهن ..

والقصة التى نقدمها لك فى الصفحات التالية ، من النوع الأول .. لقد استطاعت ((**ابتسامة**)) لمعت على شفتى فتاة – فى وقت كانت فرنسا فيه مقسمة الى ممالك صغيرة – أن تكون بداية لأحداث وتطورات انتهت بتوحيدها فى مملكة كبيرة !

وقد لخص لك هذه القصة ، الزميل ((ماهر مينا)) .

عائدون من مهمة خطيرة

فى أحد أيام ربيع عام ٤٩٢ ، وفيما كانت الأزهار البيضاء فى أوج نموها وتفتحها بين أحراش بلاد (الفال) ، انطلق خمسه فرسان من مدينة (فالينسيا) ، فاجتازوا مسرعين اقليم (بورجونيا) ، ثم راحوا يشقون طريقهم محاذين نهر (الرون) ، مارين بمدن (ليون) و (ديجون) و (لانجر) ، ثم تغلغلوا فى أراضى الفرنجة .. ودون أن يخففوا من سرعتهم واصلوا رحلتهم ، فاجتازوا مدن (طروا) و (شالون) و (رانس) ، الى ان وصلوا – ذات صباح مشرق من شهر مايو – أمام قصر الملك « كلوفيس » فى (سواسون) ، وقد استبد بهم الاعياء ، وأن ظلوا مشدودى القامة ، مرفوعى الرؤوس ، فى كبرياء واعتداد .

كانوا يحملون نبأ يعرفون انه سيبعث الفرحة والغبطة فى قلب مايكهم الشاب . **فما ان استقبلهم ((كلوفيس)) ، حتى ابتدره أحد الفرسان بقوله : ((لقد عثرنا لك على أجمل امرأة فى العالم !))**

واومضت عينا الملك – الذى كان فى الخامسة والعشرين من عمره – ببريق خاطف ، ثم علت محياه ابتسامة عريضة كشفت عن انياب تشبه انياب البرابرة .. اذ كان البحث قد أعياه عن زوجة تجمع بين ملاحة الخلقة وعراقة الأصل .. وهما صفتان كان يصعب توافرهما فى امرأة واحدة ، فى ذلك الحين !

وما لبث كلوفيس أن تساءل : « وهذه الفتاة .. من يكون أبوها ؟ »

– انه شيلبريك ملك بورجونيا ، الذى كان يحكم ليون .. لكن الفتاة يتيمة الآن !

يقتل اخاه ثم يربى ابنتيه !

وراح احد الفرسان يروى للملك كيف ان « جوندبو » – ملك (ديجون) – ذهب ذات يوم لمحاربة اخيه « شيلبريك » الذى كان يطمع فى مملكته ، فألفاه يتناول الطعام مع اسرته ، وعلى الفور اقدم على عمل وحشى منكر . **اذ انه لم يكد يلمح ملك (ليون) ، حتى سدد الى عنقه ضربة محكمة من فأسه ، فأطاح برأسه واسقطه فى احدى الصحاف المتراصة فوق المائدة !** .. واستغل جنديان – من جنود المعتدى – الفوضى التى استشرت على الأثر ، فاختطفا زوجة الملك الصريع ، وهى لا تكف عن اطلاق صرخات مروعة ، والقيا بها فى نهر (الرون) . ثم اخذ البرابرة يلهون بذبح اولاد شيلبريك وتقتيلهم ، فلم تفلت من الموت غير ابنتين ، احداهما فى الخامسة والأخرى فى السادسة ..

ولم يكن « جوندبو » شديد القسوة – فى اعماق نفسه – فلم يلبث ان رق قلبه لليتيمتين المسكينتين ، فشملهما برعايته وتولى تربيتهما .. وكان ان ارسلت احداهما الى

المدير ، **اما الأخرى ، فكانت تلك الحسناء ذات الجلال والألمعية ، التى وقع بصر مبعوثى كلوفيس عليها فى (فالينسيا) !**

وعاد الملك «كلوفيس» يسأل مبعوثيه : «وما اسم الفتاة؟»

ــ اسمها «كلوتيلد» .. وهى فى الثامنة عشرة من عمرها ، شقراء الشعر ، ذات عينين خضراوين لهما بريق الذهب !

وارتاح الملك لهذه الاوصاف ، فشكر لمبعوثيه جهودهم القيمة ، ثم استدعى صديقه « اوريليان » ــ الذى كان يأنس فيه سلامة التفكير وبراعة المسلك ــ وعهد اليه بالسعى للحصول على موافقة « كلوتيلد » و « جوندبو » على ان تصير الفتاة زوجة له !

« جوندبو » يوافق محرجا ..

ورحل « اوريليان » فى الحال .. ولم تكد تنقضى ايام قلائل ، حتى بلغ (فالينسيا) ، وقد تنكر فى ملابس متسول ، كى يسهل عليه الاقتراب من « كلوتيلد » دون ان يسترعى انظار اتباع «جوندبو» ..

وفى ذات مساء ، وبينما كانت الفتاة توزع الصدقات عند الباب الداخلى للقصر ، دنا منها « اوريليان » ، فقبل طرف ثوبها ، وهو يجذبه فى رفق ليستلفت انتباهها .. وافلح فى ذلك ، اذ دهشت كلوتيلد ، فانحنت لتتبين الأمر . واذ ذاك قال لها الرجل فى صوت هامس : « سيدتى ، اننى اريد التحدث اليك ! » .. فزادت الفتاة من انحنائها ، وقالت : « تكلم ! »

ــ ان الملك كلوفيس يريد الزواج منك ، وقد بعث بى لكى احصل على موافقتك .. وبرهانا على صحة مهمتى ، هاك خاتم الملك !

ــ الى به .. وقل لسيدك ان يسارع الى طلب يدى من « جوندبو » .. وساكون زوجة له !

ولم يشأ مبعوث « كلوفيس » ان يضيع وقتا ، بل رحل لتوه الى (جنيف) ــ حيث كان يقيم « جوندبو » وقتذاك ــ وطلب اليه رسميا ان يوافق على زواج « كلوتيلد » من مولاه .. ودهش ملك (بورجونيا) ، وتملكه الحنق . لكنه لم يجترىء على اغضاب كلوفيس برفض طلبه ، فسأل اوريليان : « ولكن .. ترى هل توافق الفتاة ؟ »

ــ لقد احيطت بالأمر علما ، فلم تتردد فى الموافقة .. ولو انك وافقت بدورك ، لاصطحبتها الى مليكى !

وامتعض « جوندبو » ، اذ لم يعد يجد حجة يتعلل بها ، فأجاب : « اذن ، فاذهب بها اليه ! »

.. ثم يسعى لاسترجاع العروس

وقفل « اوريليان » عائدا الى (فالينسيا) .. وسرعان ما اعدت المركبات للرحيل ، وحملت بكثير من الهدايا الثمينة والاموال ، بمثابة بائنة للعروس .. واتخذت « كلوتيلد » مكانها من المركبة الرئيسية ، وهى مشبوبة الفرحة ، اذ قدر لها ان تغادر (بورجونيا) فى ظروف سعيدة كهذه .. ظروف تجعل منها زوجة للملك طالما سمعت القوم يشيدون باخلاقه وجماله ، ويتغنون بقوته وشجاعته .

ولكن سوء الطالع شاء ان يتدخل .. فقبل ان تقترب القافلة من حدود مملكة « كلوفيس » ، لحق بها فارس اقبل فى سرعة هائلة .. واختلى بكلوتيلد لحظات ، اخطرها خلالها **بأن عمها قد ندم على موافقته على زواجها ، واصر على استرجاعها** . واستطرد قائلا : « وقد بعث الملك فى اثرك **بفرقة يقودها « اريديوس » ، لاعادتك ثانية الى فالينسيا ! »**

وذعرت « كلوتيلد » ، واستبد بها الهلع . فبادرت بترك مركبتها الفخمة ، خشية أن يتيح بطء تقدمها لمطارديها فرصة اللحاق بها .. ولم تتورع عن أن تمتطى جوادا ، وتنطلق فى صحبة « أوريليان » ، مخلفة بائنتها ونفائسها فى جوف الغابة !

و .. تم زفاف الملك !

خمسة أيام بأكملها ، انقضت فى سفر متواصل ، مرهق ، قبل أن تصبح الفتاة فى مكان مأمون ، بعيدا عن متناول « جوندبو » ورجاله .. وبعد أيام قلائل أخرى ، وصلت الى (سواسون) ..

وما أن وقع بصر « كلوفيس » عليها ، حتى بهر بجمالها ، لاسيما حين افتر ثغرها عن ابتسامة زادت من فتنتها ، فاذا بوجنتيه تحتقنان ، وفكيه يرتعشان .. وبادر قائلا لها : « لقد كان من المقرر ان نحتفل بزفافنا غدا ، ولكننى سأعقد قراننا فورا ! »

ومع ان « كلوتيلد » كانت عذراء ساذجة ، الا انه لم يغب عن تفكيرها البرىء ان ذلك التعجل كان ينطوى على شىء من عاطفة غير لائقة ، فتضرج وجهها حياء ! .. وسرعان ما قادتها بعض نساء القصر الى الحجرة التى افردت لها ، فتولين تزيينها ، والبسنها ثوب الزفاف .. ولم يكدن يفرغن من ذلك ، حتى اقتحم « كلوفيس » الغرفة ، وقد استبدت به لهفة طاغية وشوق عارم ..

واسرعت النسوة بمغادرة الغرفة ، فخلا ملك الفرنجة الى سليلة (بورجونيا) الحسناء ، و .. سجلا الرباط الذى عزز وثيقة الزواج !

الحب .. صانع المعجزات !

وعاش الزوجان حياة هانئة ، ذاقا خلالها من مباهج الحب ومتعته ما أسكر روحيهما الوالهنين .. وكان « كلوفيس » عشيقا خبيرا بشؤون الهوى ، فلم يلبث ان استطاع ان يفتح امام « كلوتيلد » أبواب عالم من السعادة الغامرة ، كان مجهولا لديها حتى ذلك الحين .

وارادت هي – اعرابا عن امتنانها – ان ترد له صنيعه بصنيع آخر من لدنها ، فقررت في نفسها أن تسعى جهدها لكي تحمله على أن يتخلى عن وثنيته ، ويعتنق المسيحية . **اذ انها كانت مسيحية شديدة التقوى والتدين ، وكان يشقيها أن ترى « كلوفيس » يعبد آلهة البرابرة !**

وشرعت تبين له – شيئا فشيئا – زيف عقيدته وما كانت تنطوى عليه من ضلال ، مستخدمة طائفة من الحجج القوية ، التى كان يلقنها اياها « سان ريمى » كبير أساقفة الكنيسة فى ذلك الوقت . فما لبث الملك – الذى كان متيما بحب زوجته – ان أقتنع بآرائها ، وآمن بتعاليمها ، حتى انه بات على استعداد لقبول تعميده ، لولا ما كان يخشاه من ان يؤدى انصرافه عن آلهة اجداده الى تعريض سلطانه للخطر ..

ذلك لأن الفرنجة كانوا يرون فى الملوك الذين يحكمونهم ، خلفاء لآلهتهم وممثلين لهم .. وكانت قيادة الشعب وزعامته حقا للآلهة وسلالاتهم دون غيرهم .. ومن ثم ، فان اعتناق المسيحية كان يؤول على محمل التنكر للاجداد ، والتجرد من الانتساب الى سلالة الآلهة .. وبالتالى ، التجرد من الحق فى تولى الحكم .

لذلك كان الملك فى حاجة الى شجاعة بالغة ، كى يقدم على اعتناق دين غير دين قومه . وقد ادركت «كلوتيلد» كل هذه

الأمور ، فآلت على نفسها أن تلهم «كلوفيس» هذه الشجاعة المنشودة ، وان تبث فيه الجرأة وقوة الحجة ، كى يقنع اتباعه وجنوده بمبدأ الفصل بين الحكم والدين .. وقد مضت فى سعيها متذرعة بقوة اليقين والحب !

.. ولكن الطفل مات !

وكانت الخطوة الاولى نحو غايتها ، أن اقنعت الملك بأن يوافق على تعميد أول طفل رزقا به ، وقد اسمياه «انجومير» .. وتراءى لها أن اضفاء مظاهر الابهة والجلال على حفلة العمادة ، قد يقع من نفس زوجها موقعا يساعدها على بغيتها . ومن ثم حرصت على تزيين جدران الكنيسة وارضها بأغلى الستائر وافخم الأبسطة والسجاجيد ..

وافلحت تدابيرها المحكمة فى ايقاع الرهبة فى قلب الملك ، وفى خلب لب رجل بربرى مثله . ولكن .. **لم تكد تنقضى ايام قلائل ، حتى وقع الطفل فريسة لمرض خطير سرعان ما قضى على حياته . فانهار صرح العمل الدائب الذى شيدته الملكة من اجل تحقيق بغيتها .**

وصاح كلوفيس فى زوجته غاضبا ، وهو فى لوعته لوفاة ابنه : « لو ان ولدنا قد كرس لآلهتى ، لظل على قيد الحياة .. ولكن لما كان قد نال طقوس العمادة باسم آلهكم ، فانه لم يستطع ان يبقى حيا ! » .. ولم تضطرب كلوتيلد ، ولا تلعثمت فى كلامها ، بل اجابته بقولها :

ـ اننى احمد الخالق العلى القدير على جميع ما شملنى به من افضال ، اذ اعتبرنى اهلا لأن ارى الطفل الذى خرج من احشائى يشاركه فى ملكوته .. فأنا اعلم ان الأطفال الذين ينقلهم الله الى جواره ، وهم بعد فى لفائفهم البيضاء ، انما يقدر لهم دائما ان ينعموا برؤيته !

واحتار « كلوفيس » عند سماعه هذا الكلام ، اذ أن ما اخبرته به زوجته كان فوق تصوره . ولكن ذلك الايمان العميق الذى لمسه فى « كلوتيلد » الفاتنة ، لم يلبث ان ملأ نفسه باعجاب دافق زاد من حبه لها ، حتى لقد عزم على ان يبرهن لها على هذا الحب دون ما ابطاء !

المرض يصيب الطفل الثانى

وكان ان حقق ما تاقت اليه نفسه . اذ لم تلبث الملكة ان انجبت له طفلا آخر ، اطلقا عليه اسم « كلودومير » ..

واستطاع المولود الجديد ان يعيد الى «كلوفيس» سعادته التى ظل محروما منها منذ وفاة طفله الأول ، فاستغلت « كلوتيلد » تلك الفرصة لتخبره بأن من دواعى فرحها ان يوافق على تعميد الطفل .. ومرة اخرى ، امتثل الملك لرغبة زوجته الحبيبة ، فأقيم حفل فاق فى روعته وبهائه حفل تعميد المولود الأول ..

ولكن « كلودومير » اصيب — فى اليوم التالى — بمرض خطير .. **واذ ذاك فاض الهم بكلوفيس ، فاذا به يصيح فى زوجته فى اسى : « لسوف يحدث لطفلنا هذا ولابد ، ما سبق ان جرى لأخيه .. انه ، وقد عمد باسم الهكم ، سوف يلقى حتفه حتما ! »**

ولم تدر الملكة كيف تخفى ما تملكها من ارتباك وحيرة ، فهرولت الى الكنيسة .. وهناك اختلت بنفسها يومين كاملين ، وراحت تصلى فى حرارة وابتهال .. الى ان قدر لطفلها العليل ان يبرأ من مرضه ! .. وجاء شفاء الطفل فى وقته الملائم . اذ كان كلوفيس قد عقد العزم على الا يعتنق

تلك الديانة التى تعرض حياة معتنقيها للخطر .. الا ان كلوتيلد سرعان ما افلحت فى اقناعه بتغيير موقفه من المسيحية !

الملك يصلى لرب كلوتيلد

على ان الملك ظل يأبى - مع ذلك - قبول المعمودية .. وواقع الأمر ، ان ذهنه كان منصرفا - فى تلك الآونة - الى مسائل كانت تبدو له أكثر أهمية . فقد كانت القبائل الجرمانية ، التى طالما أثارت القلاقل والاضطرابات ، تهدد دواما باجتياز نهر (الراين) والاستيلاء على بلاد (الغال) . .. وذات يوم ، أعلن ان واحدة من تلك القبائل المشاغبة قد حاصرت سهل (الألزاس) .. وقرر كلوفيس على الفور الا يدع فرصة للمعتدين كى يتغلغلوا داخل البلاد ، فأسرع لملاقاتهم على رأس جميع قوات الفرنجة . وما لبث ان اوقف زحفهم فى منطقة تقع على مقربة من مدينة (ستراسبورج) !

• • • • • • • •

وتقول الأساطير انه أثناء المعركة خطر لكلوفيس ، وقد تبين ان العدو يوشك ان ينتصر عليه ، ان يتوجه بصلواته الى « رب كلوتيلد » ، علّه يمد اليه يد النجدة فينزل الهزيمة بالمعتدين .. وما ان انتهى من صلاته ، حتى كان الأعداء قد شتتت صفوفهم ، فولوا الأدبار يجرون أذيال الانكسار والهزيمة . واذ ذاك ، اعتزم ملك الفرنجة اعتناق المسيحية اعرابا عن شكره وعرفانه لرب المسيحيين ، لما حباه به من رعاية أثناء القتال !

غير ان المؤرخين المحدثين ينكرون هذه الواقعة ، ويقررون

ان اعتناق ملك الفرنجة للدين المسيحى لا يرجع الى انتصاره على الجرمانيين الغزاة ، بل الى الحب المشبوب الذى كان يحمله بين جوانحه لزوجته كلوتيلد !

.. وتغير وجه التاريخ !

وعاد كلوفيس الى زوجته ــ بعد انهزم الجرمان ــ فالفاها اشد ما تكون تحرقا الى رؤياه ، وقد اضناها طول الفراق وعذاب القلق .. وبين القبلات المشتاقة والعناق الحار ، راحت كلوتيلد ــ التى كانت ذات عزيمة لا تلين ــ تتوسل الى زوجها فى الحاح واصرار ان يهجر ديانته البربرية . وما زالت تمعن فى توسلاتها ، حتى وافق الملك فى النهاية على ان يتلقى تعاليم الدين المسيحى على يد « سان ريمى » كبير اساقفة الكنيسة !

فلما حل عيد الميلاد فى عام ٤٩٦ ، اقيم حفل ضخم فى مدينة (رانس)، عمد فيه كلوفيس امام حشود غفيرة توافدت من جميع انحاء بلاد (الفال) . وبعد ان احنى الملك العظيم هامته امام كبير الأساقفة ، اقبل ثلاثة آلاف من رجاله ــ بأمر منه ــ ليتلقوا بدورهم مراسيم العمادة . فكان اجراء غاية فى الاحكام والبراعة ، اذ ان دخول الفرنجة فى دين مليكهم ، كان بمثابة اعلان بأن ولاءهم له باق !

على ان ذلك التحول الجوهرى الحاسم ــ الذى كان مرده الى الحب قبل كل شىء ! ــ ما لبث ان اسفر عن نتائج سياسية بعيدة المدى .. ففى وقت كان فيه سائر ملوك البرابرة الآخرين من الوثنيين الكفار ، استطاع كلوفيس ان ينصب نفسه زعيما على الملايين من الكاثوليك الذين كانوا

يقطنون بلاد (الغال) . فجلبت له تلك الصفة مساندة جميع الأساقفة ـ الذين كان نفوذهم عظيما فى ذلك الوقت ـ وساعدته على أن ينتزع من التتر اقليما واسع النطاق ، يمتد من نهر (اللوار) الى جبال (البرانس) !

وقد قدر للقب « ملك الكاثوليك » ان يتيح ـ فيما بعد ـ لأبناء كلوفيس ان يغزوا (بورجونيا) ويستولوا عليها ..

* * * * * * * *
* * * * * * * *

فيا لها من ابتسامة تصنع المعجزات ! .. ذلك لأنه من الممكن القول ـ دون ما مغالاة ـ انه بفضل ابتسامة «كلوتيلد» الساحرة ، استطاعت مملكة الفرنجة ان تحقق وحدتها لأول مرة .. تلك الوحدة التى قدر لها أن تقرر مستقبل فرنسا بأسرها !

الجريمة .. والعقاب



المحاكمات الكبرى

في الماضي والحاضر

عزيزى القارىء ..

قدمت لك فى الاعداد السابقة من كتابى طائفة من القضايا والمحاكمات الهامة ، هى على التوالى : محاكمة ((جورجيت هودو)) ملكة الجمال الباريسية .. فمحاكمة السفاحين ((بيرك)) و ((هير)) .. ثم محاكمة فيلسوف اليونان العظيم ((سقراط)) .. ومحاكمة ((آن بولين)) ملكة انجلترا فى عهد هنرى الثامن ، فمحاكمة ((دريفوس)) .. ومحاكمة ((ستافسكى)) .. ثم محاكمة ((مرجريت فهمى)) .. ومحاكمة ملك انجلترا ((شارل الاول)) واعدامه .. ومحاكمة قاتل راسبوتين .. ثم محاكمة ملك فرنسا لويس السادس عشر .. ومحاكمة قاتل عشيق زوجته (من محاكمات أثينا القديمة) و ((جريمة درب العشاق)) .. و ((جريمة حارة التونى)) .. ثم حلقات من كتاب ((نساء ومآس فى ساحة العدالة)) .

وفى هذا العدد أقدم لك احدى القضايا المعاصرة ، التى اثارت جدلا قانونيا ..

أشهر القضايا الجنائية الحديثة

FAMOUS CRIMINAL CASES BY RUPERT FURNGAUX

القاتل .. الذى حاز عطف الجماهير !

للكاتب والمحقق الانجليزى : روبرت فورنو



عزيزى القارىء :

شعرة بين الاعدام وبين العودة الى الحياة .. شعرة رفيعة ، يتعلق بها المتهم والدفاع ، وقد تحتملهما معا فتنتهى الى ان يرى القضاء ان الجريمة لم يسبقها « عمد ولا ترصد » ، وفى هذه الحال ، يستبعد الاعدام نهائيا من تقديره ، وينصرف الى وزن الظروف التى احاطت بالمتهم وبالجريمة .. وقد يصدر - بعد ذلك - حكما مخففا الى أقصى الحدود !

والمتهم فى القضية التى نقدمها لك اليوم - من كتاب « **اشهر القضايا الجنائية** » ، لروبرت فورنو - كان قد اعتزم القتل .. **قتل زوجته الخائنة ، ولكن الظروف ساقته - على غير توقع - الى قتل عشيق الزوجة ! .. وكان السبب هو : « الاستفزاز »** ..

واثارت القضية ضجة بين الناس والصحف .. ولكن ضجيجها فى الدوائر القانونية والقضائية - فى انجلترا - كان أشد وأقوى .. اذ كان لابد من تحديد لدرجة « الاستفزاز » التى تسمح للمرء بأن ينسى نفسه ويقدم على جريمة قتل ..

من هنا تدرك ان القضية ليست لمجرد التسلية ، ولكنها - فى الوقت ذاته - تنطوى على دراسات نفسية وانسانية وقانونية .. وقد أبدع المؤلف - وهو من اشهر الكتاب الذين يدرسون القضايا ويعرضونها - فى ايراد الاحداث والدراسات بطريقة ممتعة ، لاتذهب برواء القضية كمجرد قصة .. انسانية !

ـ كنت اعلم ان هذا سوف يحدث .. كنت اعلم ان هذا سوف يحدث !

هكذا صرخت الخادم « جيسى كجيرولف » ، وهى تحملق فى فزع الى جثة تاجر الأزياء الثرى « هوراس لندسى » ، وقد وقف الى جوارها « ارنست فانتل » ، ممسكا بمسدس بتصاعد الدخان من فوهته .. وكان مندوبا متجولا لاحدى شركات السياحة ، فى الخامسة والاربعين من عمره ..

وطلب «فانتل» من الخادم ان تستدعى رجال الشرطة ، ثم مكث فى الغرفة حتى حضروا فألقوا القبض عليه .

تعترف لزوجها بانها تحب سواه

• **وفى** قسم الشرطة ادلى فانتل باعتراف مفصل : « لقد تزوجت منذ ثمانية عشرة عاما ، من زميلة كانت تعمل معى فى سلاح الطيران ، واثمر زواجنا ولدا واحدا ، يبلغ الآن الرابعة عشرة من عمره .. وكنا نعيش فى سعادة وهناء حتى شهر يوليو من العام الماضى ، حين التقت زوجتى بـ « هوراس لندسى » ..

« **لقد اعترفت لى زوجتى ـ منذ شهرين ـ بأنها تخوننى مع رجل آخر ، وطلبت منى ان اوافق على الطلاق ، اذ لم يعد بوسعها ان تعاشرنى !** .. وزاد من قسوة الصدمة قولها بانها جاهدت كثيرا فى ان تجتث افتتانها بذلك الرجل من قلبها ، غير انها فشلت !

« وصرحت لى «مس نورما ماكرى» ـ ابنة عم زوجتى ـ ان زوجتى كانت تكثر من التردد على منزل « لندسى » .. وكنت ـ اذ ذاك ـ قد عدت لتوى من جولة قمت بها فى بلدان

اوربا ، بتكليف من الشركة التى اعمل بها . فلما سمعت هذا الكلام كذبت اذنى ، غير اننى لم البث ان تقصيت الأمر ، فتأكدت من ان زوجتى قد عزمت - فعلا - على الزواج من عشيقها ، فور حصولها على الطلاق . **واذ كنت احبها حبا جنونيا ، فقد تملكتنى رغبة عارمة فى ان اقتلها ! ..**

« وفعلا ، انتهزت فرصة قيامى بجولة اخرى فى اوربا ، فابتعت مسدسا من سويسرا .. »

الزوج يتوسل .. والعشيق يتعالى ويحتقر !

• **واستطرد** فانتل فى اعترافه قائلا : « وما ان عدت الى انجلترا ، حتى اتصلت تليفونيا بعشيق زوجتى ، طالبا منه ان يحدد لى موعدا للقائه .. واعتذر - فى بادىء الامر - بأن وقته لم يكن يسمح له بذلك ، غير انه وافق أخيرا على ان اذهب لزيارته فى مسكنه ، فى العاشرة من صباح البارحة .. وفى الموعد المحدد ، خرجت قاصدا ذلك المسكن ، بعد ان عبأت خزان المسدس بالرصاص .. ووصلت الى هناك فى الساعة العاشرة الاعشر دقائق . واذ قادتنى الخادم الى الداخل ، وجدت غريمى جالسا فى مقعد مريح . **فما ان وقع بصره على ، حتى سألنى فى برود عن سبب حضورى .. وقبل ان اجيب ، اردف قائلا اننى احاول عبثا ان استرد منه زوجتى .**

« ورحت أتوسل اليه ان يترك زوجتى وشأنها .. وفى محاولة يائسة لأن الين قلبه ، تحدثت اليه عن حياتنا الزوجية ومستقبل طفلنا . غير انه لم يعر توسلاتى اهتماما ، وأجاب بأنه **يتكفل بأن يولى طفلى الرعاية اللازمة ! ..** ثم نهض من مقعده - وهو ينظر الى فى ازدراء مهين - معلنا انتهاء الزيارة . فلم اشعر الا وقد سحبت المسدس من

جببى ، وصوبته نحو راسه ، ثم ضغطت الزناد .. غير ان الرصاصة طاشت ولم تصبه . فأطلقت رصاصة أخرى نحو صدره ، واذ ذاك تعثر ، واتجه نحو الباب محاولا الفرار ، فلم البث ان اطلقت عليه رصاصة ثالثة اخترقت جمجمته ، فسقط على الأرض صريعا ! »

اعتراف الزوجة بالخيانة لايبرر قتلها

• **وعرضت** الجريمة امام القضاء ، فأثارت عاصفة من تعليق الصحف والرأى العام على السواء .. ودار الجدل حول مدى « الاستفزاز » الذى يجب أن يتعرض له القاتل قبل اقدامه على جريمته ، فيكون شفيعا فى التخفيف من شناعتها ، **ويحولها من جريمة « القتل العمد مع سبق الاصرار والترصد » ، الى جريمة « ضرب أفضى الى موت » !**

ذلك أن القانون الانجليزى ـ قبل عام ١٩٤٧ ـ كان يتطلب من القاتل الذى يستخدم فى جريمته سلاحا مميتا ، ان يثبت بما لا يدع مجالا للشك ، انه أقدم على فعلته عند مواجهته خطر الموت او الأذى الجسيم . كما كان ينص ايضا على أن « الاستفزاز » يجب أن يتخذ شكل الاعتداء البدنى ، فيما عدا حالة واحدة استثناها القانون ، وهى **مفاجأة الزوج لزوجته متلبسة بجريمة الزنا** .. أما اعتراف الزوجة لزوجها باقدامها على خيانته ، فانه ـ فى حد ذاته ـ ليس كافيا لتبرير الجريمة !

الدفاع يعرض عناصر الاستفزاز

• **وتألفت** هيئة المحكمة من القاضى « سالمون » ، و « مستر كريسماس همفريز » ممثلا للاتهام ، و « مستر فيكتور دوراند » ممثلا للدفاع .. وقد قام الدفاع بمهمته

خير قيام ، فاستعرض أمام المحلفين وقائع الجريمة ، وقدم اليهم من يوميات المتهم ، والبيئة التى عاش فيها ، والظروف التى صادفته ، ما يثبت ان مستر « فانتل » - الذى عرفه الجميع رجلا مستقيما يتمتع بأخلاق قويمة لاغبار عليها - قد تعرض لدرجة من الاثارة والاستفزاز ، يطيش لها صواب أعقل الناس وأكثرهم اتزانا !

كانت يومياته تنطق بالعذاب والمهانة اللذين كان ينوء تحت وطأتهما . فهو يقول فى أحداهـا : « .. لقد فترت العلاقة بيننا ، فهى لم تعد تلمسنى أو تداعبنى » . وفى اخرى يقول : « **مضت ساعتان منذ خرجت .. اننى لا أحب ان اسبب لهما حرجا ، او ادبر لهما كمينا .. اننى ارى النهاية قادمة فى الطريق .. فهى قد رفضت حبى وأذلت نفسى !** » .. كما قال فى ثالثة : « .. ان راسى يكاد ينفجر .. لقد أصبحت افتقد الحب والحنان .. انها تنظر باحتقار الى كل اعمالى وآرائى .. لقد تعودت أن تصدر الى اوامرها »

ضعف الزوج .. وجرأة الزوجة !

• وعرض الدفاع - من يوميات المتهم - الوانا مما كان « فانتل » يحتمله من عذاب وذلة وهوان :

٢٥ مايو : « .. انه أسود يوم فى حياتى .. سوف يتم الطلاق فى خلال أربعة او خمسة اشهر ، وقد قبلت أن ابدو بمظهر المذنب .. لقد تبلبل عقلى .. **انها لم تحاول ان تسأل نفسها عما يحدث لو اننى رفضت الموافقة على الطلاق ، فهى تعتبر رضوخى لرغبتها امرا مفروغا منه ..** »

٢٦ مايو : « لقد تحطم بيتى ، وفقدت أسرتى ، وانا فى الخامسة والأربعين من العمر ، فكيف أبدأ من جديد؟ .. اننى لا افتأ اسائل نفسى : كيف انها لم تول حياتنا الزوجية



القاتل : ارنست فانتل

– التى دامت ثمانية عشر عاما
– ادنى اهتمام ؟ .. **لقد صارت ترفض النوم فى فراشى ، اذ انها تعتبرنى قد شخت ! ..**

« أن الطفل والزوجة يمثلان – من وجهة نظرى – وحدة لاتتجزا ، لذلك فلست اكتفى بأنصاف الحلول .. اما أن أحصل على كل شىء أو لاشىء .. اننى لازال احتفظ فى قلبى بشعور من الواجب والشرف ، فليس بوسعى ان اخذل ايا منهما .. لقد كنت دائما على استعداد لأن أضحى بكل مشاعرى وروحى وجسدى على مذبح أهواء ونزوات المخلوق الوحيد الذى احببته .. أعنى « سيلفيا » ! .. غير اننى أثق تماما من ان كل ما أقدمت عليه « سيلفيا » كان وليد تفكير وتدبير سابقين ، لذلك لايسعنى ان اتقبل عذر « الافتتان » الذى ابدته !

الذنب ليس ذنبها .. بل ذنب الوراثة !

• « لماذا لا تصارحنى بالحقيقة ، فتقول لى : « لقد ضقت ذرعا بحياة الفاقة والعوز التى اقاسمك اياها ، تحت رحمة زوج لاتنتهى مطالبه ، فى الوقت الذى لايكتسب فيه مايقيم أود أسرته ؟ ! » ..

« لماذا لاتواجهنى قائلة : « **لقد عثرت – اخيرا – على الرجل الذى يحقق لى كل أحلامى .. رجل ثرى ، فى ريعان شبابه ، لا يرجو منى ان اطهو طعامه او أكوى قمصانه ، يوما بعد آخر ؟ !** » .. بل لماذا لايحضر عشيقها ليلاقينى ؟ .. ايجبن عن ان يقاتل فى سبيلها ؟ .. لمن ابكى وبمن أستنجد ؟

« ان الزوج الانجليزى المخدوع يعمد – فى مثل هذه الظروف – الى مقاضاة عشيق زوجته ، طالبا منه تعويضا ماديا عن الاضرار التى لحقته ، فتغدو القصة – حينئذ – مادة للصحف والمجلات الصفراء ، تتناولها بحثا وتعليقا .. و « سيلفيا » تدمن قراءة هذه القاذورات . **اليست هى التى قالت له : « دعه لى ، وانا الكفيلة بأن اسوى حسابى مع هذا المغفل المكتهل ؟ فلماذا انتظرت كل هذا الوقت قبل أن تصارحنى بالحقيقة ؟** .. لا ريب فى انها ارادت التأكد من حقيقة مشاعره نحوها ، وأنه على استعداد لان يتزوجها بعد أن تحصل على حريتها ، دون ان تعنى بالتفكير فيما تؤول اليه حياتى بمفردى .. الحق انها قتلت فى نفسى شيئا لا سبيل الى استعادته ، غير ان الذنب ليس ذنبها ، فلقد ورثت اخلاقها وطباعها عن والديها ! »

عندما يجتمع الحقد والحب

• **وتطرقت** « اليوميات » تدريجا الى حديث القتل ولكن .. قتل الزوجة لا عشيقها :

« ان حبى الطاغى لها يكاد يفقدنى رشدى .. اننى افكر احيانا فى قتلها او تشويه وجهها ، انتقاما لما قاسيته خلال ثمانية عشر عاما ، من نيران الحب .. ذلك الحب الذى لم تستجب له ، بل تجاهلته وقابلته بالصد والاحتقار ! .. اعتقد

انه لن يمضى وقت طويل حتى افقد صوابى تماما .. ان اشد ما تعذبنى هى تلك الاسئلة التى لا تنفك تطاردنى وتطرد النوم من جفونى : **أتراها تستسلم له كلما رغب فى ذلك؟.. وهل تهرع اليه فى كل مرة يبعث اليها بصفيره ؟.. واين ضاجعها فى أول مرة ؟.. أتكون هى التى تطارده ؟.. لكم اخجل من الاعتراف بأن زوجتى تخوننى مع رجل آخر !**

« لماذا تصر على جلب العار الى عائلتى ؟.. ان (ل) المحظوظ يبدو واثقا من نفسه ، بينما اكتوى انا بنيران الشك .. لقد صار قلبى باردا وقاسيا ، بالرغم منى ، فقد تمزق شيء داخل صدرى ، ولم يعد يملأ روحى سوى المرارة والحقد .. غير اننى لا أستطيع ان أسلو حبها ، فما زلت أعشقها بجنون !

« لماذا لم تكتف معه بمغامرة عابرة ، بدلا من ان تهجر منزلها فتذل زوجها وتيتم طفلها؟.. **لقد كنت على استعداد لان أغفر لها زلتها . غير انها لا تحب شخص حبيبها فقط ، بل تحب نقوده أيضا !..** اننى أتمنى — فى بعض الاحيان — ان تثوب الى رشدها ، وتعود الى مرة اخرى ، غير اننى لا البث ان ادرك ان عقلى المريض هو الذى يصور لى هذه المعجزة ، اذ انها ما كانت لتعاشره معاشرة الازواج لو لم تكن مغرمة به !.. لقد فقدت عقلى .. ان عينى محتقنتان كأن فيهما نارا ، وعقلى يطن .. ترى هل اصبت بالحمى ؟! »

.. تشهد ضد ابنة عمها !

• **وبعد** ان انتهى مستر دوراند — ممثل الدفاع — من قراءة تلك الفقرات من يوميات المتهم أمام المحلفين ، استدعى للشهادة « مس نورما ماكرى » ، ابنة عم مسز فانتل .

فسردت على هيئة المحكمة ما كان يكتنف العلاقة بين الزوجين من متاعب .. وكيف حاولت التوفيق بين الزوجين ، غير انها سرعان ما ادركت ان العقبة الرئيسية التى كانت تقف دون عودة المياه الى مجاريها بينهما ، هى علاقة الزوجة بعشيقها .

وعندئذ سألها « مستر دوراند » قائلا : « بمعنى آخر .. ان الهناء العائلى الذى كان يسود الزوجين ، قد تحطم على صخرة علاقة الزوجة بعشيقها ! » . فأجابت : « نعم »

— وهل كان سلوك الزوج — يوم ١٩ يوليو — مغايرا لسلوكه المعتاد ؟

— نعم .. لقد كانت ابنة عمى مفتونة بلندسى .. **اما فانتل، فلا أستطيع ان انطق فيه سوءا .. أننى لم أره يوما ثائرا او فاقد الشعور .. نعم ، لقد كان سلوكه فى ذلك اليوم يختلف عن سلوكه المعتاد !**

وقال مفتش الشرطة « هنرى رولنج » فى شهادته ، ان كثيرا من الخطابات وصلته من اناس كانوا على صلة بفانتل، اشادوا فيها بأخلاقه . كما شهد المفتش « رايموند دراج » بأن سلوك « فانتل » بعد ارتكاب الجريمة كان مجردا من الشماتة او اية رغبة فى الانتقام ..

« وعندئذ سأله مستر « دوراند » قائلا : « كيف تصف خدمته فى الجيش ؟ .. هل كانت رائعة ؟ » . فكان جوابه : « نعم .. رائعة ! » .. وعاد ممثل الدفاع يسأله : « وهل كانت أخلاقه ممتازة ؟ » .. ومرة أخرى ، أجاب : «نعم» .

آخر ليلة للقتيل مع عشيقته

• **وبعد** ذلك استدعيت « دوروثى جيسى كجيرولف » التى كانت تعمل فى خدمة القتيل ، لاداء شهادتها . فقالت

ان « فانتل » حضر لزيارة مخدومها ، فقادته الى الداخل ، ثم تركتهما معا .. وبعد قليل ، وصل الى سمعها صوت اطلاق النار . فسألها « دوراند » عما اذا كانت مسز فانتل قد اعتادت التردد على ذلك المسكن . وأجابت : « نعم .. لقد كانت تداوم على زيارة المجنى عليه .

ـ وهل كانت تبيت هناك احيانا ؟

ـ نعم .

ـ ومتى كانت آخر مرة قضت فيها الليلة هناك ؟

ـ فى الليلة السابقة للحادث !

هكذا كانت حياته تسير ..

• **واذ** انتهت الخادم من اداء شهادتها ، استدعى المتهم ، فروى امام هيئة المحكمة قصة حياته : فقد ولد فى (براغ) عاصمة تشيكوسلوفاكيا من أبوين ثريين . فلما انتهى من دراسته . هاجر الى أمريكا حيث قضى بعض الوقت ، ثم عاد الى وطنه . وهناك التحق بسلاح الطيران التشيكوسلوفاكى . ولما كان يتقن الكثير من اللغات الاجنبية ، فقد عين بالمخابرات . **غير ان الحرب ما لبثت أن نشبت ، وافنى النازيون عائلته بأجمعها .. وكانت تتكون من ثمانية وثلاثين فردا ، لم ينج منهم سواه .** فكان الوحيد الذى تمكن من الفرار فى الوقت المناسب الى انجلترا ، حيث عمل بسلاح الطيران البريطانى .

ولكن ما أن خمدت الحرب حتى عاد مرة أخرى الى وطنه ، فعمل كضابط اتصال بالجيش الامريكى . وفى عام ١٩٤٢ تزوج .. وقد حاول الشيوعيون فى عام ١٩٤٨ أن يختطفوا زوجته وابنه ، لكنه استطاع ان يفر الى انجلترا ، بعد ان

ترك خلفه كل ثروته وممتلكاته ، فالتحق مرة اخرى بسلاح الطيران البريطانى ، واستمر يعمل به حتى عام ١٩٤٨ .

المسدس كان مصدرا للشعور بالقوة

• **واستطرد** « فانتل » قائلا انه فى اليوم التاسع من شهر يوليو ، تأكد من ان حياته الزوجية قد انتهت . ثم وصف وضع ابنه بأنه كان ((**مزعزعا**)) .

وعندئذ سأله مستر دوراند : «لماذا اشتريت المسدس؟»؛ فأجاب قائلا : « لقد كانت الرغبة فى قتل لندسى تنازعنى منذ وقت طويل ، اذ كنت اشعر بضعف موقفى أمام غريمى الذى كان يقبض فى يده على مصير اسرة بأكملها . غير ان الشجاعة خانتنى فنبذت فكرة القتل . **ولكن ، لما كانت زوجتى مفتونة به ، فقد كنت فى حاجة الى ما يبث فى نفسى بعض القوة ، فاعتقدت ان مجرد حملى المسدس كفيل بأن يحقق لى ذلك ! .. »**

ولقد قضى فانتل حوالى ثلاثة ارباع الساعة ، أمام مسكن القتيل ، مترددا فى الدخول ، ومحاولا ان ينقب فى ذهنه عما يتعين عليه أن يقوله لعشيق زوجته . واخيرا ادرك ان اقدامه على قتله لن يجديه شيئا ..

بين الزوج والعشيق !

• **ومع ذلك** فقد شعر بانه لابد من ان يلقى غريمه .. واستطرد قائلا : « لم أكن — حتى تلك اللحظة — ابيت له شرا ، بل نسيت تماما المسدس الذى كنت أحمله ، **بل لم افكر اطلاقا فى أى شىء سوى موضوع الطفل** .. وعندما دخلت ، وجدت لندسى جالسا فى مقعده . ولم يحاول ان ينهض عندما شاهدنى . وكان يرتدى ملابس الخروج .. واشار الى كى اتناول لفافة من التبغ ، غير أننى بادرت فى

الحال الى سؤاله عن مستقبل الطفل ، فأجاب قائلا **ان الطفل سينال حظا وفيرا من التعليم ، وانه يترك لى حرية رؤيته كلما رغبت فى ذلك !**

« وفجأة تحول مجرى الحديث الى موضوع زوجتى ، فسألته عما دعاه الى انتزاعها منى ، **فنظر الى باحتقار ثم هز كتفيه فى برود ، وقال انها هى التى تطارده . ثم أخذ يتباهى بأنها قضت الليلة السابقة فى فراشه .. وكانت تلك الليلة هى عيد زواجنا الثامن عشر ! ..**

« وما لبث لندسى أن نهض ، ونظر الى ساعته ، وقال أن موعد الزيارة قد انتهى . ثم أشار نحو الباب .. ولا أدرى ماذا حدث بعد ذلك ، حتى سماعى صراخ الخادم ، ووصول رائحة البارود الى خياشيمى ! » ..

لا يزال يعبد زوجته ! ؟

• **وقرر** « **فانتل** » انه لم يستعد حواسه تماما الا فى قسم الشرطة ، بعد مرور ساعة على ارتكاب الجريمة .. كان فى غيبوبة لا يعى شيئا ، اذ أن لندسى اهانه ومرغ كرامته فى الرغام .. فلقد عيره بمسلك زوجته ، ثم سخر منه ، واخيرا .. طرده من المنزل !

وكان فانتل يدلى بأقواله والتأثر باد على محياه ، ثم قال بعد فترة صمت : « لقد كنت ــ وما زلت حتى الآن ــ اعبد زوجتى ! »

وعندئذ سأله مستر دوراند قائلا : « ما الذى تسبب فى اصابتك ــ وأنت فى الخامسة والاربعين ــ بهذه الحالة التى تصفها ب « الغيبوبة » ، والتى افقت منها بعد قليل ؟ » .

فأجاب فانتل قائلا : « أعتقد انه مسلك لندسى نحوى ..

فلقد شعرت بمذلة بالغة ، لم أصادف مثلها فى حياتى من قبل!»

ــ وماذا كنت تنتوى ان تفعل عند ذهابك الى مسكن القتيل ؟

ــ **كنت أرغب فى استعادة زوجتى وابنى !**

وكانت مرافعة ممثل الاتهام اقصر مرافعة فى مثل هذه الجريمة ، فقد اكتفى بسرد وقائع القضية ، ولم يحاول حتى ان يفند اقوال المتهم عن « الاستفزاز » الذى تعرض له . وختم مرافعته بقوله : « لا اعتقد انه يوجد هناك ما يضاف الى ما سبق . ولست انوى أن أخاطب المحلفين مرة أخرى!»

محامى المتهم يتكلم ..

● **وعندئذ** وقف محامى المتهم وأخذ يترافع قائلا : « لقد كان حب المتهم لزوجته وابنه ، هما كل ما تبقى له فى هذه الدنيا ، بعد أن تسببت الحرب فى فقده ثروته وممتلكاته ووطنه . فلا عجب ــ اذن ــ فى ان يتشبث بهما ، وان يحاول جاهدا استعادتهما . اننا نصادف فى حياتنا كثيرا من المنغصات ، غير اننا لم نسمع اطلاقا قصة تثير اشفاقنا مثل هذه ، ولا استفزازا مثل الذى تعرض له « فانتل » فى مسكن القتيل ، المؤثث فى بذخ واسراف ! .. »

وتحول يهاجم لندسى قائلا انه من ذلك النوع من الناس الذين يقطنون مسكنا يبلغ ايجاره أربعين جنيها شهريا ، ويقتنون سيارة من طراز « بنتلى » بيضاء اللون ، ويحيون حياة السلاطين ، ولا يتورعون عن السطو على اعراض الأزواج الهانئين . فاذا ما حضر اليه أحدهم متوسلا اليه ان يبتعد عن زوجته ، عامله معاملة فظة !

القاضي يشيد بتضحيات المتهم

• **بعد** أن ختم الدفاع مرافعته ، وجه القاضى الى المحلفين كلمة قال فيها : « **لا أعتقد انه يوجد بينكم من لا يعتمل فى صدره شعور بالاحتقار نحو القتيل** ، فلقد قدم الدفاع وقائع ثابتة ، تبين كيف حاول عامدا تحطيم حياة المتهم العائلية .. ان فانتل عندما يمم شطر مسكن القتيل ، لم يكن ينتوى قتله ، فقد ادرك ان قتله لن يجديه شيئا ! .. وقد اثبتت أقواله ـ التى لم يتقدم شاهد واحد لتفنيدها ـ ان لندسى قد تصرف تصرفا بشعا ! .. **كما تثبت ـ ايضا ـ ان فانتل لم يكن واعيا لما فعل ، بل ولم يدرك تماما حقيقة ما كان ينتويه عند ذهابه الى مسكن القتيل** . فلما دخل ، قوبل بأسوأ معاملة تخطر على بال انسان ..

« ان عليكم ان تضعوا فى اعتباركم ان المتهم قاسى الكثير فى حياته ، كما قدم للعالم خدمات جليلة أثناء الحرب ، فى الوقت الذى فقد فيه كل ثروته وممتلكاته . غير انه لم يكن يولى خسارته الفادحة اهتماما ، اذ بقى له شيء يفوق كل كنوز الدنيا قيمة ، وذلك هو حياته العائلية الهانئة بين زوجته وابنه . **فلما تعرضت للتحطم سعى الى مسكن القتيل تحدوه رغبة واحدة ، وهى انقاذ ذلك « الكنز » !** .. غير أن معاملة القتيل السيئة له ، ومباهاته بأن زوجته قضت الليلة السابقة فى فراشه ـ ليلة عيد زواجهما الثامن عشر ـ أفقدته وعيه ، وجعلته يخرج المسدس من جيبه ، ويطلق عليه النار ثلاث مرات ! »

« الاستفزاز » هو العامل الجدير بالدراسة

• **واستطرد** القاضى سالمون يقول ان محاكم الطلاق تشهد الكثيرين ممن يستحقون العقاب ، ولكن .. « لو ان

كلا منا نصب نفسه قاضيا ، ونفذ القانون بيده ، لعمت الفوضى ولما استقام الوضع !

« .. وقد تعتقدون ان ظروف هذه القضية تختلف عن مثيلاتها ، الا ان الموضوع الرئيسى الذى يجب ان نوليه الدراسة الوافية هو : «هل كان **الاستفزاز** الذى تعرض له المتهم كفيلا بان يفقده رشده ، بغض النظر عن مدى احتقارنا للقتيل او اشفاقنا على المتهم ؟ » .. وما ان ختم القاضى كلمته ، حتى انسحب المحلفون الى غرفة جانبية ، ليدرسوا القضية ويقرروا نوع الجريمة .

والآن .. فكر مع المحلفين !

• **ويحسن** بالقارىء هنا ان يعيد النظر فى وقائع القضية ، وان يضع نفسه مكان المحلفين فى دراستهم للموضوع :

لم يكن هنالك شك فى ان « فانتل » اطلق النار على لندسى ؛ فلقد اعترف بذلك اعترافا مفصلا ، كما انه اشترى مسدسا خصيصا لهذا الغرض . بيد انه لم يكد يصل الى مسكن القتيل حتى عدل عن عزمه .. **وهناك عامله القتيل بفظاظة كما لو كان ((قذارة)) ، وهز كتفيه ثم اشار له نحو الباب !**

لقد كان من حق المحلفين ان يخففوا من نوع جريمته ؛ فيحولوها الى جريمة ((**ضرب افضى الى موت**)) ، ولكن لم يكن بوسعهم ان يبرئوه تماما . وقد نص القانون على ان **الاستفزاز** يجب ان يكون قويا بدرجة تفقد المتعرض له رشده وارادته . لذلك كان على المحلفين ان يضعوا فى اعتبارهم نوع السلاح المستعمل فى الجريمة ، والوقت الذى انقضى بين وقوع الاستفزاز وارتكاب الجريمة . **اما الدفاع فقد كان يتعين**

عليه ان يثبت – بما لا يدع مجالا للشك – ان « فانتل » كان فاقد الوعى اثناء اقدامه على القتل ، بينما القى القاضى على عاتق المحلفين تقرير ما اذا كان ذلك الاستفزاز كفيلا بأن يفقد اى شخص عاقل ، رزين ، رشده وسيطرته على نفسه ، لو انه كان فى مكان « فانتل »

. . . .

. . . .

ولم يجد المحلفون صعوبة فى الوصول الى قرار .. فلم تمض اكثر من ثمانية دقائق حتى عادوا الى قاعة المحكمة . ووقف أحدهم وقرأ على الملأ قرارهم الاجماعى الذى **ادان المتهم بارتكابه جريمة ضرب لندسى ضربا افضى الى موته .** وعندئذ اصدر القاضى حكمه الذى كان يقضى على « فانتل » **بالحبس لمدة ثلاث سنوات .**

وقبل ان تفض الجلسة ، توجه القاضى بحديثه الى السجين قائلا : « لا ينكر احد انك تعرضت لاستفزاز عنيف من القتيل ، غير ان هذا لا يبرر ان تمسك بالمسدس وتطلق عليه النار ثلاث مرات. ولولا الظروف المخففة فى هذه القضية ، وسجلك الرائع اثناء الحرب . لشعرت ان من واجبى ان اصدر عليك حكما اشد قسوة ! »

لو صبر القاتل .. !

• **غير انه** ما زالت للقصة بقية : فقد مات « هوراس لندسى » بعد ان جمع ثروة تقدر بحوالى ربع مليون جنيه . غير ان تلك الثروة لم تجده شيئا ، فلم تحل دون قتله فى مسكنه . ولما مات لم يخلف شيئا لزوجته السابقة او

لعشيقته « مسز فانتل » ! .. **كل ما خلفه وراءه خمسمائة جنيه للفتى الذى كان يرافقه أثناء لعبه «الجولف» ، ومثلها للسفرجى !**

وقد علقت زوجته السابقة على القضية بقولها : **« لقد كان لندسى أجبن رجل رأيته فى حياتى ! ..** لو كان « فانتل » يعلم مدى جبنه لما ارتكب جريمته ! .. لو أنه هدده فقط قائلا : « دع زوجتى وشأنها وإلا حطمتك ! » ، لما تردد فى اطلاق ساقيه للريح والهرب بعيدا » ! !





من حياة
الشعوب

عزيزى القارىء ..

قدمنا لك فى العدد الماضى جانبا طريفا من حياة الشعب اليابانى ، يتمثل فى عادة شرب الشاى ، التى وضعوا لها - هناك - قواعد وطقوس ، تجعل منها عقيدة بذاتها .

واليوم ، نقدم لك جانبا آخر ، يصور قطاعا من حياة الشعب التركى ، **ويتمثل فى الحمامات الشعبية - المخصصة للنساء - المنتشرة فى المدن التركية ..**

وقد اخترنا لك فصلا من كتاب شيق ، ظهر بالانجليزية منذ سنوات ، واعيد طبعه اكثر من مرة ، بعنوان : **لوحة لأسرة تركية**

A PORTRAIT OF A TURKISH FAMILY

للكاتب التركى المعاصر : **عرفان اورجا** . وقد ولد « عرفان » بمدينة (استانبول) فى ١٩٠٨ ، وخدم فترة بسلاح الجو التركى ، الى ان عين ملحقا جويا بالسفارة التركية فى لندن . لكنه ما لبث ان استقال من عمله فى عام ١٩٤٧ ، وآثر ان يتفرغ للكتابة والتاليف .

وفى هذا الكتاب - وهو باكورة انتاجه - يرسم « عرفان اورجا » صورة حية شيقة للمجتمع التركى ، خلال النصف الاول من هذا القرن . وهو يعرض الصورة من خلال حياته هو ، مستمدا عناصرها من محيط اسرته .

والصورة التى رسمها الكاتب لحمامات النساء فى تركيا ، لا تقل طرافة ، عن باقى صوره ولوحاته ، التى حفل بها كتابه ، ذو الصفحات الست والثلاثمائة ..

فحمام النساء هناك ـ كما صوره لنا عرفان ـ مكان جدير بالدراسة .. **اذ تلتقى فيه طبقات الشعب على اختلافها ، وتعقد فيه الصداقات والزيجات ، كما تدبر بين ارجائه ـ احيانا ـ المؤامرات والخلافات العائلية** .. هذا ـ وغيره ـ ما ستلمسه بنفسك فى الصفحات التالية التى لخصها لك الزميل : **على شلش**

يوم فى حمام تركى

• **اعتادت** جدتى ـ لأمى ـ أن تتردد على الحمام ، كلما عاودتها حالة الانسجام التى كانت تلم بها من حين لآخر .. وكان ذلك يحدث ـ عادة ـ بواقع مرة واحدة كل اسبوع .

والحق ان هذه الحمامات كانت اماكن للثرثرة ، وتداول انباء الفضائح ، و ((التقاليع)) فى أكثر اشكالها انحرافا .. كما كانت ملاذا لكل امرأة ، فى الحى ، تبغى الفرار من بيتها ، لتقضى فى الحمام يوما ، تتراوح ساعاته بين سبع وثمان .

الفتيات يعرضن أنفسهن للزواج

• **وكانت** الفتيات يترددن على الحمام بغية جذب انظار العجائز ـ اللاتى يكون لهن ابناء فى سن الزواج ـ الى اجسادهن الخمرية اللون أو البيضاء . وبذا كان يتاح للأمهات ان يحكين لابنائهن عن مفاتن الاجساد ومواضع الحسن فيها .

وكثيرا ما كانت الزيجات تتم عن هذه السبيل .. وكثيرا ـ ايضا ـ ما كانت المعارك تنشب بين الأمهات حول مشكلة الاختيار .. بل ان الحسد والغيرة كانا يشكلان دورا فى هذه المعارك .

وكان هناك ثمة خط حاد يفصل بين فريقين من رواد الحمام : فريق تشكله امهات الفتيات ، وآخر تشكله امهات الفتيان . فأمهات الفتيات كن يملن الى الضحك بصوت مرتفع ، وكن لا يكففن عن محاولة جذب الانتباه الى عراقة اسرهن ، واصالة انسابهن . أما امهات الفتيان ، فكن يجلسن منعزلات على الارائك ، وقد طغى عليهن احساس بالامتياز والسمو عما يدور حولهن من ضجة وثرثرة . وكن — فى اثناء ذلك — يقضمن حبات الفاكهة فى تراخ وفتور ، وهن يتأملن الفتيات ، وينقدن سلوكهن .

ولم يكن لدى جدتى أولاد يصلحون ((**للبيع**)) ، لكن هذا لم يكن يمنعها من ان تثبت وجودها !

كنت الرفيق المفضل لجدتى

• **ولكن** مى لم تكن تشارك جدتى رغبتها . اذ كانت تستنكف جو الحمام المشحون بالمؤامرات والخبث . ومن ثم لم يحدث كثيرا ان صحبتها فى زياراتها هذه .. اما انا فقد كنت الرفيق المفضل لجدتى ، **رغم سيماء المذكورة التى بدأت تظهر على وجهى ، بعد عيد ميلادى الخامس !**

ومع أن هذا كان يثير الشك حولى فى محيط الاسرة ، الا ان جدتى كانت تصر على اصطحابى ، وترفض فكرة اعتبار السنين الخمس تقدما فى السن .. وكانت تحجز لنفسها — دائما — جناحا خاصا فى الحمام ، مكونا من غرفة لخلع الملابس ، واخرى للاغتسال ، حرصا منها على عدم الاختلاط بعامة الناس من رواد الحمام !.

زيارة على غير موعد

• **وذات** يوم ، اعلنت جدتى انها ذاهبة الى الحمام فى صباح الغد . واذكر جيدا ماسببه ذلك من بلبلة فى محيط

الأسرة ، خاصة وأن جدتى لم يكن قد مضى على آخر زيارة قامت بها للحمام أكثر من يوم واحد . ومن الصعب ان يتردد المرء على امكنة كهذه كل يوم ..

ذلك لأن عملية ترتيب الزيارة للحمام كانت تستغرق وقتا وجهدا لايستهان بهما . وطبيعى أن تتضمن هذه العملية عددا من المهام ، منها : شراء الأطعمة الخاصة ، وطهوها واعدادها ، وترتيبها فى السلال والحقائب . كذلك تشمل العملية اعداد الغرف الخاصة ــ فى الحمام ــ وترتيب محتوياتها .. وهى مهمة تلقى على عاتق اصحاب الحمام .

وعبثا حاولت أمى ان تثنى جدتى عن عزمها .. وعبثا نصحتها بالانتظار يوما واحدا . **فقد اصرت الجدة على الذهاب ، ضاربة بمحاولات أمى وتوسلاتها عرض الحائط .**

وأخيرا تقرر أن تذهب الوصيفة ((**فريدة**)) الى الحمام ، لتخطر ادارته بموعد زيارتنا ، فى الصباح التالى .. ولم تكن ادارة الحمام تجهل ما لجدتى من عيوب وتصرفات شاذة ، ومن ثم لم تكن تمتنع عن حجز ماتطلبه جدتى من غرف خاصة ، مهما تكن الظروف . ذلك لأن جدتى كانت تتمتع بنفوذ كبير ــ لم تكن تنتفع به ــ جعلها تسلك فى حياتها سلوك سيدات الأسرة المالكة !

اختيار الطعام امتياز استأثرت به جدتى

• **وما ان** تم حجز الغرف ، حتى نشأت مشكلة اخرى ؛ تمثلت فى تلك المناقشات الطويلة الفارغة التى دارت ــ بين جدتى والطاهية ((**هاجر**)) ــ حول نوع الطعام الذى كانت ترغب فى اعداده لرحلة الحمام .

واسرع الحوذى ((**مراد**)) الى السوق ، وفى يده سلة بحجم جسمه الضئيل . ثم عاد ــ بعد قليل ــ بكميات كبيرة

من الطعام ، لاشك فى ان معظمها كان مكتوبا له ان لا تمسسه يد ، وان يكون مصيره الاهمال .. غير أن جدتى كانت تفسر هذا البذخ بحبها لأن تكون لها حرية واسعة النطاق فى اختيار ما يحلو لها من طعام ! .. ولهذا السبب بالذات ، كان الطعام – فى البيت – طيبا على الدوام ، اذ انها لم تكن تسمح لأحد بالاشتراك معها فى اختياره .. فضلا عن انها لم تكن تشجع استقلال الرأى ، ولا كانت تقبل اية معارضة ، **قائلة ان هذا – بالنسبة للطعام – يفسد الهضم ، ويؤذى غشاء المعدة ، ويمزق الجهاز العصبى ، ويسبب كل الأمراض المعروفة !**

وظلت هاجر ، طوال ذلك اليوم – الذى لاينسى – مشغولة باعداد الطعام وطهوه ، مولية عنايتها – بصفة خاصة – للضولمة ، التى تصنع من ورق العنب المحشو بالأرز والزبيب والمكسرات وزيت الزيتون . وكانت جدتى تندفع الى المطبخ – كل بضع دقائق – كى تتدخل ، وتشير على « هاجر » بترك هذا وتنفيذ ذاك .. و « هاجر » – الخبيرة المترهلة البدن – كارهة لهذا التدخل ، وان تقبلت الاوامر مرغمة ! **.. وكانت جدتى تتذوق كل شىء امامها . وتأمر وتنهى ، بواقع تسع مرات من كل عشر** .. بينما هاجر المسكينة حائرة ، تحملق فيها ، وهى لاتدرى ماتقول وماتفعل .

اعداد الصابون والمناشف والعطور

◆ **ثم** صدرت الأوامر للمربية الشابة «**انجى**» ، بأن تنتقى ملاءة نظيفة ، وملابس للحمام ، وعددا كبيرا من المناشف ، وغير ذلك من اللوازم .. كما احضرت قطع الصابون ، وزجاجة كبيرة من «الكولونيا» ، وكافة الأدوات الأخرى التى تحتاج اليها المراة عند التزين . أما انا ، فقد استدعيت مرارا



الى الطابق العلوى ، **حيث صدرت الى أوامر وتحذيرات بالكف عن ارتكاب أفعال معينة لاتليق بى فى الحمام .**

واقبلت جدتى ، فجلست فى مقعد ذى مسندين ، وادارت المروحة حول وجهها بقوة ، وهى تشكو لأمى التعب والارهاق اللذين حلا بها .. وعبثا حاولت أمى ان تقنعها بأن تركن الى شىء من الراحة ، فقد أخذت ـ من جديد ـ تصدر

الاوامر تلو الاوامر .. فعلى هذا ان يأتى باللحم من الجزار ، وعلى ذاك ان ينظف شيئا ما .. وهكذا !

وفجأة ، قالت انه يجب احضار الحنـاء ، كى تخضب شعرها . ثم صرخت فى وجهى قائلة ، والكلمات تخرج بصعوبة من بين اسنانها : « اذا ذهبت الى الحمام فسوف تعود الى المنزل كسرطان البحر . **ذلك لأننى سأمسك برأسك ، وأضعها تحت الماء المغلى ، الى ان تموت ، ثم اجذب أنفك ، حتى يستطيل ، ويغدو كخرطوم الفيل ! »**

وما ان اتمت هـذا التهديد ، حتى فررت الى المطبخ ، واحتميت بهاجر ، التى قدمت لى قطعا من السكر ، وأجلستنى على مقعد عال ، كى اتسلى بمشاهدة ما كانت تقوم به !

الحناء مكملة للزينة

• **غير أننى** لم ألبث ان ضقت بهذه الحال . فرحت ابحث – مرة أخرى – عن جدتى ، الى ان وجدتها فى غرفة نومها . وما أن لمحتنى حتى نادتنى ، والبسمة تفرق شفتيها . وعندئذ اطمأن قلبى ، ورحت أتطلع اليها ، بينما كانت مستسلمة لفريدة – أمام المرآة – وقد خضبت الحناء شعرها . ومن حولها انتشرت المناشف ، كما كانت على رأسها طبقة فوق طبقة من الورق الابيض النظيف ، الذى يستعمل لتجفيف الشعر بعد أن يخضب بالحناء.

وقد عاقتها الحناء عن أن تنتقل الى غرفة الاستقبال او غرفة المائدة .. لذلك لبثت فى حجرتها ، تتسلى بأكل « الملبن » من طبق كبير وضعته على حجرها ، وتتناول – فى اثناء ذلك – جرعات من شراب الورد .

وما أن فرغنا من تناول طعام الغداء ، حتى كانت « فريدة »

قد انتهت من اعداد ملابس الحمام ، والملابس الداخلية . ثم وضعت شيئا من النبات العطرى ((**اللافاندر**)) بين كل ثنية من ثنايا الملابس .. فعبق جو البيت كله برائحتها .. وقد اعتدنا أن نشترى هذا النبات العطرى من الفجريات اللاتى اعتدن أن يجمعنه كل عام من التلال ، ثم يأتين الى المدينة ، ليبعنه فى سلال صغيرة .

وأذكر فتاة غجرية مرحة العينين ، كانت تختلف الى المنزل عندما كنت صغيراً .. **كانت تقف فى الشارع ، تعلن عن بضاعتها بنداء منغوم ، فتدعوها ((فريدة)) الى المنزل ، وتساومها على الثمن** .. وكانت هاجر تعد لها القهوة التركية ، فأتسلل الى المطبخ لأشاهد وجهها الغريب القاتم اللون ، وهى تجلس الى المائدة ، **تؤرجح ساقيها الطويلتين** العاريتين .

قراءة الطالع من مواهب الفجريات

• **وكانت** جدتى تأمر لها بطعام – احيانا – ثم تستدعيها الى غرفة الاستقبال ، كى تقرأ الطالع لأمى وجدتى . لكن الفتاة لم تكن تجرؤ على دخول الغرفة ، **وانما كانت تفضل الجلوس عند عتبة الباب ، خشية أن تلوث الأبسطة بقدميها الحافيتين المتسخنين !**

وعندما تنتهى قراءة الطالع ، كانت جدتى تقذف بقطعة ذهبيةمن العملة ، تلتقطها الفجريةبمهارة . واذكر أن اصابعها كانت طويلة ونحيلة ، بينما أظافرهاحادة ، مصبوغة بالحناء . اما وجهها فكان صغيراً ، بنى اللون ، ذا فم واسع ، يبدو ضاحكا على الدوام . هذا عدا ملابسها التى كانت تتسم بالفراة والشذوذ ، اذ جمعت بين الوان كثيرة متناقضة ..

ولما عاد أبى الى البيت فى مساء ذلك اليوم المشهود ، كانت

الردهة حافلة بسلال الطعام ، وبعدد كبير من اللفائف ، احتوى على « البياضات » النظيفة وادوات الزينة . فما ان وقعت عيناه على هذا المنظر ، حتى انفجر ضاحكا ، قائلا لأمى ان العالم بأسره على علم برحلة جدتى المنتظرة الى الحمام !

الأناقة لاتصلح الوهن والضعف

• **ولم** يكد يتم حديثه ، حتى لاحت جدتى على السلم ، آتية من الطابق العلوى . وكانت المجوهرات تتلألأ فى يديها ، بينما استقر فوق راسها « شال » حريرى ملون ، لم يكسب جسمها الضئيل الواهن شيئا من الأناقة أو الجمال .

وقالت لأبى انها ذاهبة الى الحمام ، فأومأ برأسه مبتسما . لكنه مالبث أن قطب جبينه حين علم بأننى ذاهب معها ، واحتج قائلا ان سنى لم تعد تبيح لى ذلك . لكن جدتى أصرت على اصطحابى ، وتعهدت بالتغاضى عن ذلك فى المرات القادمة .

واقبل الحوذى « مراد » الى البوابة الأمامية ، يعتلى العربة اللامعة ، تجرها جياد متوثبة ، متحفزة ، تجلجل سروجها بانغام موسيقية كلما هزت رؤوسها الجميلة .

وسلمت « فريدة » الأشياء الى « مراد » ، ثم عادت لتكون فى رفقة جدتى ، التى لم تكن قادرة تماما على حفظ توازنها داخل العربة . اما انا فقدسرت فى موكبها ، الى ان استقر بى المقام الى جوارها داخل العربة ، ويدى تقبض على يدها فى حرص شديد .

يرحبون بى وهم يستنكرون وجودى !

• **ولما** بلغنا الحمام ، استقبلنا بحفاوة بالغة ، وانحنى موظفوه احتراما لجدتى ، لكنهم نظروا الى فى غرابة ، وكأنهم

يستنكرون وجودى . بيد أن احدا منهم لم يجسر على أن يقول شيئا .. كل ما فعلوه انهم قادونا — فى هدوء — الى حجرة خلع الملابس ، التى كانت قد اعدت خصيصا لنا .

وعبرنا بهوا رخاميا واسعا ، به أرائك تستند الى الجدران التى تخللتها ابواب زجاجية صغيرة تؤدى الى الغرف الخاصة . وفى وسط البهو ، كان ثمة حوض حجرى ، تطل عليه نافورة ، ينساب منها الماء فى خرير رنان . ولمحت داخل الحوض عددا كبيرا من زجاجات « الفازوزة » ، التى وضعت للتبريد .. أما الأرائك التى اصطفت على جانبى البهو ، فقد لمحت فوقها كثيرا من النسوة ، جالسات ومسترخيات . اذ كان البهو بمثابة « استراحة » عامة ، يمكن للنسوة ان يجلسن فيها ، عندما ينتهين من الحمام .. حيث يتاح لهن ان يأكلن ويثرثرن فى حرية وانطلاق .

ولم نلتفت يمنة ولايسرة ، ونحن نجتاز البهو .. والحق اننى ثبت عينى على الأرض ، تنفيذا لتحذير تلقيته من قبل .

فى غرفة خلع الملابس

• **وصعدنا** السلم ، ثم مضينا الى غرفة صغيرة ، حيث شرعنا فى خلع ملابسنا . وكنت أول من خلع ملابسه ، بمساعدة « فريدة » التى تركتنى — بعد ذلك — لتعاون جدتى فى خلع ملابسها . وما ان تم ذلك ، حتى قامت « فريدة » باستدعاء عاملة الحمام — التى كانت تنتظر خارج الغرفة — وسلمتها ما اتينا به من صابون و « كولونيا » .. والقدح الفضية الكبيرة (الكوز) ، التى تستخدم فى صب الماء على الاجساد . ثم وضعنا فى اقدامنا « **التاكونايا** » ، وهو نوع من القباقيب الخشبية . واذكر ان قبقابى كان ذهبى اللون ،

ذا حافتين مزينتين بالورود . **اما جدتى فقد استخدمت قبقابا اسود ، ذا كعبين مرصعين بالأحجار الكريمة ! ..** وكنا نصدر بهذه القباقيب صوتا مزعجا ، كلما تحركنا بها على الأرض الحجرية العارية .. وكانت جدتى تبدو غاية فى الأناقة ، اذ كان ثوبها بلون الورد ، وشعرها مصففا خلف أذنيها بعناية ، وقد رشقت فيه أمشاطا صغيرة ، تعلوها طبقة من الذهب .

وغادرنا غرفة خلع الملابس ، تتقدمنا عاملة الحمام ، متجهين الى غرفة الاغتسال ..

جدتى .. ناقدة للنساء !

• **ومرة اخرى** ، كان علينا ان نجتاز البهو ، حيث وجدنا عددا من النسوة مشغولات بالاغتسال ، واخريات مستلقيات على الأرائك .

وراحت جدتى تتأمل الفتيات العاريات بعين الخبيرة الناقدة . وكلما وقعت عيناها على جسم لايروقها ، دقت يدا بيد ، فى حركة معبرة للغاية ، قائلة ان فلانة نحيفة ، وان عجزها غير متناسق التكوين ، وانها لن تعثر على زوج مطلقا ، مالم بتحسن عودها ! .. ثم تأخذ ــ **بعد ذلك** ــ فى البحث عن ام الفتاة ، وتنصحها بقولها : **« اعطيها كثيرا من البقلاوة ! »** .. فيرتفع الدم فى وجنتى الفتاة ، ويحس الجميع بالحرج .. اما جدتى ، فلم تكن تدرك انها احرجت أحدا !

وعندما فوجئت النسوة بوجودى بينهن ، رحن يبدين سخطهن واحتجاجهن ، اذ كيف يجرؤ فتى كبير ــ له من العمر خمس سنوات ! ــ على الجلوس بينهن ؟ .. اليست هذه شهادة بينة على عريهن ؟ !

رجل .. لم يتجاوز الخامسة من عمره !

• **ورحن** يتخذن اوضاعا غريبة ، محاولات ان يغطين اجسادهن ، وهن يتفوهن - من خلف اذرعهن ، التى أستقرت على وجوههن - بعبارات مبهمة ، ويتندرن بجراتى ، وعريى .. واعضائى التناسلية أيضا !

وانزعجت جدتى لمرأى هذا الطيش من جانب النسوة . ومالبثت ان اعلنت الى عاملة الحمام - التى كانت تنتظر فى ضيق - استعدادها للاغتسال . فتحرك موكبنا الصغير مرة أخرى . وطفت اصوات قباقيبنا على اصوات النسوة ، ولغطهن ، وتعليقاتهن الموجهة الى شخصى .. بصفة خاصة .

((دستور .. بسم الله)) !

• **وكان** علينا - كى نصل الى غرفة الاغتسال - ان نجتاز قناة صغيرة ، تجرى فيها المياه المتسخة لتصب فى المجارى . وتم لنا ذلك بعد تنفيذ شرط معين . فقد بصقنا ، ثلاث مرات ، فى الماء المتسخ ، وقلنا : **((دستور .. بسم الله))** ، كى نطرد الأرواح الشريرة ، التى تكمن دائما فى الأماكن القذرة .

كان على المرء - فى تركيا القديمة - ان يهادن الأرواح الشريرة . ومالم يقل : «دستور .. بسم الله» - ومعناها : **((اذهب بعيدا ، بسم الله))** - فان الأرواح الشريرة التى تسكن المجارى ، تحس بالاهانة ، فتسعى الى الحاق الأذى بالمتسبب ! .. ومن هنا كنا نهاب الأرواح الشريرة ونكن لها الاحترام ، خوفا من بطشها .

فى غرفة الاغتسال

• **كانت** غرفة الاغتسال شديدة الاتساع ، برغم انه لم يكن بها سوى حوض واحد كبير . وكانت فى زاوية من جدارها

المرمرى « كوة » ، وضعت فيها « فريدة » سلال طعامنا . اما الصابون والمناشف و « الكولونيا » ، فقد وضعتها عاملة الحمام على رف فى الجدار ، ثم استأذنت ، وانصرفت .

واسرعت « فريدة » فأسدلت ستارا على الباب ، حتى لايرانا احد . ثم انهمكت ــ بعد ذلك ــ فى غسل الحوض ، والجدران ، وارض الغرفة ، بصابون خاص جئنا به لهذا الغرض .. بينما كانت جدتى تصدر أوامرها تباعا **بغسل محتويات الغرفة ثلاث مرات ، وتنظيفها جيدا ، حتى لانتعرض لغضب الأرواح الشريرة !**

وجلست فى الجزء النظيف من ارض الغرفة ، متتبعا عملية التنظيف التى تقوم بها « فريدة » ، منتظرا اياها ، كى تصب الماء فوقى عندما اخلع ملابسى .

ومالبثت « فريدة » ان فرغت من عملها ، ففرشت الأرض بعدد كبير من المناشف ، كى نجلس فوقها . ثم التفتت الى ، وراحت تحرك الصابون فى الماء ، الى ان ازدادت الفقاقيع ، وبدا منظرها مسليا ، مما جعلنى انسى حكاية الأرواح الشريرة ..

عندما يتحول الاستحمام الى تعذيب

• **والحق** ان عملية الاغتسال كانت اسوأ مراحل زيارتنا للحمام . ذلك لأن « فريدة » ــ مثلها فى ذلك مثل « انجى » ــ لم تكن رحيمة بى . فقد غطت جسدى بالصابون ــ من قمة الراس الى اخمص القدم ــ ثلاث مرات .. **ولم يكن باستطاعتى ان افلت من قبضة ساقيها القويتين ! .. ثم وضعت فى يدها اليمنى قفازا من الليف ، راحت تدلك به جسدى ..** الى ان سالت منه كميات من القذارة ، اخذت تتسرب من الحوض .

وما ان أطلقت سراحي - بعد هذا التعذيب الذى دام طويلا - حتى وجدتني ابدو لامعا ، انيقا ، أحمر اللون . وانتهزت فرصة تحول « فريدة » الى جدتي ، فتسللت - دون أن اشعرهما - الى خارج الغرفة . وسرت الى البهو ، غير منتبه الى انني خرجت عاريا كما ولدتني امي . ورحت اقترب من النافورة ، قاصدا ان ارطب جسدى بمائها البارد.

شجار بين النسوة .. بسببي !

• **وما ان** لمحتني النسوة العاريات - اللائي كن يجلسن في البهو - حتى رحن يلاحقنني بنظراتهن في نهم غريب ! .. ومالبثت امرأة ارمنية بدينة أن دعتني وقدمت لي تفاحة . لكنني رفضتها ، حسب الأوامر التي صدرت الي في البيت . ولم يكن باستطاعتي الا ان اشكرها ، رغم ان امعائي تحركت في جوفي ، شوقا الى التفاحة الحمراء .

واخذت المرأة تلاطفني ، بعد ان اجلستني الى جوارها . ثم احاطتني بذراعها البض الممتلىء . وعندئذ حدث مالم يكن في الحسبان ، اذ صاحت امرأة في مقتبل العمر ، قائلة في وقاحة : « ايتها السيدة ، كان الأفضل ان تأتي بزوجك الى هنا ، **فهذا الصغير لايتجاوز اصبعي الصغرى .. واخشى الا يصيبك منه نفع كبير ! »**

وعندئذ انفجرت النسوة الأخريات ضاحكات ، فتصاعد الدم في وجه الأرمنية ، وبدا عليها الضيق والغضب . لكنها مالبثت أن تمالكت نفسها ، وقالت : « **الأفضل الاتسمعك الجدة ، وانت تتحدثين عنه هكذا ! »**

واعقبت ذلك فترة من الهرج والمرج ، والكل يذكى نيران المعركة المتوقعة بين المرأتين .. غير انني لم انتظر طويلا ، اذ تسللت ، عائدا الى حيث كانت جدتي و « فريدة » ..

أطباق الطعام تصف على الأرض

• **ووجدت** جدتى مستلقية على الأرض ، و « فريدة » تصف اطباق الطعام على مفرش أبيض ، نشرته على مساحة من ارض الغرفة .. ثم جلسنا القرفصاء — ونحن فى لباس الحمام — ورحنا نأكل ، بشهية بالغة ، **اللاحانا دولماس** (الكرنب المحشو) ، **والكفتة** ، **والبوريك** (المحشو بالجبن الأبيض والبيض والبقدونس) ، **والتورسو** (نوع من السلطة يتكون من الخضر والخيار والكرنب) .. ثم شربنا « الفازوزة » المثلجة ، التى قامت باحضارها عاملة الحمام . وتحولنا بعد ذلك الى الحلوى .

وما ان فرغنا من تناول الطعام ، حتى امرت جدتى بازالة بقاياه ، استعدادا للراحة والنوم ..

واستيقظنا قبل ان تغرب الشمس .. وكانت الحركة قد هدأت فى الحمام نسبيا ، فاغتسلنا من جديد ، استعدادا للرحيل . ثم اخذت « فريدة » تجمع البياضات ، بينما كانت زجاجة الكولونيا ملقاة على الأرض فارغة .. اما جدتى ، فقد ارتدت ثوب الحمام الوردى اللون ، وساعدتنى على ارتداء ثوبى ، ثم سرنا ، فى الدهليز الطويل الخالى ، الى الغرفة التى تركنا فيها ملابسنا فى الصباح ..

ومالبثنا ان سعينا الى باب الخروج ، مارين بالنسوة المتبقيات فى الحمام .. وبينما حرصت على الا التفت اليهن ، كانت جدتى تتلقى تحياتهن وتمنياتهن بدوام الصحة والهناء ، دون ان تكلف نفسها عناء الرد عليهن . فقد تجاهلتهن ، وسارت رافعة الراس ، لاتنظر الى يمين او يسار !


كتب جديدة
من الغرب والشرق
عرض لأحدث الكتب
أخبار الحركة الأدبية فى العالم

رسالة نيويورك

فلاديمير نابوكوف والقارىء العربى

لعل المتتبع للحركة الأدبية فى العالم ، بعد الحرب الثانية، قد لمس تلك الضجة التى ثارت ــ فى السنوات الأخيرة ــ حول رواية ((**لوليتا**)) ، بشكل لم يسبق حدوثه بالنسبة الى رواية او قصة مماثلة خلال هذه الفترة .

ولئن كانت رواية ((**دكتور زيفاجو**)) ــ التى قدمتها لك ((مطبوعات كتابى)) كاملة منذ عامين ــ قد أثارت ، هى الاخرى ، ضجة عند ظهورها ، **الا أن الضجة انصرفت كلها الى مؤلفها ((باسترناك)) ، وموقفه من جائزة نوبل .**

أما هذه الضجة الأخيرة التى ثارت حول ((لوليتا)) ، فمن نوع آخر . اذ انها لم تتناول موضوع الرواية او اتجاهها فحسب ، وانما تطرقت ــ ايضا ــ الى سبيل معالجة الموضوع ذاته ، مخلفة فى النهاية حكمين لا وسط بينهما **.. أحدهما ادان الكاتب ووضع روايته فى الدرك الأسفل من السوقية والابتذال .. اما ثانيهما فقد رفعه ــ مع روايته ــ الى مرتبة الامتياز !**

غير أن السنوات القليلة الماضية ، التى اعقبت صدور ((لوليتا)) ، قد صنعت منها عملا فنيا يكشف عن طبيعة العلاقة العاطفية ، التى تنشأ بين نمطين من الناس ، يفصل بينهما بون شاسع من السن ، والعاطفة ، والتكوين النفسى والاجتماعى .. **تلك العلاقة التى درج المجتمع على وسمها بالشذوذ .** بل ان هذا العمل الفنى ــ برغم قصوره فى بعض النواحى ــ قد غدا معينا للكتاب والشعراء ، يغترفون منه ماشاءوا من رموز ودلالات . ويكفى أن نذكر أن شخصية ((لوليتا)) ــ بنت العام الثانى عشر ــ قد أصبحت رمزا

للفتيات المراهقات ، اللواتى تتفجر أنوثتهن فينقدن لها ، ثم تكون النتيجة أن يقعن فى أول حفرة تصادفهن ، حتى ولو كانت هذه الحفرة من صنع رجل فى سن آبائهن !

ظل مغمورا حتى كتب « لوليتا »

والمهم فى الامر ، هو أن مؤلف « لوليتا » لم يستطع أن يجد سبيله الى الشهرة قبل صدورها ، برغم ما كان له من مؤلفات ونشاط سابق .. **وقد قدمت « مطبوعات كتابى » منذ أسابيع ـ فى العدد ٥٧ ـ أحد هذه المؤلفات التى سبقت « لوليتا »** ، **وهى قصة « ضحكة فى الظلام »** ، التى أثارت ـ هى الأخرى ـ ضجة بين النقاد من عهد قريب ، وبعد أن انقضت سنوات على ظهور أول طبعة منها ..

وتأخر وصول « نابوكوف » الى الشهرة ، كان سببا فى ان القارىء لم يعرف عن حياته وانتاجه سوى القليل .. والقليل جدا . ولذلك اخترنالك تحقيقا أدبيا طريفا ، ظهر مؤخرا على صفحات مجلة **لايف** . وقد كتبه محررها الأدبى **ول أونيل** ، وتناول فيه ـ بالعرض والتحليل ـ حياة نابوكوف العادية والأدبية على السواء ، ملقيا الضوء ـ فى الوقت نفسه ـ على « لوليتا » ، والظروف التى احاطت بكتابتها ونشرها :

فجأة .. وجد نفسه « اسدا » !

من النادر أن تثب اسود الأدب ـ ان جاز التعبير ـ دفعة واحدة فى وجه الجمهور ، خاصة حين تصل الى مرتبة النضج والاكتمال . وطبيعى ان تكون فرص الشهرة والصيت زهيدة بالنسبة الكاتب قضى ٣٩ عاما يكتب اجمهور يتألف ـ فى الغالب ـ من المهاجرين الروس ، وهواة جمع الفراش ، وسكان قرية (جرينوتش) المنحرفين .

على أن الأمل فى أن يغدو هذا الكاتب « أسدا » لايلبث أن

يختفى تماما ، اذا ما احس بالاضطرار الى طبع مخطوط غير صالح للنشر .. أى مخطوط يتضمن علاقة غرامية ، **تنشأ بين رجل فى منتصف العمر وفتاة فى عامها الثانى عشر !** .. ولكن الأمر جرى على العكس مع « نابوكوف » منذ اعوام قلائل ، عندما القى الى السوق رواية اثارت ضجة شملت العالم بأسره ، وقفزت بسرعة الى المرتبة الأولى فى قائمة الكتب ذات الرواج الواسع فى امريكا .. تلك هى رواية « لوليتا » ، التى عالجت العلاقة الغرامية الشاذة .

وبعد سنوات طويلة من الجحود والاغفال الأدبيين ، وجد « نابوكوف » نفسه ــ فجأة ــ **((اسدا))** ، ذا هالة ضخمة من الشعر تحيط برأسه ، وعينين كمصباحين كاشفين للقاطرة ، ومجموعة من الأنياب والمخالب !

ضجة فى كل مكان

ولعل بريطانيا هى اكثر البلدان التى اهتزت جنباتها بالجدل حول « لوليتا » . فقد دخلت هذه الرواية الى ساحة البرلمان ، ودارت حولها معركة حامية ، وحمل عليها نواب حزب المحافظين ، قائلين انها **((رواية سوقية)) !**

وانقسمت الأراء حولها ــ فى اوساط المثقفين ــ ما بين مؤيد ومعارض . فبينما وصفها الروائى المعروف **جراهام جرين** بأنها **((رواية ممتازة))** حمل عليها « جون جوردون » ــ رئيس تحرير جريدة « صنداى اكسبريس » ــ حملة مقذعة ، وصفها فيها بانها **((اقذر ماقرأت فى حياتى !))**

اما فى الولايات المتحدة ، فقد لاقت « لوليتا » جوا مهيأ ، حتى لقد ارتفع رقم توزيعها ــ فى اسابيع قليلة ــ الى ٢٤٠ الف نسخة ، بالرغم من امتناع بعض المكتبات عن عرضها ، ومجاهرة الكثيرين باستهجانهم لموضوعها ! .. ولعل السر فى ذلك راجع الى ان **معظم النقاد هنا** ــ فى



الولايات المتحدة - لم يكتموا اعجابهم بالرواية ، ولم يضنوا بتقديرهم لموهبة مؤلفها وبراعته الادبية .. فلم تلبث « لوليتا » أن أصبحت حديث المجالس ، وان ضم قاموس المصطلحات المجنة - الى جانب أسمها - اسم **((همبرت همبرت))** الشخصية الرئسية فيها ، **أحدث صورة لنابوكوف و ((عروس البحر)) ..** وهو التعبير الذى ابتكره « نابوكوف » واطلقه على « لوليتا » ولداتها من الصغيرات اللواتى يبكرن فى النضوج !

وتوجت شركات السينما - فى النهاية - كل هذه الضجة، بأن اشترت القصة من مؤلفها بملغ ١٥٠ / ٠٠٠ دولار ، فضلا عن ١٥ فى المائة من صافى الارباح !

بطل الرواية مجنون مثقف !

والرواية ، من الناحية الفنية ، عمل ادبى رائع . فهى مأساة صاغها المؤلف بسخرية حادة ، وجراة عجيبة . وهى ايضا لوحة نقدية للولايات المتحدة المعاصرة .

أنها - فى الواقع - تمثل خير تمثيل مأساة المراهقات وشذوذ الشيوخ فى امريكا .

وليس همبرت همبرت - راوى القصة - بمجنون عادى .. فهو رجل اوربى مثقف ، ذلق اللسان ، **برغم انه صعلوك دنس ، يدرك - تمام الادراك - وقاحة شيطانيته وخبثها ،**

ازاء « عرائس البحر » ! .. وهو يعانى ، أشد المعاناة ، من تعرضه للمفردات التى تستخدمها « لوليتا » ـ ابنة العام الثانى عشر ـ فى احاديثها وطلباتها الغريبة التى لاتنتهى . فهى ـ دائما تلاحقه بحاجتها الى موسيقى الجاز ، والشيكولاته الممزوجة بالصودا ، والكتب الهزلية ! .. وهو ـ برغم طريقته لمعوجة ـ رجل يحس فى قرارة نفسه بأنه يجب ان يكون أبا ، الى جوار كونه عاشقا .

أما لوليتا فهى فتاة صغيرة مراهقة ، ترتسم على وجهها مسحة من الحزن الدفين . ومع انها ليست على قسط كبير من الجمال ، فانها تغوى همبرت ، قبل أن يقدم هو على اغوائها أو استدراجها .. غير أنه يروى افتتانه الوحشى فى انشراح داعر ، **لدرجة ان الرواية ـ أحيانا ـ تبدو وكأنها تقطر تشبيبا وغزلا !** .. ومع ذلك ، فان المرء لايستطيع أن يدرج الرواية فى قائمة الأدب المكشوف ، سواء فى مادتها أو مرماها .

مؤلفها يشك فى نجاحها

ومن العسير على المرء ـ قبل أن يلتقى بنابوكوف ـ ان يدرك السبب الذى ادى بكاتب محترف الى ان يبذل الشىء الكثير من الوقت والجهد فى عمل يحتمل المصادرة والسحب من السوق . غير أن الجواب على ذلك بسيط . **فقد كتب نابوكوف روايته هذه ، كى يشبع رغبته فى ان يعبر عما يجول فى نفسه** .. وكان واثقا ، منذ البدء ، من انها لن ترى النور ، وانها ـ أن رأته ـ فلن يقدر لها نجاح ما !

وكأنه ـ بذلك ـ انما كتبها لنفسه .. اصلا !

ارستوقراطى ورياضى وأستاذ جامعى

وفلاديمير نابوكوف رجل غير عادى : فهو يناهز الستين من عمره ، مرح ، ممتلىء الجسم ، لايستعمل رباط العنق . وهو واحد من الطبقة الأرستوقراطية الروسية القديمة ، التى نبذتهاثورة اكتوبر سنة ١٩١٧ . وقد تعرض - بعد مغادرته روسيا مع أسرته - الى التشرد فى بلدان اوربا فترة من حياته ، الى أن انتقل نهائيا الى الولايات المتحدة ، حيث أقام هناك فى عالم خاص شيده بيديه وافكاره .

ونابوكوف كاتب ذو طاقة زاخرة متدفقة . **فقد كتب ثمانى روايات باللغة الروسية ، قبل ان يصبح كاتبا أمريكيا** .. وهو لايزال ينظم الشعر - من حين لآخر - بلغة بلاده الأولى ، ويهوى تأليف ألغاز الشطرنج ، التى يتنافس الكثيرون على حلها . كما انه معروف بتفوقه فى هواية جمع الفراش ، التى يمارسها فى منطقة جبال روكى . وقد كان - ايضا - لاعبا ماهرا للتنس وكرة القدم فى شبابه ، ولايزال - برغم شيخوخته - رياضيا قويا . وهو - الى جانب كل هذا - مدرس جامعى مجتهد ، إذ يهب نفسه تماما لطلبته فى الجامعة ، الذين يتلقون على يديه دروسا فى الأدب الأوربى .

بين الثراء والثقافة والجاه

ولقد كانت أسرة نابوكوف فى روسيا الامبراطورية على قسط كبير من الثراء والجاه أجيالا طويلة . فكان بين أجداده لأبيه عميدا لأكاديمية الطب الامبراطورية ، بينما كان جد آخر له وزيرا للعدل فى عهد القيصر اسكندر الثانى . كذلك شغل أحد أعمامه - **كونستانتين نابوكوف** - منصبا دبلوماسيا كبيرا ، أهله للاشتراك فى مفاوضات معاهدة (بورتسماوث) - التى جرت مع الرئيس الأمريكى «تيودور روزفلت » ، عقب الحرب الروسية اليابانية .

وكثيرا مازار نابوكوف - فى طفولته - (بياريتز) و (الريفييرا) ، حيث كان ينزل مع اسرته فى أفخم الفنادق هناك . وكانت اسرته تتنقل بين هذه الأماكن وبين قصرها المنيف فى (سانت بطرسبورج) ، اوضيعتها الكبيرة ، التى كانت تبعد عن العاصمة مسافه خمسين ميلا .

ولم يكن والداه ثريين فحسب ، وانما كانا مثقفين ايضا . وقد كان ابوه عضوا فى البرلمان الروسى - ابان الحكم القيصرى - متنورا ، يحب اولاده ويعطف عليهم ، ولايدخر جهدا فى سبيل تربيتهم وتثقيفهم . ومن ثمة درس « فلاديمير » واشقاؤه وشقيقاته اللغتين الفرنسية والانجليزية فى طفولتهم ، بينما كانوا - فى الوقت نفسه - يتلقون دروس اللغة الروسية ..

الاسرة تفر من البلاشفة

ولم تكن اسرة نابوكوف تحرص كثيرا على المال . فبالرغم من ان فلاديمير ورث ضيعة كبيرة ، وثروة تقدر بمليونين من الدولارات - وهو بعد لم يتجاوز عامه السابع عشر - الا انه كان مولعا بصيد الفراش ، وبفتاة تدعى «تامارا» ، وبالشعر والتنس ايضا . **ولم تستطع ثورة اكتوبر ان تخمد فى نفسه هذه الاهتمامات ، او ان تجعله يتحسر على ثروته التى صودرت .** فما أن أستولى البلاشفة على الحكم ، حتى كان على الأسرة ان ترحل الى شبه جزيرة القرم ، محرومة من المال والثروة ، الا من بعض المجوهرات ، التى تمكن احد الخدم من اخفائها داخل « علبة بودرة » !

وقطع فلاديمير وشقيقه « **سرجى** » الرحلة الى القرم بالقطار . وعندما صعد جنود الثورة الى مقصورتهما لتفتيشها ، تظاهر « سرخى » بالمرض ، وأخذ يئن ويتأوه ، ثم همس فلاديمير قائلا لهم : **« أنه أخى .. مريض**

بالتيفود ! » .. واشفق الجنود على المريض ، أو لعلهم أشفقوا على أنفسهم من العدوى ، فأسرعوا بالابتعاد !

غير ان المقام لم يطل بالأسرة فى القرم . اذ ما لبثت ان اضطرت الى مغادرة ميناء (سباستبول) على ظهر باخرة يونانية ، بينما كان رصاص البنادق يدوى على الشاطىء فى جنون .

يتشبث بلغة بلاده

بالرغم من كل مالاقاه « فلاديمير » واسرته ، فانه يحب وطنه روسيا حبا جما ، ويعشق لغة بلاده وادبها . وقد عز عليه – اذ كان يدرس فى (كامبريدج) – أن يهجر اللغة التى نطق بها اول مانطق ، **ومن ثم فانه لم يكف عن نظم الشعر وكتابة القصة بها .. كل ذلك حتى لاينسى بلاده ولغته .**

وعندما منع الاتحاد السوفييتى كتبه من التداول فى اسواقه .. وعندما وجد « نابوكوف » نفسه وحيدا فى مهجره ، بين زملاء من المهاجرين لايقلون عنه فقرا ، لم يجد عزاء الا فى الكتابة .. كان فيها متنفس لعذاب النفسى الذى امضه واقلقه . واضطر – فى تلك الأثناء – الى الاستعانة بمواهبه ، كى يدفع عن نفسه – واسرته – غائلة الجوع والفقر . فكان يعطى دروسا فى لعبة التنس للأثرياء من المهاجرين الالمان . كما اعتمد – من جانب آخر – على الترجمة فى كسب قوت يومه .

يفضل الحشرات على الكتابة !

وفى اثناء الحرب العالمية الثانية ، تلقى « نابوكوف » دعوة من جامعة (ستانفورد) الأمريكية ، فلباها شاكرا .. واقام هناك ، موزعا وقته على هوايتين لاثالث لهما : **الحشرات والكتابة .** ولقد امدته هوايته للحشرات باحساس ملؤه الزهو والنشوة بالانتصار على الطبيعة ، والرغبة فى فض اسرارها ،

وكشـف كوامنهـا ، **حتى انه صرح يوما بأنه لو خير بين الاثنتين ــ أى هواية الحشرات وهواية الكتابة ــ نفضل ترك الكتابة !**

وقد قدر متحف (هارفارد) جهوده وسمعته فى اوربا كهاو كبير للحشرات ، فدعاه لمعاونة المختصين فى المتحف .. وكان له نصيب كبير فى اعادة تنظيم مجموعات الحشرات .

ومالبث نابوكوف ــ بعد فترة ــ ان شغل منصب استاذ فى الأدب بجامعة (كورنيل) . غير أن التدريس بالجامعة لم يشغله عن ممارسة هوايته . فقد اصبحت منطقة جبال روكى ــ حيث يكثر الفراش ــ ملاذ لاستاذ الجامعة المشتغل بالأدب ، يقصدها كلما احس بالحاح الحاجة الى اشباع هوايته .

فكرة تراوده ١٥ سنة

وقد اتاحت له هواية جمع الفراش ان يختلط بأناس كثيرين ، مختلفى المشارب والمهن .. من سائقين ، ورعاة ، وفلاحين ، وطهاة .. وأتاحت له هذه التجارب ، بدورها ، تحديد معالم روايته «لوليتا» ، **التى حمل فى رأسه مفهومها ومحتواها طوال خمس عشرة سنة ، قبل ان تأخذ شكلها الحالى .**

ونابوكوف مفتون بالدراما التى تكمن فى العاطفة المتضخمة لدرجة الازعاج . وكان يشغل باله ــ دائما ــ التفكير فى هذه العاطفة ، وماتجره على صاحبها من كوارث أو انحرافات . ولعل هذا ما أدى به عام ١٩٣٩ ــ عندما كان فى باريس ــ الى ان يكتب قصة باللغة الروسية ، تدور حول رجل متوسط العمر غرر بفتاة صغيرة ، ثم انتحر . غير أن عددا من أصدقائه ــ وقتذاك ــ شن على القصة هجوما ، اضطر نابوكوف ازاءه الى العدول عن نشرها .



احلى ساعات الكتابة .. وهو جالس فى السيارة

كيف جمع مادته عن ((لوليتا))

وعندما بلغ « نابوكوف » الاربعين من عمره ، هجر الكتابة باللغة الروسية وشرع يكتب بالانجليزية ، التى يجيدها كأحد أبنائها .. وقد بدأ فى كتابة «لوليتا» ، فى صيف سنة ١٩٥١ ، وقضى فى تأليفها عامين ، كان خلالهما يتسلى بجمع الفراش ، ويكتب القصص القصيرة ، ويترجم قصة « يوجين اونجين » للشاعر « بوشكين » من الروسية الى الانجليزية .

ولقد بذل جهداً كبيراً فى رسم شخصية « لوليتا » ، وبلغ به تحرى الدقة ان راح يجمع المعلومات عن الفتيات اللائى فى مثل سنها . **ومن وسائله فى ذلك ، انه كان يستقل سيارة من سيارات مدارس البنات – بين حين وآخر – ليصغى الى احاديث المراهقات** .. وكان يجمع كل ذلك فى « ملف » خاص ، ضمنه بيانات عن وزن لوليتا وطولها فى سنوات نموها المختلفة ، وما يستتبع ذلك من تغير مقاسات أحذيتها وثيابها ! .. وكذلك ضم الملف معلومات تفصيلية عن احب الاشياء اليها ، كطبقها المفضل ، وعباراتها المفضلة ، واسطواناتها المفضلة ، ونجمها السينمائى المفضل .. الخ .

مفتون بالكلاب الضالة !

والغريب أن نابوكوف وزوجته لايكفان – حتى الآن – عن التنقل من مكان الى آخر ، طلبا للتغيير والمتعة . وهما يغادران بيتهما مرة أو اثنتين فى العام ، ويصحبهما أحيانا ولدهما ديمترى (٢٥ سنة) الذى تخرج فى جامعة هارفارد .. وهو الذى ترجم بعض مؤلفات ابيه الى الانجليزية ، قبل أن يعمد « نابوكوف » الى التأليف بهذه اللغة مباشرة .

ونابوكوف – بالاضافة الى هذا كله – **مفتون بالكلاب الضالة !** وقد أعتاد أن يتفاهم معها بلغته الروسية ، وأن يدعوها الى قاعة المحاضرات كلما شاهد واحداً منها . وهو يروى عنها طرائف كثيرة ، منها **أنه ما يكاد يبدأ محاضرته ، حتى تكون قد استسلمت لنوم عميق ، ثم تستيقظ بطريقة لاشعورية ، قبل أن يصرف تلاميذه بخمس دقائق !**

وهو مولع اشد الولع بالسيارات ، رغم انه لايجيد قيادتها . ويعلل ذلك بقوله انه يخشى – اذا ماقاد سيارة – ان يشرد ذهنه ، جريا على عادته .. على انه يركن الى زوجته عادة فى قيادة السيارة ، اذا ما خرجا للنزهة ، حتى

يتفرغ للكتابة .. وعندما تقف زوجته بالسيارة تحت شجرة ، تتيح له بذلك جوا هادئا للكتابة ، يحس معه بالراحة والغبطة ، كما يحس بأنه فى عزلة عن العالم !

زواج غير موفق للوليتا

والغريب أن الناشرين فى أمريكا رفضوا نشر روايته « لوليتا » ، عندما انتهى من كتابتها فى عام ١٩٥٤ . وحدث – فى تلك الأثناء – أن أنبأه وكيله فى باريس ، بأن دارا من الدور التى تنشر الكتب المكشوفة باللغة الانجليزية ، تبغى اضافة لوليتا الى قائمة منشوراتها . وفكر « نابوكوف » فى الأمر طويلا ، لكنه مالبث أن أعلن موافقته بعد فترة . وقال فى ذلك : ((**أن الكتب كالاطفال ، يبغى المرء – بعد أن يتجشم كل عقبة فى سبيل تربيتهم وانضاجهم – أن يراهم متزوجين** . وقد لا تكون هذه الفرصة بمثابة اسعد زواج للوليتا ، لكنها فرصة سعيدة الى حد ما ، فقد أتاحت لى – على الأقل – فرصة رؤية عملى مطبوعا ، تضمه دفتا غلاف ، واستطيع ان اضعه على رف مكتبتى ! »

***

وهكذا نجد ان فلاديمير نابوكوف – على الأقل من خلال ما ساقه محرر ((**لايف**)) الأدبى فى الصفحات الماضية – كاتب يستحق من القارىء العربى الالتفات والاهتمام ، **لابقصد افتراض كمال أفكاره ونضجها ، وانما بقصد دراسة أعماله – من حيث قيمتها الفنية** – ومقارنتها بما يسلكه كثيرون من الكتاب لدينا ، حين يتعرضون لموضوعات مماثلة لما يطرقه نابوكوف الروسي الأصل ، الأمريكى الجنسية .

أخبار أدبية

• **عرف** «جون أوهارا» في ميدانى القصة القصيرة والرواية، لكنه لم يعرف في ميدان المسرح. وقد صدرت أخيرا عن دار «راندوم»، مجموعة من المسرحيات (٤٧٣ صفحة) كتبها « أوهارا »، وتشتمل على خمس مسرحيات فقط، كان معظمها - في الأصل - قصصا وروايات قصيرة، ثم عالجها الكاتب مرة أخرى بطريقة مسرحية.

والطريف أن « أوهارا » صدر مجموعته هذه بمقدمة طويلة، هاجم فيها مخرجى المسرح ونقاده. ومما قاله في حملته : « كان من الممكن لبعض هذه المسرحيات أن يمثل على مسارح برودواى، لو أننى كنت راغبا في أن أتلقى دروسا في الكتابة من المخرجين. غير أننى لا أعرف مخرجا احترم فيه موهبته في الكتابة ! »

• **« روبرت جرافز »** شاعر مخضرم في السادسة بعد الستين من عمره. لكنه شاعر مقل، اذا قيس انتاجه الشعرى بما أنتجه في ميدان النثر. فخلال السنوات الأربعين الماضية، أخرج جرافز ٧٠ كتابا في التراجم، والقصة التاريخية، والنقد، والأبحاث، والترجمة.

واليوم يطل « جرافز » على قارئه من نافذة الشعر. فقد اصدرت دار « دبلداى » مجموعة من أشعاره (في ٣٥٨ صفحة)، جمع فيها شعره منذ عام ١٩٥٥، مضيفا اليه عددا آخر من القصائد الجديدة .. **وشعر جرافز غنائى - في معظمه - فيه نفحة من الذاتية، تبعد به عن شعر المعاصرين** من امثال اليوت، وباوند، وأودن. وهو يقول في مقدمته لأشعاره : « لقد كان النثر مهنتى ومعاشى. غير أننى قد استخدمته كوسيلة لشحذ احساسي بطبيعة الشعر »

رسالة لندن

ضوء جديد يسلط على لغز قديم

ما من مؤرخ تعرض لتاريخ الثورة الفرنسية الكبرى – فى القرن الثامن عشر – الا استهوته قصة القلادة الماسية، التى اعتبرها « جوته » أديب المانيا الأشهر ، الفاتحة الحقيقية للثورة !

ولعل القارىء يذكر ما كتبه المؤرخ الانجليزى « **ب. كريسب** » حول هذا الموضوع فى كتابه : « **مارى أنطوانيت وفيرسن** » . (راجع « كتابى » : العدد ١٧) فقد تعرض بدوره لقضية القلادة الماسية ، وأشار الى أنها كانت قضية قائمة على الخداع والغش ، وأن مارى انطوانيت – التى كانت طرفا فى القضية – قد انتقمت لنفسها ، فى الوقت الذى ازداد فيه ايمان الشعب باستهتارها ، وتبديدها لأمواله وأقواته ..

ومع أن جمهرة المؤرخين – من أمثال كارليل ، وبرنارد فاى ، وبرنتانو ، وستيفان زفايج – قد حاولت أن تزيح الستار عن حقيقة القضية ، التى شغلت اذهان ألشعب الفرنسى فترة من الزمن – مثلما شغلت أذهان أحفاده قضية « دريفوس » فى عام ١٨٩٤ – **الا أن الغموض قد اكتنف جوانب كثيرة فى القضية . ومن ثمة اختلف المؤرخون حول تحديد مسئولية الجناة الحقيقيين .**

والجديد فى الموضوع ، هو هذا الكتاب الذى أصدرته – مؤخرا – دار « جولانسز » ، بعنوان « **قلادة الملكة** » ، وهو من تأليف الكاتبة المحققة : **فرانسس موسيكر** .. فقد أنفقت « مسز موسيكر » سنوات من حياتها فى دراسة الوثائق والمخطوطات المتصلة بالقضية ، واستعانت بإدارة المحفوظات

الفرنسية ، الى أن انتهت من كتابها هذا ، الذى حاولت فيه أن تزيح الستار عن الحقيقة ، وأن تجلو الجوانب التى عجز عن تفسيرها أقرانها من المؤرخين والباحثين .

وقد بدأت قصة القلادة الماسية بخلاف نشب بين مارى أنطوانيت والأمير لويس دوروهان - كاردينال كنيسة ستراسبورج وقتذاك - الذى كان أول من استقبلها حين وفدت من وطنها (النمسا) فى سن الرابعة عشرة ، لتكون زوجة لولى عهد فرنسا ومليكها فيما بعد .

ولم يلبث ذلك الخلاف أن اشتد ، وتحول الى رغبة عارمة فى الانتقام من جانب مارى أنطوانيت ، التى كادت أن تنزل بالكاردينال المسكين أفدح ألوان النقمة ، لولا انها خشيت نفوذ أسرته ، فاكتفت باقصائه عن مناصب السلطان والنفوذ فى الدولة !

وحار الرجل الطيب - فهكذا وصفه مؤرخوه - فى أمر هذه الفتاة اللعوب المستهترة ، التى أصبحت صاحبة الكلمة الأولى فى الدولة . وعبثا حاول أن يكسب جانبها .. ولقد لجأ - فيما لجأ اليه من وسائل لاسترضاء غريمته - الى وسيلة حسب أنها الكفيلة بازالة أسباب الخلاف ، ولم يكن يدرى أنها ستدمر سمعته فيما بعد !

ذلك أن حظه العاثر وحسن نيته ، أوقعاه فى براثن عصابة من المحتالين ، تتزعمها امرأة فاجرة بشعة تدعى ، **مدام دو لاموت** . فقد نمى الى علمه أنها على صلة وثيقة بمارى أنطوانيت . ومن ثمة اتصل بها كى توفق بينه وبين الملكة الغاضبة . غير أن مدام دو لاموت - صاحبة التاريخ الطويل فى النصب والاحتيال - **لم تلبث أن اكتشفت فيه سذاجة والحاحا على الصلح ، جعلاها تفكر فى استغلال طيبته وثرائه** . فراحت تؤكد له أنها محل لثقة الملكة ، وأن

الأخيرة لا تستطيع أن ترد لها طلبا . بل انها قدمت له خطابات خاصة ، صادرة من الملكة اليها ، كبرهان على قوة علاقتها بها . ولم يفطن الكاردينال - فى غمرة حماسه وشوقه الى الصلح - الى أن هذه الخطابات مزيفة ، لا أساس لها من الصحة . فقد قام عشيق المرأة ، المدعو « ريتو دو لافيليت » ، بتزييفها لهذا الغرض !

وبهذه الوسيلة استطاعت المرأة الفاجرة - بمعاونة عشيقها وأفراد عصابتها - أن تبتز من الكاردينال أموالا طائلة ، مدعية أن الملكة فى حاجة اليها ، لانفاقها فى وجوه البر !

وفى تلك الأثناء ، علمت المرأة أن « جواهرجى » البلاط - **ويدعى بوهمر** - يحتفظ بقلادة ثمينة مرصعة بالماس ، تبلغ تكاليفها **مليونا وستمائة الف فرنك** ، وبأن هذه القلادة عرضت على الملكة ، ولكنها أعرضت عن شرائها لفداحة ثمنها. وهكذا وجدت المرأة الفرصة سانحة لكسب جديد. فانطلقت الى الكاردينال المخدوع ، **وأوهمته أن الملكة تتوق الى امتلاك القلادة ، وانها - أى دو لاموت - ترغب فى ابتياعها من أجلها ، لولا أنها لا تمتلك ثمنها !** .. وأخذت المرأة تحبك الخطة ، مستخدمة فى ذلك ما وسعها من وسائل الاغراء والاقناع ، الى أن قبل الرجل أخيرا ان يقرضها ثمن القلادة ، بعد أن تعهدت بتسديده على أقساط !

ومضى الكادينال الساذج يوهم نفسه بما ينتظره من جاه وسلطان ، زاعما لنفسه أنه لو اشترى القلادة للملكة ، لانفتحت أمامه كل الأبواب المغلقة دونه ، ولاكتسب مكانة ونفوذا لا يقلان عما يتمتع به مازارين أو ريشيليو .

وسرعان ما حصلت مدام دو لاموت على القلادة الماسية ، وعند ذلك عمدت الى نزع ماساتها ، وباعتها فرادى !

وجاء الكاردينال يطالبها برد الجميل ، فأوهمته بأنها قد اتفقت مع الملكة على تسوية الخلاف ، وأن الملكة قد أبدت استعدادها للالتقاء به . ثم ضربت له موعدا عند منتصف الليل ، فى حديقة القصر الملكى . وهرعت المرأة الفاجرة الى فتاة من أعوانها تدعى « أوليفا » ، فألبستها ثيابا كثياب الملكة، ثم اصطحبتها الى حديقة القصر خفية . وهناك تم اللقاء المزيف ! اذ ظهرت أوليفا فى ثياب الملكة ، وأخذت تتهادى فى دلال ، والظلام يحوطها فلا يكاد يظهر شيئا من ملامحها الحقيقية . وعندما اقتربت الملكة المزيفة من الكاردينال ، ركع **الاخير على ركبتيه ، غض بصره حياء ، ثم رفع يده ليتناول وردة قدمتها له المحتالة الذكية ، دون أن تنبس بكلمة !**

وقدر لمارى انطوانيت أن تعلم بما حدث ، فثارت ثورة عنيفة ، وأحست أن كرامتها قد ديست ، وأن اسمها قد اتجر به وكانت النتيجة أن قدم الكاردينال الى المحاكمة أمام البرلمان بوصفه أميرا ، حيث حكم عليه بالنفى ، وأنزل عن رتبته . اما مدام دولاموت فقد حكم عليها بالسجن مدى الحياة ، والوشم على الكتف ، ثم احتجزت فى أحد سجون باريس . لكنها تمكنت من الفرار ذات ليلة الى انجلترا .

ورغم أن مؤلفة الكتاب الجديد ــ مسز موسيكر ــ قد حملت على مارى أنطوانيت ، وكشفت عن مباذل البلاط الملكى، **الا أن الجناة الحقيقيين ــ فى هذه القضية التى لفها الغموض طويلا ــ هما مدام ((دو لاموت)) وعشيقها ((رينو دو فيليت)) .** فهما اللذان دبرا المؤامرة ، وابتزا اموال الكاردينال الساذج ، الذى كان يسعى للصلح مع الملكة بأى ثمن . أما مارى انطوانيت ، فكانت ــ فى الحق ــ ضحية بريئة فى كل هذه الفضيحة ، التى ما لبثت أن أطاحت بما كانت تتمتع به ــ مع زوجها لويس السادس عشر ــ من نفوذ وسلطان !

أضواء على حياة .. أم !

◆ **ويبدو** أن التاريخ الفرنسى لا ينفك يستهوى الكتاب الانجليز ، حتى ان انتاجهم المستمد منه ، يكاد يفوق انتاج زملائهم الفرنسيين . ففى الوقت الذى صدر فيه كتاب « مسز موسيكر » عن « قلادة الملكة » ، أصدرت دار « كولينز » للنشر كتابا عن .. السيدة الأم .. **ام نابليون بونابرت .**

ولعل واحدة من الامهات ـ فى التاريخ الحديث ـ لم تبلغ ما بلغته هذه السيدة الكورسيكية الحسناء من مكانة .. فقد أنجبت للعالم ملوكا وقادة شغل بهم التاريخ والمؤرخون ، وحسانا تألقن فى مجتمع عهد نابليون وامبراطوريته ..



اسمها : ليتيشيا رامولينو بونابرت ..
صناعتها : انجاب الاولاد وتربيتهم ، منذ كانت فى الثالثة عشرة من عمرها !

ولقد كان انتاجها غزيرا ، مزدهرا ، على رأسه ذاك الفتى النحيل ، الضئيل الجسم ، الذى اعاد الى الحيـــاة عهد امبراطوريات الاسكندر وقيصر . ومن هذا الانتـــاج ايضا : لويس ملك هولندا ، وجوزيف ملك نابولى ثم اسبانيا ـ فيما بعد ـ وجيروم ملك وستفاليا .. واميرتان همـــا : ماريان وبولين .. وكلهم يحملون اسم «بونابرت» ، ويدينون بالفضل لهذه السيدة التى نشأتهم أيما نشأة ، برغم أنها لم تتلق العلم فى مدارس ، وبرغم أنها ظلت ـ حتى وفاتها ـ تنطق اللغـة الفرنسية خطأ ، وتدخل عليها من اللحن والتصريف ما يثير ثائرة رجل الشارع فى فرنسا اليوم . (وكانت فرنســا قد اشترت جزيرة كورسيكا ـ موطن أسرة بونابرت ـ من ايطاليا قبل مولد نابليون بسنوات .)

ولقد تزوجت «ليتيشيا» فى سن الثالثة عشرة ، ومع ذلك احتفظت بجمالها ـ الذى كان حديث كل من شاهدها ـ الى حين وفاتها فى فبراير عام ١٨٣٦ . وهى لم تتخلف يوما عن رعاية أولادها والعناية بهم ، حتى عندما بلغوا مراتب المجد والشهرة . اذ تذكر الآنسة **مونيكا ستيرلنج** فى كتابها الذى اصدرته مؤخرا ـ بعنوان «**فخر الاسود : لوحة لأم نابليون**» ـ أن ليتيشيا الأم القديرة كانت تحب أولادها حبا جما ، وأنها كانت تعطف على نابليون بصفة خاصة ، وتردد دائما ـ مشيرة اليه ـ قولها : «**من أجلك ستدوم هذه النعمة !**»

وتذكر الآنسة مونيكا أيضا أن ليتيشيا كانت قاســـية فى معاملة أولادها ، برغم هذا الحب والعطف اللذين نبعا من قلبها .. وكانت قسوتها تصل الى حد الضرب . **وقد ذكر نابليون أن آخر مرة تعرض فيها للضرب من أمه ، كانت عندما تخرج ، وأصبح ضابطا فى الجيش فى سن السابعة عشرة !**

وكان نابليون يخشى أمه ويحترمها فى الوقت نفسه . وكان

لا يفتأ يقول لها : « اعتنى بصحتك ، فانك لو مت ، لتعرضت — أنا — لكل ما فى العالم من مساوىء !» .. **ومن الطريف ان نابليون مات عام ١٨٢١ ، أى قبل وفاة أمه بخمسة عشر عاما .** كما أنها لم تتركه وحده ، حتى فى أيام محنته فى المنفى . فقد عاشت الى جواره ، صبيا وضابطا وامبراطورا .. ثم سجينا فى جزيرة صغيرة .

وعندما مات ابنها العظيم ، أصابتها صدمة عنيفة ، لكنها لم تنل كثيرا من حيويتها وجمالها . غير أن الشيخوخة مالبثت أن أخذت تتغلب على هذه الحيوية شيئا فشيئا ، حتى خلفتها فى النهاية كتمثال من الشمع الناصع البياض .. تمثال ماتت فيه الحيوية .. **«ليس فيه الا العيون تتحرك!»** ، كما قال — بحق — الروائى الخالد ستاندال ..

وهكذا عاشت « ليتيشيا رامولينو » من أجل أبنائها ، ثم ماتت لتترك سيرتها على الألسنة ، كمثل لما يجب أن تكون عليه كل أم . وليس غريبا أن يطلق عليها **باسكال باؤولى** — بطل المقاومة الشعبية فى جزيرة كورسيكا — اسم **« كورنيليا »** ، نسبة الى زوجة أحد أباطرة الرومان القديمة ، وكانت معروفة بحسن تربيتها لأولادها ، ومثاليتها كأم .

رسالة باريس

يقدمها : الدكتور انور لوقا

انتاج لاينضب

• **أثبت** الكاتب الفرنسى المعروف **« أندريه موروا »** ــ الذى قدم « كتابى » تلخيصات لعدد من روائعه ــ أن انتاجه دافق لاينضب .

وقد وثب الى واجهات المكتبات البارإسية ، واحتل مكان الصدارة فيها ، كتاب جديد لأندريه موروا . والكتاب جديد فى مادته ، يروى ــ للمرة الأولى ــ سيرة امرأة غير شهيرة ، كانت زوجة رجل شهير ، هو « الجنرال لافايت » القائد السياسى والحربى الذى برز فى الثورة الفرنسية الكبرى سنة ١٧٨٩ ، ثم فى الثورة التى تلتها سنة ١٨٣٠ ، كما اشترك فى حرب الاستقلال بأمريكا .

لقد وجد ورثة « لافايت » فى قصره من الأوراق والوثائق والرسائل كنزا محفوظا ، أبقت عليه الأيام كاملا ، ولم تصل اليه أيدى الباحثين . فدعوا الى الكشف عن خباياه ذلك الأديب المرهف الذى برع فى كتابة السير وتوثقت علاقاته بالأدب الانجليزى والحياة الامريكية . ولبى « أندريه موروا » تلك الدعوة سعيدا ، وأخرج من الكنز المجهول كتابا يمتاز بدقة ما يسرد من وقائع التاريخ ، وصدق ما يرسم من صور الأحداث والنفوس ، فى أسلوب قصصى طلى أنيق .

وقد أطلق على هذا الكتاب اسم : **« أدريين »**

والطريف أن « موروا » لم يجذبه التاريخ لذلك القائد المعروف ، الذى دوى صيته بين فرنسا وأمريكا ، بل جذبته

وداعة زوجته « أدريين » التى توارت بتواضعها وراءه ، وظلت حتى وفاتها بين يديه مثلا جميلا للتضحية والفضيلة والاخلاص ، رغم انصرافه عن حبها أحيانا الى مغامرات بعيدة . واذا كانت للافايت بعض مواقف البطولة فى الحياة العامة ، فان لهذه المرأة بطولتها فى الوفاء . ويعرفنا المؤلف بأسرار ذلك القلب النبيل ، دون أن يهمل سيرة لافايت نفسه ، فلولا تفصيلها لغابت عنا معان كثيرة من كرم «أدريين» .

وهكذا يترجم فنان كبير لامرأة مغمورة ، فتصبح ترجمته - لشمولها وتعمقها - مرجعا من مراجع التاريخ .

كاتبة عربية .. فى فرنسا

• **وهذه** قصة عرفت من الرواج بين قراء باريس ما يبرره ثناء بعض النقاد عليها ، وتكرار اسمها بين الكتب التى رشحت لأكثر من جائزة . ولقد فازت بما يشرفها من الأصوات فى لجان التحكيم ، الا أنها لم تفز بالجوائز المرموقة .. ربما لأن مؤلفتها - « **اندريه شديد** » - من الجمهورية العربية المتحدة ، ولأن موضوعها عن مصر !

والقصة - وأسمها « **اليوم السادس** » - بسيطة ، تجرى أحداثها أثناء أنتشار وباء الكوليرا ، سنة ١٩٤٧ . والبطلة - « أم حسن » - غسالة فقيرة ، ترهب عربة الاسعاف التى تأخذ المصابين الى المستشفى ولا تعيدهم أبدا . واذ تظهر اعراض المرض على أبنها الصغير ، تخبئه ، لاسيما وقد نقل الولد أخيرا ان مدرسه قرأ فى الصحف أن المرض يزول خطره بعد اليوم السادس ، أن لم يمت المريض قبل ذلك . **لقد أصبح كل همها أن تبقى على أبنها حيا بين يديها حتى يمر هذا اليوم السادس** وأنها لتنتظره كما ينتظر المؤمن يوم

البعث . وتعمد الى التستر على ابنها فى حجرة الفسيل ، ثم فى مركب على النيل مقلع نحو البحر . وتربط المصادفة فى قلبها بين فكرة اليوم السادس وفكرة الوصول الى البحر ، فتتشبث بهذا الرجاء ، حتى يصرع الموت ولدها ، ويدهمها نبأ موته ، قبل أن يتحقق وهمها الساذج .

وبسذاجتها الواهمة تمثل « أم حسن » الحب الأموى الغريزى . وهو حب شديد عنيد ، يدفعه الجهل الى الايمان بعقائد قاهرة ، من صنع المصادفة لا المنطق ، وينتهى بها الى قتل الولد العزيز بعد تعذيبه بنقله من مكان الى مكان ، واقصائه عن أدنى وسائل العناية ، وحرمانه من الفرصة الوحيدة لخلاصه وهى المستشفى . وتهاجم المؤلفة فى رفق جهل « أم حسن » عندما تدبر لقياها على ضفة النيل بامرأة عائدة من المستشفى ومعها ابنها الذى تم شفاؤه .

وهناك شخصية القرداتى « أوكازيون » ، تصاحبه قردته « منجة » ، وهو يمثل الذكاء الشعبى والمكر والحيلة . يعرف أن عواقب الجهل وخيمة ، فيبلغ أولى الأمر عن حالات الكوليرا الجديدة ، وان كان يربح من وراء ذلك مكافأة مالية فى كل مرة .

وتسيطر على الجزء الأخير من القصة شخصية الريس « أبو نواس » ، وهو رجل جاد ، نبيل ، قليل الكلام ، ولكنه يفلح فى أن يخفف عن « أم حسن » آلام احتضارها ، بأن يلقى فى سمعها أن ولدها قد دبت فى بدنه الحياة ، وتلون خداه ، وأنه راح يضغط بيده الصغيرة على اصبعه .. ويتلقف عباراته مساعده النوبى فيكررها كأنه الصدى القوى ، أو كأنه الكاهن القديم يردد أدعيته ..

وهكذا تبتسم « أم حسن » قبل أن تلفظ آخر أنفاسها ، واثقة من أن ابنها سوف يرى البحر .. وتنتهى هذه الصفحات المؤثرة ، النابضة بفزير من الرموز والمعانى المصرية الأصيلة .

ان « أندريه شديد » شاعرة ، نشرت بالفرنسية أكثر من ديوان فى باريس . و « اليوم السادس » قصة تمتاز بجمال الشعر وايحائه .

الدنيا تبدأ .. اليوم !

• ((**الدنيا تبدأ اليوم**)) .. قصة حياة ، وكتاب فى فلسفة الحياة . والمؤلف — ((**جاك لوسيران**)) — أستاذ واسع الثقافة ، مرهف الشعور ، كبير القلب ، يعرفه معرفة وثيقة عدد من شبابنا الذين درسوا على يديه الأدب فى مدرسة المعلمين بسان كلو ، قرب باريس . **وهو يروى ما يدور فى نفسه عبر حياة قاسية ، حسبه فيها شقاء حرمانه من نعمة البصر وهو فى الثامنة من عمره ، ثم الزج به فى معسكر اعتقال ألمانى وهو فى سن العشرين !** وبالرغم من شدة البؤس الذى اصابه ، ومر الجور الذى تجرعه ، ها هو ذا يحدثنا عن تجربته ، ويصف الناس كما عرفهم والحياة كما يتمثلها : حياة القلب والعقل ، والتفاعل العميق بين العالم وباطن الانسان . وفى رأيه أن الطمأنينة لاتوجد فى العالم الخارجى ، بل توجد فى نظرتنا نحن الى هذا العالم .. نظرة الحب والرضا .

انه كتاب مؤثر ومقنع ، يدعو الى الثقة والاستبشار ، ويبين للمتشائمين طرافة الحياة فى تجددها كل لحظة . رسالته حكمة كريمة منعشة ، تتلخص فى أن الكون قد خلق

بقصد اسعاد الانسان .. سعادة يروعنا أن تتدفق ينابيعها من مجرد اشارة عابرة ، أو حركة عارضة !

دفاع عن حضارة الرومان

• **فى** سلسلة قيمة عن الحضارات الكبرى يصدرها الناشر «أرنو» ، صدر أخيرا هذا الجزء عن ((**الحضارة الرومانية**)) بقلم جامعى متخصص هو ((**بيير جريمال**)) استاذ هذه المادة فى السوربون . والجديد فى هذا الكتاب ذى المنهج العلمى الدقيق ، منحاه الفكرى الذى يرمى الى انصاف الرومان ، بعد ما شاع فى كتب التاريخ من أنهم كانوا عالة على الحضارة اليونانية ، ينقلون ولا يبتكرون ، ولا يتفوقون على جيرانهم الا بالأسلحة القاهرة وبالقوة الحربية الغاشمة . والمؤلف يجلو عبقرية روما ، وعنايتها بالانسان الكامن فى البطل ، وتفتحها على آفاق العالم الذى عاصرها ، وتوخى الوضوح فى بلاغتها والواقع فى فنها ..

انه برد ما لقيصر لقيصر !

الصين .. بين الماضى والحاضر

• **بين** صورتين متناقضتين للصين روجتهما امريكا والشيوعية ، صورة تثير الرهبة وأخرى تثير الاعجاب ، مضى الباحث الشهير ((**تيبور مند**)) — الذى تخصص فى دراسة ثورات آسيا — يلتمس صورة الصين الحقيقية فى كتابه ((**الصين وظلها**)) . فاستعرض البلاد من الاقاليم الشرقية المكتظة العاملة فى نظام صارم يكاد يشبه السخرة . **وسجل بغض الصينيين للغرب ، فالغرب مسئول عما اصابهم من أسباب التدهور** . ونبه الى خطورة الدور الذى تقوم به أجهزة الدعاية ، فهى التى تلقن الناس افكارهم ، وتوجههم الى

الأهداف التى تحددها الحكومة ..

والكتاب يذكر فى صدق ما للحكومة وما عليها ، ويظهر محاسن العهد الجديد كما يظهر عيوبه . ويروق للمؤلف أن يستشف وراء الحمية فى العمل ، وتيقظ وعى قومى تمتد جذوره فى تاريخ سحيق ، وتوثب الأمة الى مزيد من الرخاء والشرف .. طموح البشرية وأوزارها فى كل مكان وزمان .

عندما طرق بلزاك ابواب المسرح

• **الحديث** عن « بلزاك » لا يكاد ينتهى .. وقد صدر ــ أخيرا ــ كتاب جديد عنه ، بعنوان **«بلزاك ، مؤلفا مسرحيا»** .. بقلم المدير السابق لفرقة الكوميدى فرانسيز **« بيير ديكاف »** .

والمعروف ان « بلزاك » ــ الذى تبوأ عرش القصة ــ قد طرق أبواب المسرح دون أن يظفر بما كان يرجوه فى هذا الميدان من مجد . وتدهش الباحث كثرة عناوين المسرحيات التى خطتها ريشة بلزاك على أوراقه ، وكثرة الموضوعات التى ادخرها لأعمال درامية يتحدث عنها فى رسائله وكأنه فى غمرة انشائها ! لقد كانت تلك طبيعة بلزاك ، تتفجر قريحته بالأفكار والمشروعات .. التى تظل مشروعات ، لان الحياة لا تتسع لها . لقد عاش هذا الأديب الفحل خمسين سنة ، أتقن خلالها بفضل عمله الدائب فن القصة ، وكانت تعوزه خمسون سنة أخرى لاتقان فن المسرحية ! وما أكثر الكتب التى درست بلزاك من شتى نواحيه .. غير أن هذا الكتاب الجديد يقدم لنا صورة حية لمصير بلزاك الزاخر بالمعانى الانسانية ، ويطلعنا على نشاط ملكاته الخالقة ..

اخبـــار أدبية

• للمرة الأولى دخل أدب « أنطون تشيكوف » الى برامج فرقة « الكوميدى فرانسيز » ، فقد مثلت هذا الموسم – فى اخراج متقن – مسرحيته الشهيرة « العم فانيا » .

• اتهم القصاص الروسى « كوتنيزوف » الناشر الفرنسى « فيت » بأنه أصدر بدون اذنه ترجمة لقصة له ظهرت فى احدى المجلات الروسية بعنوان «نجم فى الضباب» . وترافع المحامى الذائع الصيت «موريس جارسون» أمام محكمة ليون المختصة فطالب بحماية حق الملكة الأدبية ، ولو كان لادباء ترفض أوطانهم الانضمام الى الاتفاقية التى أعدها « اليونسكو » لحماية حقوق المؤلفين . واخذت برأيه المحكمة فقضت على الناشر الفرنسى بدفع تعويض للكاتب الروسى . وقد أثارت القضية فى الصحافة الأدبية مناقشة جادة حول مبدأ المعاملة بالمثل .

• ظهر الفيلم الأخير لجان كوكتو « الأميرة دى كليف » . وقد اقتبسه من القصة التى كتبتها « مدام لافايت » فى القرن السابع عشر ، وهى أشهر وأجمل آثار الأدب القصصى فى ذلك العصر .

• ستضطلع دار «جارنييه» بنشر رسائل بلزاك محققة ، بترتيبها التاريخى ، فى عدة أجزاء ، ظهر منها الجزء الأول فى نحو ٩٠٠ صفحة ، وهو يشتمل على الرسائل المكتوبة من سنة ١٨٠٩ الى سنة ١٨٣٢ . والرسالة الأولى بقلم بلزاك عندما كان تلميذا بمدرسة «فندوم» ، فى العاشرة من عمره ، أما الرسالة التى ينتهى بها المجلد فتصور القصاص عشية ابتكاره مذهب عودة الأبطال فى رواياته . وبين هذه وتلك

نتتبع جهاد بلزاك الأدبى والمادى . وسوف تضم المجموعة نحو ألف رسالة ما زالت مبعثرة فى كتب ومجلات وصحف ، كما ستثبت رسائل عديدة تلقاها بلزاك من أفراد أسرته وناشريه واصدقائه الأدباء . ولن تقدم هذه الطبعة رسائل بلزاك « الى الأجنبية » – أى الى مدام « هانسكا » التى أصبحت زوجته قبيل وفاته – لأنها تؤلف مجموعة مستقلة ، سبق نشرها .

◆ يشترك أديب « رأسمالى » وشاعر شيوعى – هما أندريه موروا وأراجون – فى كتابة تاريخ للاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة على التوازى منذ سنة ١٩١٧ الى سنة ١٩٦٠ . وسيضيف « موروا » قسما عن « الولايات المتحدة سنة ١٩٦٠ » يعرض فيه نتائج اتصالاته – أثناء رحلته الأخيرة الى أمريكا – برجال العلم والطب والهندسة والتربية .. هذا هو الكتاب الذى تترقب صدوره باريس .